دكتور حسين مؤنس

مصر والعالم العربي

إعداد دكتورة / منى حسين مؤنس

تقديم رجب البنا

دار المعارف

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

تتلمذت على الدكتور حسين مؤنس دون أن يدرى..!

ونسج القدر خيوط علاقتى به..

وكانت البداية عن طريق أستاذ كبير هو الدكتور عبد العزيز كامل، وكان نائبًا لرئيس الوزراء ووزيرا للأوقاف، وكنت صحفيًا فى الأهرام مسؤولاً عن متابعة نشاط الوزارة، وكان طبيعيًا أن تتكرر اللقاءات بيننا يوميًا، وتطورت العلاقة إلى أن أصبحت صداقة شخصية، وكانت أجمل لحظاتى حين يفرغ الدكتور عبد العزيز كامل من أعمال الوزارة، وأجلس معه فى هدوء أستمع إلى علمه الغزير.. وكنت أجد متعة فى الحوار مع عقلية كبيرة ومتميزة مثل عقلية هذا الرجل الذى لن أنساه أبداً.. وكان الحوار يمتد من الجغرافيا وكان أحد علمائها القلائل فى العالم العربى، إلى التاريخ القديم والحديث، وإلى قضايا الدين والمجتمع وتعلمت من الدكتور عبد العزيز كامل الكثير.. فقد كان يمثل بالنسبة لى نموذجًا للعالم المتواضع الذى جعله الإيمان أقرب إلى روح التصوف، مع اعتماده على العقل والمنطق فى تفسير القرآن والحديث، ومع دقته الشديدة فى التعبير وتحوطه فى إصدار الأحكام..

وكان الدكتور عبد العزيز كامل صديقًا للدكتور حسين مؤنس، ولذلك كان يتحدث عنه معى كثيرًا، ويشير إلى آرائه ومؤلفاته، ولمست كيف تقوم الصداقة بين العلماء وكبار المفكرين على الاحترام المتبادل، وعلى حوار فكرى عميق مستمر يكشف عمق المعرفة لديهما، والتعاون فى البحث عن الحقيقة فى ذاتها دون غرور، أو ادعاء، أو انشغال بمن منهما اكتشفها قبل الآخر، أو أى منهما كان على صواب، فالمهم أن يصل الجدل إلى غايته المنشودة وهى الوصول إلى الحقيقة والصواب.. ورأيت عن قرب كيف

يكون التعاون بين الكبار، وكلاهما كان زاهدًا، ومنقطعًا للعلم والفكر، ولا يريد من الدنيا ومن فيها شيئا يضطره إلى الخضوع أو التملق..

وأثارتنى أحاديث الدكتور عبد العزيز كامل عن الدكتور حسين مؤنس فأخذت أبحث عن كتبه وأقرأها وأناقش الدكتور عبد العزيز كامل فيما جاء فيها.. وفتحت لى هذه الكتب عالمًا رحبًا أطل منه على التاريخ والحضارة الإسلامية..

وحين التقيت بالدكتور حسين مؤنس بعد ذلك بسنوات كرئيس لمجلس إدارة دار المعارف التى تنشر مؤلفاته، ورئيسًا لتحرير مجلة أكتوبر التى ظل ينشر فيها مقالاً أسبوعيًا بانتظام لسنوات طويلة، وكانت دهشتنا نحن الاثنين أن أول لقاء بدا وكأنه استكمال للقاءات سابقة، فبدأنا فى مناقشة طالت عن بعض أفكاره وكتبه ومواقفه، وبعدها ظللت انتظر مقاله وأنا فى عجب من هذا المفكر الكبير الذى تجاوز السبعين والمشغول بأبحاثه ومؤلفاته ومؤتمراته وأسفاره فى مهام علمية. كيف يجد وقتا لكتابة مقاله بانتظام وعناية بالغة، وكيف يستطيع من كان مثله غارقًا فى الكتب والأسفار القديمة أن يظل بمثل هذه اليقظة الفكرية، والحساسية فى رصد الظواهر الاجتماعية بما يطرأ عليها من تغير..

وفى رأيى أن شخصية الدكتور حسين مؤنس كباحث وأستاذ تختلف عن شخصيته ككاتب مقال سياسى واجتماعى فى مجلة أكتوبر، فهو بالشخصية الأولى عالم، مدقق، منقطع الصلة بالحاضر تقريبًا، وهو بالشخصية الثانية مفكر وناقد وأديب غارق فى هموم المجتمع، ومعايش للناس العاديين فى الحارة والقرية والمدينة، يشعر بمشاعرهم، ويشاركهم همومهم وأحلامهم، ويرصد شكواهم وتطلعاتهم، ويجعل قلمه صوتًا للحق لا يحيد، ولا يجامل، ولا ينافق..

وفى مناخ الحرية الذى تحقق للصحافة المصرية، أطلق الدكتور حسين مؤنس لقلمه العنان، فلم يعد يحاذر، أو يكتفى بالإشارة والتلميح، فأصبح

صريحا إلى درجة جارحة فى بعض الأحيان، وناقدًا إلى درجة الهجوم، وكاشفًا لما فى المجتمع من مشكلات وعيوب دون مواربة، ثم امتدت صراحته إلى الحديث عن نفسه وذكرياته، فقال كل شىء حتى عن خصوصياته وأسراره الشخصية، وأصبح بذلك نموذجًا للكاتب الذى لا يخشى شيئًا، ولا يتردد فى قول الكلمة والتعبير عن رأيه كما يراه دون اعتبار لصدى ما يقول وكان من حين لآخر يسألنى: هل أسبب لك حرجًا بهذه الصراحة، فأقول له: بل أننى سعيد بها.. فهذا هو وقت الكلمة الصريحة.. ولعنة الله على من يكتم كلمة الحق..

ورحل الدكتور حسين مؤنس وقد ترك ثروة لم يحتمل ضميرى إهمالها أو تجاهلها، وتوافق تفكيرى فى جمعها مع رغبة ابنته البارة الدكتورة منى حسين مؤنس أستاذ الأدب الإنجليزى بآداب القاهرة، وفيها من صفاته الكثير.. صفات المقاتل العنيد.. والمحارب من أجل ما يعتقد.. والزهد فى الأضواء والشهرة.. وفى دأب وإخلاص شديدين قامت بجمع هذه المقالات فى سلسلة كتب أقدمها للقارئ العربى فخورًا بأن تكون ضمن إصدارات دار المعارف التى ارتبط بها وجدان أستاذنا منذ أكثر من نصف قرن حتى أصبحت بيته وله فيها تلاميذ ومريدون يعرفون قدره، ويحملون رسالته، ويحرصون على إحياء ذكراه.

ولا أعرف كيف ساقنى القدر إلى يوم أرد فيه لأستاذى فيه بعض الدين الذى على، وأعبر به عن عرفانى بالجميل والتقدير لذكرى رجل من رجال مصر العظام..

وأترك للقارئ الكريم أن يستمتع بما فى هذا الكتاب من تجليات الفكر العميق، والتفكير الناضج، والروح الشابة لرجل عاش حياته بالطول والعرض كما يقول، وسافر إلى أركان الدنيا، وتعرف على ألوان مختلفة من الثقافات والبشر.. وتولى أعلى المناصب العلمية.. وحصل على أرفع الأوسمة

من مصر وغيرها، ومع ذلك ظل فى داخله مصريًا حميمًا، و «ابن بلد» لا يتردد فى ذكر النكتة، و «القفشة».. ويتبسط مع قارئه وكأنهما صديقان فى جلسة صافية مسترخية.. ولذلك جاءت هذه المقالات أقرب إلى «أحاديث الأصدقاء».. وجاء الأسلوب فيها متميزا وفريدا، سهلا وعميقا فى نفس الوقت. يختلف كل الاختلاف عن أسلوب الدكتور حسين مؤنس فى مؤلفاته العلمية..

وأرجو أن تكون هذه السلسلة من الكتب التى تصدر بعد رحيله وردة على قبره.. وتحية لذكراه

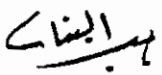

(١)

الرئيس مبارك .. ورياح النصر*

خلال العصر الناصرى كانت مصر تلهث وراء الأحداث ، وكنا جميعا نجرى كأننا مشدودون من شعرنا لأن الرئيس كان يريد ذلك. وكان يتصور إنه يصنع التاريخ ، وكان المطلوب منا أن ننظر إليه وهو يصنع التاريخ ونعجب به باستمرار ونصفق له على الدوام. لم يكن من المسموح لنا أن نشارك فى هذا العمل لأننا كنا متفرجين فحسب. ولهذا فقد كان أحب الناس إليه هم أولئك الناس الذين خلقهم الله متفرجين بطبعهم ، فهؤلاء يحسنون الهتاف ولا يفكرون ولا يناقشون قط. أما المساكين حقا فكانوا أولئك الذين يشعرون أن هذا البلد بلدهم وأن واجبهم أن يشاركوا فى صنع تاريخه ولو بالرأى فقط. هؤلاء أنصبت على رؤسهم بلاوى الدنيا كلها من السجن إلى الحرمان من العمل والراتب بالفصل عن العمل للإذلال.

هؤلاء بالذات هم الذين أحسوا بهول النكسة فى ٥ يونيو ١٩٦٧م وعرفوا طعم المذلة والهوان نتيجة للهزيمة.

وخلال عصر السادات حصلنا على بعض الحرية ، والسادات عرف كيف يصنع نصر أكتوبر ١٩٧٣م لأنه اعتمد على نفر من خيرة أهل مصر من العسكريين وغيرهم ، أولاهم ثقته وجلس معهم يرسم ويخطط. كلهم كانوا رجالا جادين من ذوى الحزم والعزم والحب لمصر. من بين هؤلاء كان محمد حسنى مبارك وكان أيامها قائدا لسلاح الطيران. وعلى الطيران كانت تقع المسئولية الأولى فى الحرب مع إسرائيل فمعركتنا معها كانت معركة الضربة الأولى. من كسبها كسب الحرب ، ومن خسرها خسر الحرب. وكان مبارك واعيا جدا لهذه الحقيقة ، وهو بطبعه لا يميل إلى

---

* نشرت هذه المقالة فى ٤ أكتوبر ١٩٨٧م .

التحدث عن نفسه وعما عمل ، ولكننى جمعت أطرافا. عما عمل لكسب هذه المعركة فى اجتماعه معنا يوم الأربعاء ٢٣ سبتمبر ١٩٨٧م. وهو فى الحقيقة لم يتحدث عن نفسه ، ولكنه كان يشرح لنا مصاعب العمل مع سوريا ، وسوريا كانت إن ذاك حليفتنا وكان المفروض أن نخوض المعركة معا وننتصر معا ، ولكن الرئيس حافظ الأسد كان يرسم ويخطط على طريقته ، وكانت لنا هيئة اتصال عسكرية فى دمشق كما كانت لهم عندنا هيئة.

وكان حسنى مبارك يتردد على سوريا بحكم مسئوليته. وقد أحس من المعلومات التى تجمعت عنده أن الأمور على الجبهة الأخرى لا تسير كما ينبغى ، ومباركٌ بطبعه إذا تولى عملاً تولاه بكل نفسه ، بكل علمه ، فقرر أن يعمل مستقلاً بالتفاهم – طبعًا – مع رجال الجبهة المصرية. وعندما أعطيت الإشارة لبدء الحرب قام بواجبه خير قيام ووجه ضربته الساحقة إلى إسرائيل فى سيناء وكسبها ، وعقب ذلك – وتحت مظلة الطيران – كان العبور وكان النصر. على الجبهة الأخرى فى سوريا سارت الأمور سيرًا سيئا. وفى يوم واحد فقدت سوريا فوق الثمانمائة دبابة. والتقدم السريع الذى أحرزه السوريون خلال الساعات الأولى من المعركة انقلب هزيمة ، ووقع مزيد من التراجع وفقدت سوريا أرضًا أخرى ، وهنا بدأ الهجوم على مصر. كان ينبغى أن ننهزم نحن الآخرين لكى يرضى عنا السوريون ، وكان علينا أن نسير وحدنا. كانت تلك فضيلة السادات الكبرى ، لقد عرف طريقه وعرف كيف يسير فيه. وتم توقيع معاهدتى الصلح فى سنة ١٩٧٧م وبدأنا نستعيد أرض سيناء. والجرح الدامى الذى كنا نعانى منه بدأ يندمل وعاقب العرب مصر على ذلك فسحبوا سفراءهم وأخرجونا من الجامعة العربية ، وإلى يومنا هذا مازال هناك عرب يتحدثون عن إلغاء معاهدتى كامب ديفيد ، وهو حديث يدل على غفلة وادراك قليل للحقائق.

هكذا وبمثال واحد صور لنا الرئيس مبارك صعوبة العمل العربى. وقد عرفنا أثناء اللقاء الطويل المفيد مع الرئيس يوم ٢٣ سبتمبر إن هذه

الصعوبات توجد فى كل ميدان لأن هناك كثيرين جدًا ممن يكسبون من تأخر مصر ويريدون أن ترتد إلى الوراء لتتحقق لهم مكاسب فردية وحزبية. وقد اطمأنت قلوبنا ونحن نستمع إلى الرئيس يتحدث بكل الصدق والصراحة والحرية إلى أننا نعيش فى أمان لأن لنا عيونا مفتوحة وساهرة وعارفة بكل شىء.

إن الأولوية الأولى لدى الرئيس وحكومته خلال فترة الرئاسة الثانية ستكون للاقتصاد. مصر ينبغى أن تتخلص من الفقر ومن الحاجة. لابد أن تصنع كل احتياجاتها بنفسها. لقد سمعته يتحدث بسعادة بالغة عن فرحته أثناء زياراته الأخيرة لمصانع ستيا من الأصواف. هنا يعمل مصريون جدد على آلات جديدة. إنهم على مستوى الآلات التى يعملون عليها. ومصر تصدر الآن لأسواق أوربا أصوافًا ممتازة تصنع بمواصفات خاصة تطلبها بعض الأسواق.

وهنا – فى ميدان الاقتصاد – تجد المخربين الذين يريدون تحطيم كل شىء لأنهم مستفيدون من هذا التأخر ، وأمامك مشكلة السيارات فإن استيرادها موقوف حماية للعملة المحلية ومحافظة على رصيد الدولارات الموجود فى مصر. ورغما عن ذلك فهناك من يجدون شقوقًا ومسارب ينفذون منها لتحطيم القانون ، والسيارات – حتى الغالية منها – ما زالت تتدفق، وما دام من حق كل مصرى يعمل سنة كاملة فى الخارج أن يعود بسيارة فهناك من يساومون العامل فى الخارج على التنازل لهم عن السيارة التى سيأتى بها من الخارج لقاء مبلغ معلوم. وهم يتسلمون السيارة ويودعونها المخازن – وهى ملك للعامل المصرى فى الخارج لمدة سنتين ثم تصير ملكًا لهم بناء على عقد موقع عليه مقدمًا. وهؤلاء – أبطال هذا النوع من السوق السوداء – يرتكبون المخالفات على طول الطريق وعندنا فى مدخل بيتنا مساحة هى مدخل للعمارات الخليفة. هذه المساحة لا يجوز إيقاف

السيارات فيها لأنها لابد أن تكون خالية أمام عربات الحريق والإسعاف مثلا.

لكن بعض السكان يسعدهم أن يوقفوا سياراتهم فيها بصورة دائمة لأنه يسعدهم دائما أن يعيشوا خارج القانون. أنهم ناس نجسون بالطبع ، وهم لا يدفعون رشاوى – فيما يقال – للبوابين والسياس ، وأنا شخصيا لم أوقف سيارتى ليلة واحدة فى هذا المدخل ولم أجد أية صعوبة أو حرج فى ذلك ولكننى على الأقل احترم نفسى باحترام القانون واحترم نفسى ووطنى بالابتعاد عن الرشوة والفساد.

هذا النوع من المخربين موجود فى كل ميدان. ومن المحزن أنهم أغنياء وأقوياء. وغناهم وقوتهم نكبة علينا. ولكن ماذا تعمل الحكومة؟ والرئيس مبارك الذى يعرف ذلك كله ويمسك بكل الخيوط يطلب إلينا معاونة الدولة.

وبكل صراحة وإخلاص نقول إننى – وأنا هناك لا أملك إلا الحق فى التحدث عن نفسى – مع الحكومة كسلطة عليا ، فالوزراء والحمد لله من أكثر الناس خبرة وأمانة ، وهم يعملون بأقصى طاقاتهم ، ولكن المشكلة فيمن يلى الوزراء نازلا مع السلم الوظيفى. هنا نجد مستويات لا توصف إلا بأنها رويئة أو أردأ أو اللأردأ ، ونادرًا ما تجد الجيد والأجود والممتاز. وهذه الرداءة تبدأ بالإهمال ولا أعرف أين تنتهى. وأنا شخصيا لا أعرف موظفا فى الحكومة يقضى لى مصلحة إلا إذا ذهبت إليه فى مكتبه ورجوته. هنا يقضى لى الحاجة. لماذا لم يقضها قبل أن آتى؟ إننى واثق أنه لو كان كل موظف يملأ ساعات وقت الحكومة فى العمل فى صالح الحكومة لما اضطررنا إلى التسكع على المكاتب ، وهذا شىء مرهق جدًا هذه الأيام. ومن شهرين أرسلت بنفسى خطابًا هامًا إلى إنجلترا ، والخطاب لم يصل واضطررت فى الأسبوع الماضى إلى إرسال خطاب آخر بالبريد السريع

وكلفنى هذا مالا كثيرًا. أين الخطاب الأول؟ إننى مع الحكومة ما فى هذا شك. ولكننى مع الأسف لست مع موظف الحكومة ولم أعرف كيف أعاونه.

وكلنا مع الرئيس مبارك فى إعطاء الأولوية للاقتصاد خلال هذه المرحلة، لأنه إذا استطاع أن يخرج مصر من أزمتها الاقتصادية فسيكون قد حقق معجزة. وصَوْت فى صدرى يقول إنه سيستطيع بإخلاصه وصدقه ومواظبته وفهمه للأمور. إن المخربين يعملون بجهد بالغ لتعويق هذه النهضة. من بين هؤلاء المخربين كثيرون جدًا من العمال الذين تضخمت مرتباتهم وامتيازاتهم وسلطاتهم ، وأصبحوا قادرين على إيقاف حركة العمل فى المؤسسات التى يعملون فيها. وهذا الطراز المخرب من العمال جرىء جدا ووقح جدًا. وما أسرع ما يلجأ إلى المحكمة ، ويرفع قضية على المؤسسة ويكسبها. ويصبح تخريبه على هذه الصورة رسميا ، ونحن مستعدون لكل شىء فى معاونة الحكومة على كل أصناف المخربين وخاصة هذا الطراز من الموظفين وأصغر أولئك الموظفين يملك الحق فى أن ينقطع عن العمل يومًا بحجة أو بغير حجة وأحيانا دون أخطار – الذى أعرفه أن هذا اليوم من الغياب يخصم من الموظف أو العامل الذى يتغيب عن العمل بهذه الصورة. ولكننا هنا لا نخصم ولا نستطيع أن نخصم. خسائرنا من جراء هذا التخريب القائم على الاستخفاف بشعة جدًا. وأنا أعرف – وعملت فى – مؤسستين كانتا تحققان أرباحا ضخمة فى الماضى. وهما اليوم تخسران خسائر أليمة ، ورؤساء مجالس الإدارات فى هاتين المؤسستين من أكفأ المصريين وأكثرهم إخلاصًا ، ولكنهم حقيقة لا يستطيعون شيئا فإن تلال الموظفين أصبحت جبالاً تسد عين الشمس وتحول بيننا وبين تحقيق التقدم المطلوب ولابد من عمل حاسم. أنا لا أطالب الرئيس بأن يقوم وحده بذلك العمل الحاسم ولكننى أدعو إلى

التفكير فى إيجاد حل لهذه المشكلة وهى فى الحقيقة مشكلة تكوين وأخلاق. والمدرسة لا تعلم. والبيت أفلت من يده الزمام. وكل عام يزداد عدد موظفى الدولة فوق المائتى ألف موظف ممن لن يعملوا بربع أجورهم لأنهم لم يتعلموا شيئًا.

هنا تنفع القدوة. والمثل يضربه لنا الرئيس مبارك بأخلاقه العالية ومبادئه القويمة وصراحته وإيمانه بالحرية وحضوره الدائم فى كل ميدان. إننى أعد نفسى سعيدا لأننى أعيش فى عصره ، وأرى بعينى رئيسًا لمصر كما كنت أتمنى. ترى هل يأذن لى السادة رؤساء مجالس الإدارة فى مؤسسات القطاع العام بصورة خاصة أن أقول أن حضور رئيس مجلس الإدارة يوميا إلى مؤسسة أساسى وضرورى ، ولا نعرف الأثر السيئ الذى تتركه فى نفوس الموظفين عبارة : السيد رئيس مجلس الإدارة لن يأتى إلا مع الظهر ، وثلاثة أيام فى الأسبوع فحسب ، ولا أتصور أن تخريب الموظفين والعمال سيكون على هذه الصورة لو انهم كانوا يعرفون إن رئيس المؤسسة موجود وإنه من الممكن أن «يطب» فى مكاتبهم أو فى قاعات الآلات والعمل والإنتاج فى أى لحظة إننا بطبعنا ناس نختشى ، ولكن توالى غياب الرؤساء جعلنا نخاف ولا نختشى.. وقوانين العمل جعلتنا لا نخاف ولا نختشى. جربوا معى أيها السادة الرؤساء. كونوا فى مكاتبكم من أول مواعيد العمل وانزلوا إلى المكاتب ومراكز العمل وتجولوا وتحدثوا مع الموظفين والعمال واسألوا عن كل شىء كما يفعل الرئيس. حلوا المشاكل على الطبيعة وعلى أعين الناس. مرة بعد أخرى ستحسون بالتحسن والتقدم. وستهب على مؤسساتكم رياح النصر كما تهب على مصر كلها بفضل القدوة التى يضرب المثل فيها المبارك الرئيس مبارك.

إننى أعرف رؤساء مجالس إدارات لا تسأل عنهم مكاتبهم إلا قيل لك أنهم فى مكاتب الوزراء. ومتى سيأتى سيادته؟ الساعة الواحدة بعد الظهر! وحتى لو كانوا صادقين فى هذا فما عساهم فاعلون فى مكتب الوزير؟

وبمناسبة ما أشار به السيد الرئيس من العناية بدار الكتب القديمة فى باب الخلق أقول إن الحل الجاد لهذه المشكلة هو الفصل الكامل بين دار الكتب المصرية وهيئة الكتاب. لقد كانت دار الكتب المصرية مفخرة من مفاخر مصر ، وكلنا درسنا فيها ، علماء ، كثيرون كانوا يأتون من الخارج لدار الكتب ، أما هيئة الكتاب فدار نشر يمكن أن توصف بأنها تجارية ، بل ينبغى أن تكون تجارية ، فما دخل هذه فى تلك الدار؟ وهل يمكن مثلاً فى إنجلترا أن تضم مكتبة المتحف البريطانى إلى دار نشر تجارية؟ وهل يخطر على بالنا أن تضم المكتبة الأهلية فى باريس إلى دار نشر لاروس مثلاً؟ ومكتبة الكونجرس فى واشنطون لا يمكن أن تضم إلى دار نشر تجارية. فى الوضع الحالى لا تسير الأمور فى الاثنتين كما ينبغى. ضيعنا دار الكتب الجليلة وعرفنا هيئة الكتاب. ولا أظن أن أخى الدكتور سمير سرحان يرى فى ذلك بأسًا وله فى هذه الحالة أن يختار إلى المؤسستين ليرأس مجلس إداراتها. فى هذه الحالة سيكون مديرًا دار الكتب مديرًا فحسب ولا حاجة فى هذه الحالة إلى رياسة مجلس إدارة. أحب أن أضيف هنا أننى أتحدث عن نفسى وعن عشرات ممن هم مثلى ممن لم يعجبهم هذا الضم منذ أقدم عليه أخونا الدكتور محمود الشنيطى وأقنع به وزير الثقافة إذ ذاك ثروت عكاشة.

لقد كنت أعرف قبل أن التقى بالسيد الرئيس المركز الممتاز الذى بناه السيد الرئيس لمصر فى الميدان الدولى بسياسته الحكيمة الرزينة التى تعرف كيف تسير فى ميدان كله أخطار ومفارقات ومتناقضات مثل ميدان السياسة الدولية. هنا تجد الصراع الدائم العنيف بين الدولتين العظميين. وقد أحسن الرئيس مبارك بإعادة العلاقات إلى مجراها الطبيعى مع الروس وهى الآن فى تحسن كل يوم. انك أينما ذهبت فى الدنيا تسمع الثناء على الرئيس مبارك. ومن أسبوعين عادت ابنتى من الهند تتحدث عن إعجاب الناس هناك بالرئيس مبارك.

إن الرئيس مبارك موفق هنا كل التوفيق ، ولكن توفيقه الأكبر يتجلى لك فى معالجته للقضايا العربية. إننا خارج مسرح السياسة العربية رسميا ولكننا فى صميمه بالفعل والواقع. وقضايا عربية هامة وكثيرة تعالج هنا فى القاهرة ، وما أظن أن أحدا يأسف على وجودنا خارج الجامعة العربية التى تفرض على أعضائها الخضوع لرأى سوريا وليبيا والعراق ومنظمة التحرير فى كل شىء فهذه الدول لا تتفق فيما بينها على شىء. وإذا هى اتفقت فلكى تضايق السعودية ومصر مثلاً. وهذا كله وجع دماغ بلا معنى.

فى الوضع الحاضر يسير الرئيس بسياسة مصر الخارجية بنجاح عظيم لأنه لا ينظر إلا لصالح مصر. وهذه ظاهرة تميز سياسة مبارك فى كل ميدان داخلى أو خارجى: مصلحة مصر أولاً وثانيا وإلى عاشرا. وهو يفهم السياسة العالمية فهما تامًا وسليمًا بعد خبرة السنين. وهو لا يتأخر عن السفر إلى أى بلد يخدم صالح مصر ويحل مشاكلها بذكاء باهر وحكمة بالغة ، وما أظن أن رئيسا لمصر قبل مبارك فهم موضوع العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل كما يفهمها مبارك وهى مشكلة معقدة جدًا فإن أحدًا لا يصدق أن إسرائيل هى التى توجه سياسة الولايات المتحدة والعكس ليس صحيح.

إن عالم السياسة الخارجية عالم قذر. وهذا الكلام قاله وينستون تشيرشيل. وقد افتضحت ذات مرة إحدى أكاذيبه وقال له أحد النواب فى إحدى الجلسات: ولكن لماذا يلجأ السيد رئيس الوزراء إلى هذه الأساليب القذرة؟ فكان رد الرجل القارح: إذا كنت طول النهار أخوض فى الأوحال إلى ركبى فكيف تطالبنى بأن أكون نظيفًا دائمًا؟ لماذا تريدنى أن أكون مغفلاً والتزم الصدق مع ناس لا يقولون لى إلا الكذب؟ وقال له نائب آخر: إذا كان هذا جائزًا مع الأعداء فكيف تلجأ إلى هذه الأساليب مع الأصدقاء؟ وتشيرشيل حسم المناقشة بقوله: كل السياسة الخارجية أكاذيب وخداع وأوحال.

الرئيس مبارك يعرف ذلك جيدًا. ولكنه رجل فاضل أصيلاً ، ولهذا فهو يعرف كيف يصون نفسه ويسير فى عالم السياسة الخارجية على أطراف ويعرف كيف يصل إلى هدفه دون أن يخوض فى الأوحال. وهو هنا يستعمل ذكاءه كله ويعرف من هم أصدقاء مصر ومن هم أعداؤها ، ومن المنافقون الذين هم أصدقاء فى الوجه وأعداء فى الظهر ، ولكل منهم معاملة وكلام. ودون كذب ودون خوض فى الأوحال نعرف كيف نصل. والذى يحققه مبارك لمصر من الخير بهذا الأسلوب أكثر من أن يحصى ولكن مبارك لا يقول إلا النزر اليسير. والسبب الرئيسى فى ذلك هو أن مبارك لا يفكر فى نفسه أبدا بل فى مصر. صالح مصر أولا وصالح مصر أخيرًا.

ومادام الرجل قد تخلص من الصالح الشخصى فمن المؤكد أنه يوفق إلى ما يريد. لأن مصيبتنا الكبرى هى عشقنا لنفوسنا ، والواحد منا يسوق نفسه إلى جهنم بعشقه لنفسه. ومبارك هنا حازم جدا. وهو لا يترك أحدًا – أيا كان – يتخطى حدوده مع مصر. وهو يعرف كيف يهب كالصاروخ فى وجه من يقول كلمة لا تعجبه ويسكته فى الحال ، وبمعاونه وزيريه القادرين عصمت عبد المجيد وبطرس غالى لا يفقد معركة فى السياسة الخارجية قط، وما لا يكسبه اليوم يكسبه غدا والزمن عنصر هام جدًا فى حل المشاكل وفتح الأبواب.

ولكن صبر مبارك ليس صبر المتواكل الذى يترك المسائل تجرى على عواهنها حتى يحلها خالق الكون. إنه صبر اليقظ الحازم الذى يبذل أقصى جهده ويترك ماالله لله ويظل مع ذلك يقظا لأن سبحانه يحب عبده القوى ولا يحب عبده الضعيف ، والله سبحانه يقول: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾* لأن هذا الأعداد يحتاج إلى زمن ويقظة. وأنا

---

* سورة الأنفال الآية ٦٠ .

شخصيًا لا أحب بيتى الشعر اللذين يعجبان الكثيرين ولا يزالون يرددونهما كأنهما منتهى الحكمة وهما فى الحقيقة منتهى الغباء:

دع الأمـــور تجرى فى أعنتهـــا
ولا تبيتن إلا خـــالى البال
ما بين طرفـــة عين وانتباهتهـــا
يبدل الله من حال إلى حال

وكيف أترك الأمور تجرى فى أعنتها وهـى أمـورى ومصـالحى؟ وكيـف لا أبيتن إلا خالى البال وهناك من حول من يسهر الليل يدبر ويرسم ويخطط لصيانة مصالحه؟ لقد أعطانى الله العقل وهو قبس من نوره وأمرنى أن أفكر وأستعمل ذهنى وأبذل غاية جهدى ، وكل هذا مقدر فى علم الله ، حتـى إذا وصلت إلى آخر جهدى ولم يبق فى يدى شىء اعملـه تركـت البقيـة لله وأظل مع ذلك يقظًا. والله سبحانه لا يتخلى عن المجتهدين قط حتـى ولـو لم يكونوا مسلمين. ألم يقال سبحانه ﴿وتلك الأيام نداولهـا بـين النـاس﴾*؟ لماذا لم يقل هنا «بين المؤمنين» وعمر بن الخطاب قال فى أحد.. خطاباتـه لقواده. إننا إذا كذبنا وخادعنـا وتراخينـا كـان غيرنـا أولى بـالنصر منـا لأن الغلبة لا تكون إلا للفاضل الذكى العامل. والإسلام فضل وذكاء وعمل ونحن إذا كنا أفاضل وأذكياء وعاملين فنحن مسلمون. ونحن إذا تخلينا عـن ذلـك خرجنا من الإسلام دون أن ندرى.

كان معنا فى ذلك الاجتمـاع السـيد يوسـف صـبرى أبـو طـالب محـافظ القاهرة وكان مجلسه قريبًا منى ، وقد لاحظت أنـه يصغـى إلى كلمـة فقـال بكل اهتمام. إنه يتعلم بالسماع ، وأنا أيضًا أتعلم بالسماع ، وجـرى بيننـا حديث قصير. إنه رجل مـهذب جـدًا. وبعـد أيـام سمعتـه فـى التليفزيـون يتحدث عن مترو الأنفاق. تبين إنه يعرف كل شىء. كـل صغـيرة وكبـيرة.

* سورة آل عمران الآية ١٤٠ .

وأنا شخصيا أعرف مترو الأنفاق فقد دعانى لمشاهدته اللواء المهندس الحسينى مرتين. قلت فى نفسى وأنا أصغى ليوسف صبرى أبى طالب: هذا رجل من مدرسة حسنى مبارك: مدرسة العمل الجاد المتصل الصامت مدرسة الحب المطلق لمصر ونسيان الذات فى سبيلها ، مدرسة الكرامة القوية واحترام المواطنين بخدمتهم بإخلاص واحترامهم احترامًا حقيقيًا صادرًا من القلب. والحسينى أيضًا من مدرسة مبارك. وكل وزرائه من مدرسته. ونحن. كل الذين حضروا الاجتماع مع الرئيس نسير على منهجه منهج الصدق والإخلاص للمبادئ ونسيان الذات والعمل الدءوب الصامت. إذن فنحن أمام جيل سليم حقًا. جيل قدوات صالحة تشعر بمسئولياتها عن مصر كلها وتخدم مصر كلها.

لهذا جعلت عنوان مقالى هذا: مبارك ورياح النصر. وعبارة.. وهبت رياح النصر.. عبارة عربية نجدها كثيرًا فى كتب التاريخ: عندما ينعقد العزم على الجهاد وتصفو القلوب ويتقدم المسلمون إلى الميدان على صهوات الخيل والسيوف فى أيديهم. وكلهم يدخل المعركة ليلقى الشهادة هنا تهب رياح النصر على المسلمين هنا لابد أن ينتصروا.

هذا هو الفضل الكبير لمبارك: لقد ضرب المثال وأعطى القدوة ، والصادقون المخلصون ساروا معه ونظر الناس إليهم على أنهم قدرات. حقا أن عدونا قليل ، ولكن لا بأس ، فقد كان عدد المسلمون عندما خرج الرسول ﷺ من دار الأرقم لا يزيد على خمسين ، ومعظم هؤلاء كانوا فقراء ومستضعفين ولكن هذه القلة هى التى غيرت وجه التاريخ.

وأكثر ما يطمئننى على أن هذه رياح نصر حقيقية هى هذه الحرية التى يؤمن بها مبارك ولا يتخلى عنها أبدا مع أن حوله ناسًا كثيرين لا يتعبون من القول: الشدة ياريس! الرقابة ياريس! ومبارك لا يصغى إليهم قط. فهؤلاء بوم وغربان وتعالب وضباع وبنات آوى آكلات جيف يريدون للمركب أن تغرق. ولن تغرق أبدًا. لقد هبت رياح النصر ولابد من النصر وبارك الله فى مبارك رافع راية النصر. □

(٢)
يا آل إسرائيل
الأوطـان لا تبنى بالحديـد والنـار*

كل الاستعمار شر. إنه أبشع صورة لأنانية الإنسان ، إنـه صـورة شعب من البشر ينقض على شعب آخر ويستذل رقاب أهله وينهب خيرات بلاده لأنه يملك السلاح والآخر لا يملكه. حتى دول الاستعمار تقول اليوم هـذا الكلام. وتزعم – صادقة أو غير صادقة – أنها آسفة لأنـها كـانت فـى يـوم من الأيام من دول الاسـتعمار. وكـل مـن إنجلـترا وفرنسـا – أكـبر ممثلتين للاستعمار – ابتكرت بعد عصر الاحتلال نظمًا تزعـم لنفسـها أنـها تعـوض بها شعوب المستعمرات السابقة عن بعض ما قاسته مـن الظلـم والـذل علـى أيديها فى العصر الأسود الذى انقضى وفات..

وكنا نقول إن أسوأ المستعمرين كانوا البرتغـاليين والبلجيكيـين ، فـهذان الشعبان لم يفعلا فى البلاد المستعمرة أكـثر مـن النـهب والإذلال ، وعندمـا استقلت الكونغو عن بلجيكا كان فى الكونغو أقل من واحـد فـى المائـة مـن المتعلمين ، ولم يكن هناك طبيب أو مـهندس كونغـولى واحـد فـى حـين أن الـذى نهبـه البلجيكيـون مـن خـيرات الكونغـو ومنـاجم كتانجـا لا يمكـن إحصاؤه بحال..

أما مستعمرات البرتغال وخاصة أنجولا وموزمبيق فقد كانت عندما رحل البرتغاليون عنها على الفطرة: لا حضارة ولا تعليم ولا طب إلا الحد الأدنى من التمريض الذى لا غنى عنه للبرتغاليين أنفسهم.

ولكن حتى البلجيكيين والبرتغاليين وصلوا بعد انقضاء فـترة الغـزو الأولى إلى نوع من العلاقات السلمية مع أهل المستعمرات ، فتوقفت أعمـال القتـل

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٧ يناير ١٩٨٨م .

والرمى بالرصاص وترك الأوروبى المستعمر للأفريقى المستعمر هامشًا ضيقًا يعيش فيه.. إلا إسرائيل..

فبعد أربعين عاما من قيام إسرائيل فى مايو ١٩٤٨م مازالت العلاقات بين العرب والإسرائيليين علاقات استعمار واستذلال عنيف ، والكراهة فى القلوب تتزايد يومًا بعد يوم. وغريب من الأمر أن الإسرائيليين الذين يملكون السيادة على الأرض والرياسة على الناس يكرهون العرب الذين حرموهم من كل شىء كراهة لا تصدق ، وهم لا يخفون عن أحد أنهم إذا استطاعوا أن يمحوا العرب من على ظهر الأرض ما ترددوا لحظة.

ومن المؤكد أن هناك من الإسرائيليين اليوم من يدعون إلى ذلك ويظنون أنه ممكن.. ومن هؤلاء مائير كاهان الحاخام الذى يرأس حزب كاخ أى النهضة ، ولا يمثل هذا الحزب فى الكنيست إلا هذا الرجل وحده ، ولكنه يخيف اليهود بسبب إسرافه فى التعصب على العرب وإصراره على أن إسرائيل لا ينبغى أن تتنازل عن شبر من الأراضى المحتلة ولا ينبغى أن تدع عربيًا يرفع رأسه.

وهذا الحزب الصغير يثير فى إسرائيل من المخاوف أضعاف ما يثيره حزب جوشن أمونيم أى كتلة الإيمان ، ويرأسه الحاخام جوشن ليفنجر ، فإن جوشن ليفنجر يرى أنه لابد من القضاء على العرب فى إسرائيل ولكنه لا يرى بأسًا فى استخدام السياسة للوصول إلى ذلك.

وأهم من جوشن أمونيم داخل الكنيست حزب طحيا أى النهضة ويمثله فى ذلك المجلس خمسة نواب. ويليه حزب موراشا ورئيسه الحاخام حاييم بروكمان ، ثم النائبة جويلا كوهين عضوة حزب طحيا التى تنادى بالقضاء على العرب جميعا وتصف اتفاقات كامب ديفيد بأنها خيانة لإسرائيل. ويمكن أن ندخل فى هؤلاء المتطرفين حزب الليكود وهو الحزب الحاكم اليوم ورئيسه إسحاق شامير ويمثله فى الكنيست ٤٣ نائبًا.

وليس معنى ذلك أن بقية الإسرائيليين – وفيهم حزب العمل – ورئيسه سيمون بيريس – أقل إيمانًا بإسرائيل الكبرى وتمسكًا بكل شبر أرض من الأراضى المحتلة (الضفة وقطاع غزة) فإن الغالبية العظمى من الإسرائيليين لا تحمل أدنى حب للعرب ، وكلهم يرون أنه بعد اتفاقات كامب ديفيد لن تعقد مع العرب اتفاقات اللهم إلا إذا كانت اتفاقات تسليم واستسلام ، ولكن مطالب السياسة تجعلهم يتكلمون بلهجات شتى حتى لا ينكشف وجه إسرائيل الحقيقى للعالم بصورة كاملة.

ومع إيمان الإسرائيليين جميعا بضرورة التمسك بما يسمونه إسرائيل الكبرى وكراهيتهم العميقة للعرب جميعا فإنهم يلوموننا نحن المصريين على قلة ما نبدى من الود نحو إسرائيل ويتعجبون من ندرة من يزور إسرائيل من المصريين ، وهذا من جانبهم خبث ورياء.

وفى حياتى لم أتحدث إلى إسرائيلى إلا مرة واحدة ، وكان ذلك فى أحد المؤتمرات وقال لى:

– نريد أن ندعوك لزيارة إسرائيل. ألا تريد أن تزور أورشليم؟

– طبعا إنى أتوق إلى زيارة القدس ، ولكن الإنسان لا يدعى لزيارة بلده.

– ماذا تعنى؟

– أعنى أن القدس هذه بلدى وإن كنتم تحتلونها ، ففيها ثالث أقداس للمسلمين وهو المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وأنا واثق من أننى سأزور قدسى ومسجدها قبل أن أموت بعد أن تتحرر وتعود إلينا ، هنا لن يدعونى أحد إلى زيارتها بل سأذهب إليها من تلقاء نفسى ، ويومها سأذهب سيرا على قدمىّ.

وهذا كلام لا يفهمه – ولن يقبله فى إسرائيل أحد ، لأن إسرائيل دولة استعمارية تنكر أنها استعمارية وأن وجودها على الأرض الفلسطينية

استعمار ، وهذا وما يعرفه العالم كله ولا يشك فيه إنسان عاقل واحد مدرك لحقائق هذه الدنيا ، ولكن إسرائيل لا تعترف به ، وتقول قولا هو التخريف بعينه وهو أن الأراضى التى احتلتها بعد حرب ١٩٦٧م هى جزء من الوطن الإسرائيلى ولن تتخلى عن شىء منها.

ونحن نعرف أن هذا هو الفكر الإسرائيلى يستوى فى ذلك المتطرفون والمتعصبون الذين ذكرناهم والمعتدلون من أمثال شيمون بيريس الأكثر اعتدالا من أمثال عازر وايزمان ، وإذا كنا نقول اليوم إن العرب الذين كانوا يتحدثون عن إلقاء إسرائيل فى البحر كانوا غافلين عن حقيقة الأوضاع فى العالم العربى وخارجه ، فإننا نقول اليوم إن الإسرائيليين يخطئون خطأ فاحشا فى هذا التفكير لأنه من المستحيل عليهم مهما فعلوا أن يتخلصوا من عرب فلسطين داخل بلادهم يستوى فى ذلك من يعيشون فى الأراضى التى احتلت قبل ١٩٦٧م وبعد تلك السنة ، فهذا شعب عربى ضخم يعيش على أرضه ، واحتلال إسرائيل لتلك الأراضى لن يغير هذا الوضع لأن التاريخ يصنع بقوة السلاح فحسب ، وأمريكا التى تؤيد إسرائيل – وبدون تأييدها لن تعيش إسرائيل – تقول لإسرائيل هذا الكلام ، ونفر كبير جدا من يهود الولايات المتحدة يقوله ، لأن أولئك اليهود يتمسكون طبعا بالوطن الإسرائيلى ولكنهم لا يفهمون لماذا يكون معنى قيام الوطن الإسرائيلى زوال الوطن العربى ، وقد عرضت – ولا تزال تعرض – مشروعات للتقسيم ، ومن الخطأ الاجتهاد فى استخراج نحو مليون يهودى روسى من وطنهم الروسى لحشدهم فى أرض تنفجر فعلا بسكانها وإقحامهم فى حياة تعيسة ووضعهم فى حالة حرب مستمرة ودفاع عن النفس لا مبرر له ، وإذا كانوا يقولون إنهم غير سعداء فى روسيا فهم على أرض فلسطين لن يكونوا أحياء أصلاً وليس هناك أى معنى لحشد الناس فى هذا الوجود المستحيل ، وليصدقنى من يقرأ هذه السطور من الإسرائيليين واليهود إننى اجتهد فى

أن أتحدث فى هذا المقال بعيدا عن عروبتى لأننى فى الحقيقة أرى أن الإسرائيليين يسلكون فى الأراضى الفلسطينية ومع العالم العربى كله مسلكاً لا يمكن أن يؤدى فى النهاية إلا إلى خراب إسرائيل وضياعها جملة ، وما عجز المتشددون العرب عن تحقيقه فيما مضى سيحققه الإسرائيليون بأنفسهم اليوم سيخربون بأيديهم ما يسمونه وطنهم القومى ، وما يلومون هتلر فيه من القسوة والتعصب يقعون هم فيه الآن ، وكما قضى هتلر على نفسه بيده فسيقضون على أنفسهم بأيديهم.

وأنا أقول هذا الكلام لأن الثائرين من العرب الخاضعين لسلطان إسرائيل لا يقومون اليوم فى وجه الإسرائيليين إلا عندما بلغ بهم الصبر منتهاه ، فليس من السهل أن يقوم الإنسان فى وجه الرصاص وتحت تهديد الجيش المدجج بالسلاح فى وجه القلوب الإسرائيلية الطافحة بالحقد والمرارة والبغض للعرب جميعا لا للفلسطينيين وحدهم ، لابد أن الذى يدفع الفلسطينيين فى الأرض المحتلة إلى الثورة وتعريض أنفسهم للموت أشد من الموت نفسه ، والحياة ليست هينة ولكن تأتى على الناس ظروف من الذل والهوان والحرمان واليأس تجعل الموت أهون من الحياة ، وهذا هو الوضع الذى يعيش فيه الفلسطينيون اليوم ، وكل الدنيا تؤيدهم وتفهمهم إلا قادة إسرائيل طبعا ، وما يصدر عن أولئك القادة من تصرف وكلام يدل بالفعل على غلطة بالغة فهذه أليست قيادة ولا سياسة إنها جشع وطمع وأنانية وغفلة عن واقع الحياة ، وأنا أقول هذا الكلام وأنا من بلد عربى ظن بعد العناء والدماء أن الصلح مع إسرائيل قد يفتح الأبواب أمام حياة أفضل للجانبين ، وإذا كانت الحروب والدماء لا تحل مشكلة فربما حلها الهدوء والتفاهم والسلام ، وهذا فى الحقيقة هو منطق جميع أولئك الذين يؤيدون الصلح مع إسرائيل.

أما الإسرائيليون فهم مع الأسف الشديد لا يفهمون الأمور على هذا النحو ، بل هم ظنوا إن هذه فرصة تتيح لهم توجيه جانب أكبر من القوة

والعنف نحو عرب فلسطين ، وإننى لأقرأ الصحف الإسرائيلية وأسمع الإذاعة الإسرائيلية وأتعجب من تلك العقول التى لا تعرف المنطق أو العقل مع العرب ، وتلك القلوب التى لا تعرف أدنى مبادئ الإنسانية مع الفلسطينيين فهم يتحدثون إلينا فى إذاعتهم حديثهم إلى أغبياء ومغفلين وإذا تحدثوا عن الفلسطينيين كان حديثهم عن قوم لا حق لهم فى الحياة إلا فى الحدود التى يحددها الطمع الإسرائيلى ، فهم من الممكن – فى رأى الإسرائيليين – أن يعيشوا ولكن الأرض التى يعيشون عليها لا يمكن أن تكون أرضهم لأنها ملك لشعب إسرائيل. وهذا منطق غريب جدا ، لأن أولئك الفلسطينيين يعيشون على هذه الأرض ويملكونها من مئات السنين فبأى منطق نحرمهم منها؟ ومادامو يملكونها ويعيشون عليها ويفلحونها فبأى منطق ننزعها منهم وندعى نحن ملكيتها لمجرد إننا إسرائيليون ، فإذا تحدث الإسرائيليون عن المجاهدين الفلسطينيين الذين تمثلهم هيئة التحرير لم يصفوهم إلا بالإرهابيين وكأن حب الإنسان لوطنه وتعلقه به ومطالبته به إرهاب ، والذين يقولون ذلك كلهم باعترافهم أنفسهم كان معظمهم إرهابيين بل كان بعضهم ومنهم دافيد بن جوريون ومناحم بيجين – رؤساء جماعات إرهابية. وهم يفخرون بذلك ، ومع ذلك فهذا منطقهم اليوم ، بل إن إسرائيل ترفض الجلوس مع ياسر عرفات على مائدة مفاوضات بحجة إنه إرهابى. وياسر عرفات فى نظر العالم كله زعيم وطنى محترم لشعب جليل ، وهل هى جريمة أن يطالب الإنسان بحقوق وطنه؟ وبأى حق يرفض إرهابى يعترف بأنه كان إرهابيا فى يوم من الأيام مثل إسحاق شامير التحدث مع ياسر عرفات؟ بل من أغرب ما فعلته الجماعات الصهيونية فى الولايات المتحدة إن جعلت الحكومة الأمريكية تصدر قرارا بإلغاء مكتب منظمة التحرير فى أمريكا على اعتبار أنها منظمة إرهابية ، والحكومة الأمريكية تتصرف فى كل ما يتعلق بإسرائيل بدون عقل أو منطق أو عدالة ، ولكن ماذا نعمل وأمريكا دولة عظمى لها فى الميدان الدولى وزن كبير ولا يمكن لنا محاسبتها على أخطائها مثلها فى ذلك مثل روسيا التى

تمارس جريمة القتل من ثمانى سنوات ضد شعب أفغانستان ولا ترى فى ذلك جريمة أو حتى خطأ ، ومن نكد الدنيا أن تكون الدول الكبرى هى صاحبة الأخطاء الكبرى وهى تتصرف على هذا النحو لأنها تشعر أن أحدا لا يستطيع محاسبتها على أخطائها.

ويستوقف النظر أننا نحن العرب الذين عرفنا الإسرائيليين من نصف قرن تقريبًا لم نر منهم خيرًا أبدًا ، وقد عرفنا الإنجليز والفرنسيين قبلهم ، وكانوا أقوامًا استعمارية وذقنا على أيديهم بلاء شديدًا فى عصور الاستعمار.. ولكننا رأينا منهم رغم كل شىء جوانب من النفع ، فقد تعلمنا منهم الكثير من حضارة العصر ونظامه وكانت العلاقات بيننا وبينهم تتعقد معظم الوقت ، ولكن كانت هناك بين الحين والحين فترات هدنة وسلام ، وكنا نصادف بين الحين والحين رجالاً من الإنجليز والفرنسيين فيهم عدالة وإنسانية وكانت لنا فيهم صداقات ومودات..

ولكن هذا لم نعرفه مع إسرائيل ، فلا أذكر أن تاريخنا معهم عرف هدنة أو سلامًا حتى سلام مصر مع إسرائيل ليس سلامًا كاملاً من ناحيتهم، فما زالوا يتمسكون بقطعة صغيرة من أرضنا ولا يمكن أن نقرأ فى صحيفة إسرائيلية مقالاً إيجابيًا عن مصر ولم يحدث أن صنع الإسرائيليون شيئًا نافعًا صدَّروه إلى مصر ، لأن كل جهدهم متجه إلى الحرب والسلاح.. وهذا السلاح إنما يصنع لحرب العرب ونحن منهم ، وإلى جانب طائرة التدمير «ليفى» التى كانوا يعدونها مع الولايات المتحدة نسمع أنهم يملكون القنبلة النووية ونعرف أنهم نصبوا الصواريخ الحاملة للقنابل الذرية فى مواضع معينة من إسرائيل موجهة إلى مواضع معينة من مصر ، وهذا لا يرهبنا لأننا نعرف أنهم إذا كانوا قد حصلوا على القنابل الذرية فنحن أيضًا نستطيع إذا أردنا أن نحصل على هذه القنابل ونستعملها ونحمى أنفسنا بها إذا اقتضى الأمر ، بل إننى فى حياتى لم أسمع عن كتاب نافع ألف

فى إسرائيل ، وقد حضرت مؤتمرات كثيرة هدفها التوفيق أو إقامة التفاهم بين الإسلام والنصرانية واليهودية فلا أذكر أننى سمعت من يهودى كلمة مودة أو فهم نحو الإسلام وهناك نصارى كثيرون تلمس فى كتبهم أو كلامهم مودة وفهم الإسلام ولكنى إلى يومنا هذا لم اقرأ أو اسمع من يهودى كلمة خير فى الإسلام والمسلمين ، وهذا قديم يرجع إلى أيام ابن ميمون المحسوب مفكرًا عربيًا لأنه عاش وتربى فى بلادنا ، وعندما ضاقت عليه الدنيا فى الأندلس هاجر إلى مصر (لا إلى أوروبا) فأكرمناه وأدخله صلاح الدين بين أطبائه ورغم ذلك فقد كان هذا الرجل يكتب فى السر رسائل كلها كراهة وحقد للإسلام وأهله.

□□□

وأنا لا أقول هذا الكلام كراهة لإسرائيل لأن مسائل الكراهة والعواطف لا تنفع فى تنظيم العلاقات بين الناس.. وقد فهمنا بعد تجارب مريرة أننا لا نعيش فى الدنيا كما نحب ونهوى ، ولا نعيش فيها مع من نحب ونهوى فحسب ، بل نحن نعيش أيضا مع من لا نحب. والسياسة هى أن تعرف كيف تعيش مع هؤلاء وأولئك ، وقد فرض علينا الواقع التاريخى فى هذا العصر إسرائيل ، وأراد الحظ أن تكون معنا فى منطقتنا العربية ، فليس أمامنا لكى نذوق طعم الحياة وهدوء الأعصاب وكسب الوقت لا مكان النظر السليم إلى المستقبل إلا السياسة والجلوس على مائدة المفاوضات ، وهذا هو الذى فعلته مصر ، وقد ابتكر عقلاء العرب صورة أخرى للجلوس على مائدة المفاوضات ، وهى المؤتمر الدولى الذى يجمع دول مجلس الأمن والأردن وفلسطين وإسرائيل ، والإسرائيليون يعترضون على اشتراك منظمة التحرير ، وهيئة التحرير لا تريد أن تعترف بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، وبودى لو بحثت منظمة التحرير عن وسيلة يمكن أن تحضر بها المؤتمر ، وهنا ستكشف إسرائيل وجهها ، فهى فى الحقيقة لا تريد أن تجلس إلى مائدة المفاوضات ، لا بمنظمة التحرير ولا بدونها ، ولكنها ورقة تلعب بها

ليرى العالم أن إسرائيل أميل إلى السلم ، ولكنها لا تنتظر سلامًا أو نية طيبة من منظمة تسميها إرهابية ، ولكن مشكلتنا نحن العرب من عشرات السنين هى أننا لا نعرف السياسة ولا نحسنها ، وحتى منظمة التحرير كانت إلى حين قريب شيعًا وأحزابًا.. متخاصمًا بعضها مع بعض ، ولم تتفق شيعها على رياسة عرفات إلا من شهور ، والرجل نفسه مخلص صادق طويل البال.. وقد عذبه الفلسطينيون أكثر مما عذبه غير الفلسطينيين، وهم بهذا يخدمون إسرائيل ، ويخدمها كذلك أولئك العرب الذين يهاجمون عرفات والفلسطينيين ، ويقاطعونهم ويعتدون عليهم بحسب الهوى والمزاج مثل ليبيا وسوريا ، وهذا الطراز من العرب هم أكبر من يخدم إسرائيل ، لأنها فى واقع الأمر تلعب بالقضية الفلسطينية لعبًا ، ورجالها يعتمدون على خلافات العرب ، ولو أن العرب ضغطوا على أنفسهم وأحكموا أمرهم ووجدوا طريقة لعقد المؤتمر المنشود لرأوا العجب ، ولكشفوا للعالم من حقائق إسرائيل ما لا تزال تنكره وتخفيه.

والذى تفعله إسرائيل اليوم مع عرب فلسطين لا يمكن أن يؤدى إلى شىء مما تحلم به من الإنفراد بأرض فلسطين وتحويلها كلها إلى أرض إسرائيل ، فهذه ليست أعمال دولة تحترم حقوق الإنسان ، وليس فى الدنيا دولة محترمة تضرب المتظاهرين العزل بالسلاح الحى وتقتل الأولاد والأطفال والنساء العزل ، مع أن المظاهرات تفض اليوم برصاص المطاط وخراطيم المياه والقنابل المسيلة الدموع ، ولكن فض المظاهرات ليس الهدف، إنما الهدف هو القتل ، فهذا هو الذى يشفى الغليل ويهدىء الحقد ، ولست أظن أن إسرائيليًا واحدًا ينكر ما أقوله من أن قلوب الإسرائيليين لا تضمر للفلسطينيين إلا الغل والحقد لمجرد أن هؤلاء الفلسطينيين هم أصحاب الأرض التى أقام عليها الإسرائيليون دولتهم بالعنف البالغ ، ولم يهدهم الله إلى يومنا هذا إلى شىء آخر غير العنف البالغ. ويكفى أن تعرف أن القسوة الفكرية الإسرائيلية لم تترك للعرب

الذين يعيشون فى منطقتها إلا بأحط الأعمال كما كان الأمريكيون يفعلون مع السود فيما مضى مثل أعمال البناء وكنس الشوارع وجمع القمامة ، وهذه كلها حرف حيوية ، ويبلغ عدد العرب العاملين فى ذلك مائة وسبعين ألفًا فلما أضربوا عن العمل انزعجت الحكومة الإسرائيلية انزعاجًا بالغًا وعلى الرغم من أنهم لم يتركوا للعرب إلا أقل المتاجر أهمية فى نظرهم مثل البقالات ومحل بيع الخضار والفاكهة والصحف ، فإن هؤلاء أيضًا عندما أضربوا توقفت الحياة تقريبًا فى كثير من قطاعات الحياة فى إسرائيل.

□□□

فى الماضى كنا نحن – كما كان يقال – المجانين ، وكنتم أنتم العقلاء.. أصبحتم أنتم سببًا واضحًا من أسباب متاعب الولايات المتحدة ، فإن الذى تعملون على تحقيقه فى أرض العرب مستحيل لأن الأمريكيين لا يستطيعون أن يوافقوكم عليه ، وإذا كان الأمريكيون يؤيدونكم فى أن تعيشوا فى أمان فى بلادكم فإنهم لا يستطيعون أن يؤيدوكم فى قتل العرب لإيجاد مكان لمهاجرين يهود جدد ، والروس فى اتجههم العاقل الجديد أيام ميخائيل جورباتشوف لا يفهمون لماذا يطلب منهم أن يوافقوا على خروج يهود روسيا من وطنهم لكى يحلوا محل عرب يقضى عليهم جيش إسرائيل. □

(٣)

شعب مصر خاضها حرب بقاء واستعادة للكرامة وبدأ الإستعداد لها من هزيمة ١٩٦٧م*

كانت حرب يونيو ١٩٦٧م هزيمة حقيقية ، ولكن لمن؟

من الذى خسر تلك الحرب؟

إن شعب مصر أحس بالكارثة ، ولكنه ظل إلى يومنا هذا يؤكد أنه لم ينهزم ، فإنه لم يعلن تلك الحرب ، ولم ير قط لماذا كان ينبغى أن تقوم الحرب بين مصر وإسرائيل فى تلك المناسبة بالذات؟ حقًا إننا فى ذلك الحين كنا فى حالة حرب ساكنة مع إسرائيل. هى حالة اللاسلم واللاحرب ، ولكن الأحوال كانت هادئة. وشعب مصر كان يحس أن المعركة مع إسرائيل يمكن أن تقوم ، ولكن ليس فى هذا الوقت بالضرورة.

فقد كانت حكومة عبد الناصر – وهى لم تكن إذ ذاك تمثل مصر – مشتبكة فى حرب غير طبيعية ولا معقولة ، هى حرب اليمن ، وعبدالناصر لأسباب خاصة به وحده خطر بباله – بصفته زعيم العرب الذى لا ينازع – أن يؤدب ناسا فى جزيرة العرب ، وهمس فى أذنه نفر من خصوم الإمام يحيى حميد الدين أنه يستطيع أن يؤيد رجالاً زعموا له أنهم ثوريون مثل عبد الله السلال وعبد الرحمن البيضانى أن حكومة الإمام تزول فى أسبوعين وتقوم مكانها حكومة ناصرية تنشر فى اليمن طراز الحرية والديمقراطية الذى نشره عبد الناصر فى مصر ، وهو طراز تقتصر فيه الحرية على عبد الناصر وحده ، أما بقية الناس فعبيد ، ودون أدنى معرفة بأحوال اليمن وطبيعة شعبها أرسل عبد الناصر قواته إلى هناك ، وأزيلت

---

* نشرت هذه المقالة فى ٩ أكتوبر ١٩٨٨م .

حكومة الإمام بعد أحد عشر قرنا من الاستبداد ، وقام مكانها استبداد جديد على رأسه عبد الله السلال وأمثاله.

ولكن المفاجأة الكبرى كانت شعب اليمن نفسه ، فهو شعب قوى شجاع محارب مغرم بالحرب لا يهاب الموت ، وبعد أن سيطرت حكومة الثورة الديمقراطية على صنعاء وتعز والحديدية وبلال الساحل المسالمين دخل جنود عبد الناصر فى معركة بالغة العنف مع كتلة الشعب اليمنى فى الجبال والدواخل ، وذهل القادة المصريون الذين أرسلهم عبد الناصر ، لضراوة القتال فلابد أن يموت مائة جندى مصرى للاستيلاء على متر من الأرض ، وشعب مصر لم تكن لديه أية فكرة عن هذه الحرب ، ثم اتضح بعد ذلك أن معرفة عبد الناصر نفسه ورجاله بهذه الحرب وباليمن كلها كانت أقل من معرفة الشعب المصرى.

واستمرت الحرب دون غاية ولاخطة ، وفى يوم من الأيام كانت لمصر فى اليمن حوالى سبعين ألف جندى غير الأسلحة والعتاد والمؤمن. وتلك بالذات كانت الظروف التى كانت تنتظرها إسرائيل لتخوض معركتها مع مصر وديفيد بن جوريون الذى كان يحكم إسرائيل إذ ذاك كان من أذكى حكام إسرائيل ، ومنذ انسحاب إسرائيل وفرنسا وانجلترا من سيناء سنة ١٩٥٦ كان ممر تيران منطقة محايدة كانت مصرية فعلاً ، ولكن مصر تعهدت بالا تنزل فيها جنودًا. ولم يكن فى ذلك أى ضرر ، فالأرض مصرية وليس من الضرورى أن تكون مسلحة.

ولكن نفرا من خصوم عبد الناصر – فى سوريا بالذات – بدأوا يعيرونه بأنه يترك أرض المضايق المصرية دون تسليح طاعة لإسرائيل.

وعبد الناصر كان بطل منابر لا يشق له غبار ، ومن على المنبر أعلن أنه لا يخشى أحدًا فى الدنيا ، وأن المضايق ستسلح رغم أنف إسرائيل ، وأن هذا الكلام إذا لم يعجب أمريكا فلتشرب من البحر ، وإذا لم يعجبها ماء البحر الأبيض فلتشرب من ماء البحر الأحمر!.

كلام غريب غير متزن لا يحبه ولا يفهمه شعب مصر العاقل المتزن وتلك كانت الفرصة التى ينتظرها ديفيد بن جوريون كان يستعد لغزو سيناء من زمن طويل ، كانت المخابرات الإسرائيلية قد درست كل مواقع المطارات المصرية وأحصت عدد الطائرات فى كل مطار. وكانت فرق المدرعات والسيارات المدرعة والمدافع الإسرائيلية على الأهبة على كل حدود مصر الشرقية ، والآن وقد احتلت قوات عبد الناصر المضايق وأغلقتها لتمنع إسرائيل من الملاحة فى البحر الأحمر ، فهذا إعلان حرب ، وصدرت الأوامر لكل القوات الإسرائيلية بمهاجمة مصر ، وعبد الناصر بطل المنابر – لم يخطر بباله أن كلماته التى لم تحمس إلا بعض رجال الشارع ذهل لقيام هذه الحرب ، ووقع هو وكل رجاله وعدوه اللدود عبد الحكيم عامر قائد القوات المسلحة فى «حيص بيص» كما نقول فى كلامنا العامى.

وبلغ من ضياع عبد الحكيم عامر وقلة جديته وبعده عن شئون الحرب أنه بعد أن عرف أن قوات إسرائيل قد حطمت كل مطارات مصر لفتح الطريق أمام قوات الغزو أخذ طائرة صغيرة وصعد فى الجو فى سيناء ليرى ما حدث بنفسه ، وعندما أراد النزول لم يجد مكانًا ينزل فيه ، فالمطارات كلها ضربت ، وتمكن الطيار أخيرًا من الهبوط فى نقطة نائية ، وأسرع عبد الحكيم عامر إلى بيته وهو لا يصدق بالسلامة.. فى أثناء ذلك كان الباقون فى مصر من رجال جيش مصر الباسل واقفين تحت السلاح مستعدين لتنفيذ أى أمر يصدر لهم ، والأوامر هنا كانت تصدر جزافًا ، وقد حكى ضابط مصرى باسل هو عصام دراز فى قصة من أمتع وأصدق ما كتب عن حرب ١٩٦٧م تسمى «مرارة الحرب» جانبًا من تجاربه فى تلك الحرب فذكر فى بعض فصول روايته – كيف إنه هو وزملاؤه تقدموا فى سيناء تنفيذًا لأوامر صدرت إليهم إلى موقع يسمى بير تمادة ، وهذا الموقع داخل فى الأرض التى كانت تحتلها إسرائيل تمامًا ، ولكنهم تقدموا دون

أن يحفلوا للخطر ، وتخطوا بير تمادة بعد أن تعرضوا لرصاص الإسرائيليين ومدافعهم ، ولكنهم لم يحفلوا ، وهناك وجدوا معسكرًا مصريًا كاملاً ، فرحب بهم إخوانهم ، وقدمت لهم المطابخ الطعام الساخن ، ثم الشاى فأكلوا وشربوا دون أن يشعروا بأى خوف ، وحكى الضابط عصام دراز كذلك كيف قتل بعض زملائه تحت بصره ، ومنهم واحد كان يتكلم عندما أصابته طلقة مدفع أزالت نصف رأسه ووجهه الذى كان لا يزال يتكلم ، وحزن عليه زملاؤه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ثم واصلوا حياتهم فى هدوء وثبات ، ثم نهضوا بعد ذلك يواصلوان السير إلى الأمام تنفيذا للتعليمات ، وبينما هم فى الطريق وصلت سيارة جيب من سيارات قائد اللواء ونزل منها ضابط وسلم لقائد الفرقة أمرًا مكتوبًا وقرأه الرجل ولم يفهم ، وهز رأسه وناول الورقة لأحد مساعديه هو الآخر ولم يفهم ، فقد كانت الورقة تحمل أمرًا بالانسحاب والعودة من حيث أتى ، وسأل قائد الكتيبة ما السبب؟ ليه؟ فيم أمر التقدم؟ وفيم أمر التراجع؟! والضباط والجنود الذين استشهدوا والدبابات والسيارات المدرعة المصرية التى تحطمت أثناء هذا التقدم بعد أن حطمت أضعافها من دبابات إسرائيل وسياراتها المصفحة؟! فيمكان ذلك كله؟!

وقال الضابط الذى حمل الرسالة: أوامر يا أفندم ، ولا أحد يعرف السبب بالضبط؟

وبينما كان جنود مصر البواسل غارقين فى حيرتهم ويستعدون للتراجع. فى نفس الوقت يفتح أحدهم جهاز الراديو فيجد الإذاعة المصرية تقول: إن قواتنا تتقدم منتصرة فى صحراء النقب ، وإن قوات إسرائيل المهزومة تتراجع ، وإن المعركة القادمة هى معركة تل أبيب ولا شك!

كان هذا صوت دعاية عبد الناصر من القاهرة وقال قائد الكتيبة:

– إلى متى هذا الكذب؟

وبعد قليل أقبلت فرقة طيران إسرائيلية وضربت المكان كله ، ومن حسن الحظ أن فرقة الضابط عصام دراز كانت فى مأمن ، فلم يصبها ضرر ، وقال قائد الكتيبة :

هذا هو الوضع ، ليس لدينا غطاء جوى وطائرات إسرائيل تملأ الجو كيف نتحرك؟ هذه ستكون مذبحة.

ومع هذه الأخطار كلها ومع غياب الغطاء الجوى فقد عرفت هذه الفرقة المصرية الباسلة كيف تعود سالمة رغم وجوه النقص الفادحة فى القيادة العليا واهتمامها بشىء واحد هو خداع الشعب المصرى ، والاستمرار فى الكذب محافظة على هيبة عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ، وكانت تلك الهيبة قد تلاشت نهائيًا..

هنا تتبين كم كان نجيب محفوظ صادقا عندما قال فى أحد تعليقاته الموجزة فى جريدة الأهرام إن جيشنا المصرى لم ينهزم فى حرب ١٩٦٧م وإنما هو تلقى أمرا بالهزيمة فانهزم.

ولكن القيادة إذا كانت قد فرضت الهزيمة على جيشها فإن الجيش المصرى لم يرض بهذا المهرب من العار ، لقد صمم على أن يعتبر نفسه قد انهزم ، وأنه كان قد انهزم دون وجه حق فلابد أن يثبت أنه إذا كانت له قيادة صالحة فلابد أن ينتصر وبالفعل فإن الجيش المصرى رغم ما نزل به سنة ١٩٦٧م كان لا يزال يحتفظ برجاله وأبطاله وشجاعته ، ومن حسن الحظ أن الرئيس السادات الذى جاء بعد عبد الناصر كان يعرف هذه الحقيقة ، وقد حكى فى كتاب «البحث عن الذات» كيف إنه سمع بأن اللواء كمال حسن على وكان قائد قوة المدرعات قد عرف رغم قسوة إسرائيل وعنف ضرباتها كيف ينجو بكل فرقته من المدرعات ويعود بها سالمًا إلى مصر.

بل تمكن من إسقاط سبع طائرات ، وعندما سمع السادات هذا الخبر ذهب إلى كمال حسن على فى المستشفى لكى يسمع منه تفاصيل أعمال البسالة التى قام بها ليحقق هذا العمل الجليل ، وعندما سمعه منه آمن أنه حق ، ومادام ضابط مصرى قد فعل هذا ونجا من تدمير إسرائيل ، فمعنى ذلك أن جيش مصر إذا أحسنت قيادته وتولاه رجال من طراز كمال حسن على وحسنى مبارك وسعد الدين الشاذلى والجمصى فلا شك أنه يستطيع تحطيم قوات إسرائيل.

وتلك هى المقدمات الحقيقية لنصر أكتوبر.

إنها مقدمات تعتمد أساسًا على بسالة شعب مصر وأصالته. وترجع كذلك إلى تصميم هذا الشعب وجيشه على الانتقام لنفسه وتحطيم قوات إسرائيل ، وإسرائيل تستطيع أن تخدع الشعب الأمريكى لأن هدف الخدعة هنا هو الحصول على المال والتأييد السياسى فى المجالات الدولية ولكنها لا تستطيع خداع الشعب المصرى الباسل وجيشه العظيم إذا استعدا لها ووقفًا أمامه فى الميدان ، لأن المسألة هنا لا تكون مسألة خبث أو دعاية أو خداع ، بل مسألة رجل أمام رجل ، وعندما وقف الرجل المصرى المدرب المسلح أمام الرجل الإسرائيلى تدهور الإسرائيلى ، وفقد المعركة ، ولولا أن أمريكا أدركته فى النهاية واستجابت لصرخاته واستغاثاته لكانت النتيجة أعظم بالنسبة لنا.

وقد أفاد أنور السادات عندما فكر فى الحرب مع إسرائيل من كل أخطاء عبد الناصر ، فقد كان عبد الناصر رجلاً أنانيًا يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى خلقه ليكون سيد مصر دون منازع. ومنذ تصدر للانفراد بالزعامة ودخل فى الصراع مع محمد نجيب أولاً ثم مع كل زملائه رجال الثورة بعد ذلك كان يعرف أنه لا يستطيع الاعتماد فى معركته تلك على إنسان شريف أو على رجل وطنى صميم ، فجعل همه الاعتماد على

الزعانف والهلافيت والرجال الذين لا يتورعون عن أى عمل مادام لهم فيه كسب ، وإلا فكيف يستطيع مثلا ضرب رجل مثل السنهورى؟ وهل يجرؤ رجل محترم على رفع يده على السنهورى؟ هذا هو الطريق الذى وضع رقابنا فى النهاية فى أيدى شمس بدران وصلاح نصر وأمثالهما. وقد قال لنا بالفعل رجال ممن عرفوا عبد الناصر: إنه كان إذا عرض عليه رجلان ليختار بينهما: رجل ممتاز ورجل معيب دجال فضل المعيب الدجال لكى يسيطر عليه بعيوبه.

وقد اتعظ السادات بما أصاب عبد الناصر على أيدى هذا الطراز الهزيل من الناس واتجه دائما إلى كبار الرجال وعظمائهم ، ولهذا فقد كان نصيبه من التوفيق أعظم.

كذلك اتعظ السادات من عبد الناصر بالبعد عن الكذب السياسى المكشوف وكان عبد الناصر قد لجأ بعد هزيمة يونيو إلى إلقاء المسئولية على أمريكا ليخفف من مسئوليته عن الهزيمة ، وقد درسنا التفاصيل وعرفنا أن أمريكا لم يكن لها دور مباشر فى هزيمة يونيو ١٩٦٧م ، ولكن عبد الناصر قال للسادات بعد الهزيمة (البحث عن الذات ص ٢٣١ – ٢٣٢): وقال لى: والله أنت مسكين يا أنور زيك زى الشعب تمام. أنت صدقت البيان (يقصد البيان الذى أذاعته الحكومة المصرية عقب الهزيمة) أنا عارف البيانات بتصدر أزاى دى كلها كلام فارغ. اليهود ما عدوش إلى غرب القناة أنا سمعت البيان زيك وقلت لزكريا: يا زكريا روح القيادة وشوف لى إيه الحكاية لأنى أنا عارف إن القيادة انفلت عيارها وانهارت وانتهت خلاص. زكريا راح القيادة ورجع قال لى: ضباط من ضباط القيادة هم اللى عبروا القناة من الضفة الشرقية إلى الغربية لما شافوا اليهود قدامهم على الضفة الشرقية ما تمالكوش أعصابهم وراحوا ضاربين فيهم بالمورتر. فردوا

اليهود بغارة جوية على مصنع بويات فى الإسماعيلية أقعد يا أنور أنت مش محتاج تحارب العملية خلصت خلاص الدور مرسوم بين إسرائيل وأمريكا وأهو أتنفذ تمام: يقعدوا على الضفة الشرقية ، ولكن ما يدخلوش الغربية لاعتبارات كثيرة أهمها خطورة الكثافة السكانية وعلى العموم هم عاوزين إذلال لنا أكثر من كده إيه؟ أقعد أقعد معايه لما أخلص البيان اللى ح أذيعه الليلة دى».

وما أظن أننى قرأت فى حياتى كلامًا هو أسوأ من هذا فهنا خبث وجحود وكذب وسخرية من شعب مصر ومن عقليات كل الناس ، فهو هنا يجعل النصر من عمل أمريكا وإسرائيل ولا شك فى أن أمريكا قدمت المعاونات إلى إسرائيل ، أما المعركة نفسها فقد خاضتها وكسبتها إسرائيل.

وهنا نجد السادات يسأل نفسه: إذا كانت أمريكا لها هذه الأهمية فلماذا نعاديها ونتركها لإسرائيل؟ حقا إننا لا نفكر فى أن نحل محل إسرائيل عند أمريكا فإن مركز إسرائيل عند أمريكا قضية أمريكية تتعلق ببناء قومى حضارى وسياسى بناء اليهود فى أمريكا وأدخلوا أنفسهم فى كل نواحى الحياة الأمريكية ، ولكننا على الأقل نستطيع أن نخرج أنفسنا من عداء أمريكا بل من الممكن أن نكون أصدقاء لها ، لأن الروس فى الحقيقة قد يساعدونك ، ولكنهم يمسكون بيديك ورجليك ورقبتك بحيث لا تستطيع أن تتنفس إلا بإذنهم ، ولهذا فإن السادات بدأ التغيير والاتجاه إلى أمريكا بإخراج كل المستشارين الروس من مصر. وكان عددهم سبعة آلاف كانت ضربة حاسمة وكان لها فيما بعد أثر بعيد لأن مصر تستطيع الآن أن تتصرف كما تريد دون أن تخشى التدخل الروسى وأمريكا أحست بأهمية التحول فقد كانت مصر مركز القوة الروسية فى الشرق الأوسط وبدون مصر لا تستطيع أن تفعل شيئًا لقد اتجهت بعد ذلك إلى سوريا ولكن أين سوريا وأين مصر؟

حقا لقد استمر عبد الناصر يتمتع بتأييد شعب مصر لا حبًا فيه وإنما حبًا فى مصر والجماهير التى خرجت تؤيد عبد الناصر بعد الهزيمة كانت تريد أن تقول – كما ذكرنا – سيبقى عبد الناصر مكانه مادمنا نحن نريد وإسرائيل لا يمكن أن تقضى على البطل المصرى لأن هذا شأننا نحن.

ولكن كيف كان عبد الناصر فعلا؟ هنا يقول السادات (البحث عن الذات ٢٣٣): «لابد أنه فى الفراش وأنه يعانى كثيرا فأهم ما لدى عبد الناصر هى كبرياؤه ، ولقد طعن فيها كما لم يحدث له من قبل ، فبعد أن كان العالم يلهث وراءه عندما عقد مؤتمره الصحفى بعد تأميمه قناة السويس، أصبح الناس فى كل مكان فى العالم يتهكمون عليه ويسخرون منه ولهذا كان ٥ يونيو طعنة أصابته فى الصميم ، فانتهى ومن يعرف عبد الناصر لابد أن يدرك أنه لم يمت يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠م ، بل مات يوم ٥ يونيو سنة ١٩٦٧م وبعد (بداية) المعركة بساعة واحدة.

إذن فلم يكن نصر أكتوبر مصادفة ولا ابن ساعته: بل كان ثمرة استعداد قومى ونفسى طويل صادر من قلب شعب مصر فإننا لم نهزم فى حرب ١٩٦٧م بل نحن لم ندخلها ولكننا دفعنا إليها بينما كنا فى حرب أخرى فرضت علينا هى حرب اليمن ، وإنما الذى انهزم كان عبد الناصر ونظامه ورجاله وسياسته ، ولكى ننتصر كان لابد أن ينتهى ذلك كله ونبدأ عصرًا جديدا وبزعامة قائد جديد هو أنور السادات ، ولكن السادات كان قد تعلم كثيرًا جدًا من عبد الناصر ، وأول ما تعلمه هو أن شعب مصر شعب عظيم، وجيش مصر جيش صلب لا يمكن أن يهزم.

لهذا كله كان شعب مصر كله يطلب النصر. كل المصريين من الفلاح البسيط إلى الشغال الفقير إلى طالب الجامعة وأستاذها بل القاضى والمستشار كنا كلنا نحلم بالحرب ونتمناها فقد اتهمونا بأننا حاربنا وانهزمنا ، ونحن فى الحقيقة لم نحارب ولم ننهزم ، إنما الذى أراد الحرب ولم يحسنها هو

عبد الناصر وعبد الحكيم عامر. وقرائى جميعا يذكرون الحالة النفسية التى كانوا عليها من أول رياسة السادات. من أعظم ميزات هذا الرجل أنه كان يحس بإحساس جماهير مصر إحساسًا تامًا. وكان يعرف أنه لو طلب إلى مصرى فى الستين من عمره أن يسير لحرب إسرائيل لسار لأن الخرارة من ناحية إسرائيل كانت بالغة وخاصة بالدعاية الحقيرة التى أذاعوها عنا ولا أنسى صورة لجنود إسرائيل جالسين على صفة القناة يضحكون وأرجلهم فى الماء: وتحت الصورة كتبت المجلة يستريحون استعدادًا للعبور. يومها لو أنه طلب إلىّ أن أسير للحرب لسرت بما فى يدى ، وكان ضباط الجيش كبيرا وصغيرا وجنودهم أكثر شعورا منى بذلك لأنهم رجال حرب أولاً ثم إن الهزيمة ألحقت بهم عن سوء نية وبعد أن بدأ السادات بإعادة الحريات وأملاك الناس وبعد أن دخلنا فى الانفتاح زاد إيماننا بإمكانية النصر خاصة ، وقد عرفنا من كلام كمال حسن على أن رجال إسرائيل ليسوا بالقوة التى يزعمون فقد أسقطت فرقته للدبابات سبع طائرات إسرائيلية وكان الروس بعد هزيمة يونيو ٦٧م قد أرسلوا لنا قدرًا ضئيلاً من السلاح وكان المفروض أن يستوعبها الجنود المصريون فى ثلاث سنوات فاستوعبوها فى خمسة شهور. وقيادة الجيش أيام السادات أصبحت قيادة أخرى فيها عباقرة حرب فعلاً ، وأضف إلى ذلك أن حروب الاستنزاف ومحاولات العبور الصغيرة لكشف القوات الإسرائيلية كانت ناجحة وعرفنا كل ما كان عند الإسرائيليين وخاصة الساتر الترابى ، وخط بارليف وسلاح الطيران ، فرسم السادات خطته بإحكام واطمأن إلى اللواء حسنى مبارك ورجاله يستطيعون تحطيم سلاح الطيران الإسرائيلى ودرس ضباط مصريون عاديون وسائل التغلب على الساتر الترابى ورجال مدرعاتنا كانوا قادرين على اقتحام خط بارليف والقيادة العليا كانت رائعة حقًا تضم كبار القادة الذين سبق أن ذكرتهم ومصر كلها كانت مع السادات وكانت واثقة من النصر وكلنا تلقينا أخبار طلائع النصر بعد ظهر ٦ أكتوبر فى ثقة كاملة كنا واثقين من النصر.. □

(٤)

لا ينفع العرب إلا العرب*

أرجو أن أكون منفردًا بحالة الملل العام الذى يسيطر علىّ من شهور نتيجة للسير البطىء والممل وغير الجذاب للحوادث التى نعيشها فى العالم كله فى أيامنا تلك ، فالمشاكل العالمية يبدو أنها نامت كأنها لا تريد الحل، ونحن مع الأسف الشديد نصحو فيما ننام فيه ، حتى أن الواحد منا ينسى فى أحيان كثيرة أن يقرأ الجريدة ولا يحس مع ذلك أنه ينقصه شىء ، وأبسط الأدلة على ذلك ما قرأناه اليوم من أن نائبا لبنانيا يقول بعد تعب القلب ثلاثة أيام فى الطائف: إن رئيس الجمهورية فى لبنان لا يمكن إلا أن يكون مارونيًا بكل اختصاصات الرئيس اللبنانى فى الماضى ، ونحن لا نتدخل فى شئون لبنان ولا نستطيع ولا نريد ولكننا نقول لأنفسنا إذن ففيم كانت الحرب الأهلية طوال هذه السنوات؟.

والحقيقة هى أننى شخصيًا لا أجد وسيلة للاقتناع بمعظم ما يقوله اللبنانيون عن أزمة بلادهم أو أساليب هذا الحل ولكنى أدع مسائل لبنان للبنانيين ، وأنظر فى أحوال بلادنا نحن ، فالحقيقة هى أن بلادنا تعيش من ثلاث سنوات أو أربع حياة مملة فعلاً ، وقضايانا الكبرى نائمة أو هى مغمى عليها ولا أحد يريد أن يوقظها أو ينعشها لكى يكون فى الإمكان علاجها فيما بعد أو محاولة هذا العلاج على الأقل.

ويخيل إلىّ أن السبب فى هذا الركود فى مصر معروف ، فإن الذين يتولون وظائف المسئولية ويقع عليهم واجب الحل أقل بكثير من مواجهة المواقف. والمسألة هنا ليست مسألة ذكاء أو مواهب وإنما هى مسألة تعليم وتدريب ، والعالم كله يعيش فى عصرنا ركودًا غريبًا والمشاكل العالمية تظل

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٩ أكتوبر ١٩٨٩م .

دائما دون حل ، ويبدو أن الولايات المتحدة قد وصلت إلى مستوى لم يعد يهمها أن يكون لها نصيب فى حل المشاكل العالمية ، ويكفى أن ننظر إلى زيارة السيد رئيس جمهوريتنا للولايات المتحدة. فقد قابل الرجل كل المسئولين هناك سواء فى الولايات المتحدة أو فى هيئة الأمم. فماذا قال الأمريكيون بعد ذلك الجهد البالغ؟ لا شىء! وشعورى الشخصى هو أن أولئك الناس قد سرهم أن يذهب رجل ذكى مجتهد ومتحمس ليعرض عليهم مشاكل عالمية كان ينبغى أن يكون لهم فيها رأى ، ولكنهم بدلاً من ذلك لم يقولوا إلا شيئًا مثل: كويس. مش بطال. وهم بالطبع لن يصنعوا شيئا لأنهم فى الواقع أصبحوا غير قادرين على القيام بدورهم العالمى ، وأبسط مثال لذلك ما حدث فى بنما ، فإن الإنسان لا يصدق أن رجلاً مثل الجنرال نورييجا تقول الولايات المتحدة إنه مهرب مخدرات وتبذل أقصى ما تستطيع لعزله ومع ذلك فهى لا تستطيع. ومازال هذا الرجل فى مكانه فى بلاده رضيت الولايات المتحدة أم لم ترض ، لأنها فى الواقع لم تعد قوة عالمية. وسنرى أن الأمريكيين لن يقدموا لنا فى حالة تعرضنا لإسرائيل إلا الفيتو المعتاد الذى أصبح مهزلة بالنسبة لبلد مثل أمريكا ، والمفروض أن هذا البلد الضخم إذا وقف فى وجه رجل يؤمن بأنه مفسد حقًا فى بلد صغير إلى جانبها فلابد أن تتغلب عليه ، ولكنها لم تستطع والرجل الآن أقوى. ومثل ذلك نراه فى كمبوديا فإن الفيتناميين يغادرون هذا البلد ، ولكن المؤكد أن الخمير الحمر سيحلون محلهم هناك وسيعودون إلى نظام حكمهم الرهيب القديم وكأن الولايات المتحدة لم تتدخل هناك أو أنها فى الواقع لم تعد بذات رأى حاسم فى أمور الدنيا.

□□□

أقول هذا لكى أنبه إخوانى فى مصر وعالم العرب إلى أن الولايات المتحدة اليوم ليست هى الدولة العالمية القوية التى عرفناها فى الماضى ،

وهذه هى الصورة التى يراهـا الاتحـاد السـوفيتى للولايـات المتحـدة ، فـإن الاتحاد السوفيتي تحرك أخيرًا ودخل فى طور تحول حاسـم. والشـيوعيـة لم تعد هناك مثلاً أعلى أو نظامًا غير قابل للتغيير ، وإنما نحن فى انتظـار عالم روسى جديد لا نعرف كيـف سيكون فـى النهايـة ، وكـل مـا تفعلـه أمريكا هنا هو أنها تهز برأسها سعيدة كأنها تعتقد أن ما يحدث هناك إنما هو محاولة من الاتحاد السوفيتى للحاق بها أو تقليدها ، والواضـح أن هـذه ليست حقيقة. وهى تظن أن الاتحاد السوفيتى يتغير لأنـها نفـرا مـن أهلـه وعلى رأسهم جورباتشوف . إنهم رأوا أن بلادهم لابد أن تتطور وأن النظـام الشيوعى الذى سار عليه سـتالين ومـن جـاء بعـده لم يصـل بروسـيا إلى مـا ينبغى أن يصير إليه اتحاد ضخـم كالاتحـاد السـوفيتى ، ولابـد لهـذا مـن التعديل أو حتى التغيير الشامل سواء أكانت الولايـات المتحـدة موجـودة أم غير موجودة ، أو من يدرى فربما انتـهوا فـى الاتحـاد السـوفيتى إلى نظـام يثير غيرة أمريكا وخوفها؟.

وهذا هو الذى ينبغـى ألا ننسـاه نحـن العـرب ، فقـد طـال سـيرنا وراء أمريكا دون نتيجة ، لأن أمريكا لا تسـتطيع فعـلاً أن تقـدم لنـا شـيئًا ممـا نتمناه لأنفسنا ، وإذا كانت القضية اللبنانية أو الفلسطينية ستحل فإن ذلك يتوقف علينا نحن العرب ، فإن أمريكا لن تستطيع شيئًا حيـال إسـرائيل. ولكننا نحن العرب نستطيع.

وفيما يتعلق بالقضية الفلسطينية لم تفعل أمريكا أكـثر مـن تـأييد شـامير والوقوف أمام جموده القاتل ، ولكننا نحن العرب سنستطيع تحطيم جمـود شامير وأتباعه إذا مضينا فى السير على الأسلوب الذى نسير عليه اليوم ، فقد تنبهنا نحن العرب إلى أننا فى ذاتنا قوة ، وأن هذه القوة العربيـة هـى العلاج الحاسم لمشاكلنا ، ففى عالمنا العربى اليوم ثلاثة اتحادات هى اتحاد الخليج والاتحاد العربى والاتحاد المغربى ، وكل من هذه الاتحادات يقـول

بذاته ، ولكـن التعـاون بينـها قـائم ، إذ أن العـدوات والمنافسـات انتـهت والحمد لله ونرجو ألا تعود ، وكل من هذه الاتحادات يسير كمـا قلـت لـك سيرًا بطيئًا مملا ، ولكن التعاون بينها يسير ، والذى أرجوه هو أن ينتـهى الجمود ويحل محله نشاط وعمل إيجابى ، وهذا أمل يملأ نفسى ، وأرجـو ألا أكون مخطئًا أو وحيدًا فيه.

وأنا أتعلق بهذا الأمل لأنه هـو المخـرج الوحيـد مـن حالـة الملـل التـى نعيشها ، والملل ناشئ من حالة المستوى الثقافى والعلمـى المنخفـض الـذى يعيشه العرب فى عصرنا هذا ، فإن مدارسنا وجامعاتنـا فـى عالمنـا العربـى كله عاجزة مع الأسـف عـن إخـراج الرجـال ، الرجـال الذيـن يسـتطيعون اكتشاف الحلول بالعلم والثقافة. وأوربا وأمريكا لا يهمها قط أن نتقدم نحـن أو نجد حلولا لمشاكلنا ، لأننا إذا استطعنا أن نشق طريق المستقبل أو نجـد حلولا لمشـاكلنا فقـدوا هـم الكثير. وقـد رأينا تدخـل فرنسا فـى لبنـان ، ولا يمكن أن يكون هذا التدخل لصالحنا ، فكل الذى أراده الرئيس ميـتران هو إيصال الأسلحة والمؤن إلى الجانب المسيحى حتى تستمر الحرب هنـاك. وقد استمرت الحرب هنـاك فعـلا نتيجـة لهـذه المعاونـة ومعاونـات عربيـة يؤسـف لهـا. وعلـى أى حـال فـإن الـذى نريـد أن نؤكـده هـو أن الغـرب الاستعمارى القديم. وأقصد بذلك فرنسا وإنجلترا لن تساعدنا قط علـى حـل مشاكلنا. وكذلك الولايات المتحدة ، لأن حل مشاكلنا ليس مـن صـالح هـذه الدول الثلاث التى اعتادت العيش والازدهار علـى متاعبنـا. والأمـر هنـا لا يقتصر على موقفها منا – بل إن متاعبها هى كثيرة جدًا ، وأحب أن أركـز هنا على الولايات المتحدة لأقول إنها منذ أكثر من عشر سنوات لم تقدم لنـا أى حل حقيقى لأية مشكلة من مشاكلنا ، وقد أشرت – على سبيل المثال – إلى أنها ربطت سياستها فى الشرق الأوسط بإسرائيل. فما تريده إسرائيل هو الذى يكون ، وسنرى أن الموقف لن يتغير حتى بعد زيارة أعـلام العـالم

العربى للولايات المتحدة والتحدث مع المسئولين هناك ، وأنا أقرأ اليوم آخر ما قاله لنا الأمريكيون بعد الزيارات الخطيرة الأخيرة. قالوا: اتصلوا بإسرائيل. وأنتم بصفتكم مصريين تستطيعون تنظيم هذه الاتصالات بين العرب واليهود. وأنا شخصيا أرى أن هذا كان عمل أمريكا إذا كانت تريد المساعدة فعلا ، ولكنها فى الواقع لا تريد أو لا تستطيع.

وكل ما عندها هو هذا الطراز من النصائح دون أن يقوم رجالها بأى عمل إيجابى ، ورغم ذلك فإننى أجد بعض المسئولين عندنا مازالوا يحسبون أن أمريكا عندها حل أو حتى إرادة الحل ، أما أنا فأرى بعد تأمل الحوادث وقراءة كلام المسئولين الأمريكيين أنهم مبسوطون جدا هكذا ، فهم لا يعملون شيئا ونحن مع ذلك نمتدحهم ونعلق الآمال عليهم ، ولا نكف عن التردد على بلادهم وربما كان هذا الملل أو الشلل الذى أعانيه ناتجاً عن موقفنا من أمريكا وموقف أمريكا منا وهو موقف لا يتصف بذكاء ، وليس فيه أى إكرام للعرب ، وقد نجح غيرنا ممن هم أقل منا فعلاً فى اتخاذ موقف أقوى من أمريكا ، بل إنهم تحدوها دون أن تستطيع شيئًا وهم يعرفون أنها لا تستطيع ، وهل هناك أعجب من الجنرال نوريجا رئيس بنما الذى هاجمته أمريكا أكثر من مرة ، وأعلنت أنها ستعزله وتطرده من بلاده ، ومع ذلك فمازال هذا لرجل – مهما كانت حقيقة أمره ، مازال قائما فى بلاده متمتعا برياسته دون أن تستطيع أمريكا شيئًا ، وحتى عندما أقدم هذا الرجل على القبض على كبير خصومه ظلت أمريكا ساكنة حتى أطلقه هو من تلقاء نفسه.

وقد خرج هذا الرجل من بنما، لا لأن أمريكا أرادت ذلك، بل لأن أهل بنما أنفسهم أرادوه.

والحقيقة أن أهل الأمريكتين الوسطى والجنوبية يعرفون أمريكا أكثر مما نعرفها نحن العرب ، فهم فى معارك معها منذ ميلاد بلادهم ، وأمريكا

فى عصر نموها فـى القرن التاسع عشر كانت وحشًا خطرًا يلتهم كل ما يستطيع التهامه ، وتاريخ الصراع بينها وبين المكسيك وأمريكا الوسطى طويل وأليم ، بل إن أهل أمريكا الوسطى كانوا فى يوم فى الأيام على وشك تكوين دولة واحدة ، وتولى زعامة هذا المشروع رجل من كوبا يسمى خوسيه مارتى ، ولكن أمريكا بذلت أقصى ما استطاعت من جهد ليفشل هذا المشروع ، وتظل أمريكا الوسطى مقسمة كما تراها اليوم. ومن المعروف أن الدول الصغيرة المتجاورة لا تستطيع الاستمرار على السلام ولابد أن تكون هناك خلافات إما على الحدود وإما بين وجهات النظر ، ونحن نرى ذلك فى مأساة بلاد الشام التى قسمها الاحتلال إلى أربع دول ليسهل عليه احتلالها ، وعندما استقر هذا التقسيم أصبحنا فعلاً أمام أربع دول فى بلاد الشام ، وبدأ الاختلاف بين هذه الدول كما ترى فيما يقع بين سوريا ولبنان اليوم ، وقبل أن تقوم دولة إسرائيل على أرض فلسطين كانت هناك نقط خلاف بين فلسطين وسوريا ولبنان ولكنها لم تكن بالخطورة التى هى عليها اليوم ، ومعظم مشاكل أمريكا الوسطى سببها سياسة الولايات المتحدة المصادقة لها فى الظاهرة والمعادية لها فى الحقيقة ، وكل الذين نادوا بالإصلاح وقاموا بحركات إصلاحية هناك كانوا معادين للولايات المتحدة وآخرهم سان دينو الذى أنشأ حركة الساندينيستاس فى جواتيمالا ، وسان دينو لم يكن شيوعيًا ولكنه كان جواتيماليا معاديا للولايات المتحدة ، ولهذا جاءه العون من الكتلة الشرقية ، ومن هنا جاء اتهامه بالشيوعية وكل المتتبعين للحركات القومية فى أمريكا الوسطى يعرفون ذلك ، ولهذا فهم لا يثقون فى الولايات المتحدة لأنهم يعرفون أنها تسعى دائمًا لكى تظل أمريكا الوسطى ضعيفة ومقسمة إلى أحزاب وضحية للحرب الأهلية ، ومن هنا فإنه يستبعد جدا أن تقوم الولايات المتحدة بأى عمل يخدم أمريكا الوسطى أو أى دولة من دولها ، وهذه حقيقة تعرفها كل من كوبا والمكسيك أكثر من غيرهما ، ومن المعروف أن هاتين الدولتين ليستا صديقتين للولايات المتحدة رغم ما يبدو أحيانا.

□□□

ونحن أخطأنا خلال السنوات الماضية عندماحسبنا أن أمريكا يمكن أن تكلف نفسها جهد خدمتنا أو التضحية فى سبيلنا ، لأن أمريكا لا تساعد إلا نفسها. وقد عوداناها نحن أن تظل مكانها كالسيد العظيم ، ونحن نجرى بين أيديها ، وكل ما نحصل عليه منها هو كلمات تشجيع ورضا لا قيمة لها ، وأرجو القارئ ألا يتصور أن المساعدات المالية تعتبر أعمالاً من أعمال السياسية الدولية ، لأنها إما قروض أو هبات ، فأما القروض فلابد أن ترد ، أما الهبات فهى فى الغالب أجزاء من أرباح الديون التى ندفعها إليها.

والحقيقة التى ينبغى أن نعرفها ولا نشك فيها هى أنه لن يخدم العرب غير العرب ، واتحاداتنا الراهنة اليوم ، واختفاء المشاحنات أفيد لنا ألف مرة من الولايات المتحدة أو روسيا ، وكل ما علينا أن نفعله هنا هو أن نتجنب الخلاف أو العداوة بين هذه أو تلك من بلادنا ، ثم يكون اعتمادنا الحقيقى بعد ذلك على أنفسنا فقط.

ذلك أن نحن العرب نملك كل ما تحتاج إليه من عناصر القوة ، فلدينا الأرض والمال والعلم ، وفى السنوات الأخيرة خطونا خطوات واضحة فى ميدان الصناعة ، وإذا نحن مضينا فى هذا الطريق فلا شك أننا سنصل بالصناعة العربية إلى مستوى يمكنها من مواجهة أية مشكلة تعترض أيا من بلادنا. وهذا هو الطريق الذى سيخرج بنا من الملل الذى يضعنا فيه اعتمادنا على أمريكا ، فليس لنا فى الحقيقة وقت ولا حساب عند أمريكا.. ومهما تتكلم معنا فإننا لن نجد عندها فى أى حالة إلا الفيتو الغبى السخيف.

ومن رأيى أنه علينا أن نرسم خطة للمستقبل لا وجود فيها إلا للعرب ، وهذه الخطة تعتمد أساسًا على العلم والعمل ، لأن المال وافر لدينا وصناعتنا خطت فى السنوات الأخيرة خطوات جادة. فنحن نصنع معظم ما نحتاج إليه ، وقد دخلت صناعتنا عالم الكومبيوتر بنجاح ، وإذا رسمنا خطتنا

على أن يشترى كل منا من أخيه العربى كل ما يمكن شراؤه دون نظر إلى الكسب أو على الأقل دون أن نضع الكسب فى الاعتبار الأول فلا شك أن صناعتنا ستزداد ازدهارًا وقوة ، ومع الصناعة يسير التقدم الحقيقى. وكما قلنا فى أحاديث ماضيه لابد أن نغير سياستنا العلمية وليس من الضرورى أن يشمل التعديل العلمى كل الجامعات ، بل يمكن أن نركز الإصلاح العلمى فى جامعة القاهرة مثلاً وننشئ فيها كل التصورات العلمية والصناعية التى نبنى عليها صناعتنا وهناك ينبغى أن تعترض المجانية مثلا طريقنا ، فإذا أنشأنا مثلا معهدا للتكنولوجيا أو الكومبيوتر فى جامعة القاهرة فينبغى ألا ننظر إلى مصالح الأفراد بل إلى صالح مصر فى مجموعها. ومن المؤكد أن المواطن المصرى الذى يجد فى أبنائه واحدًا موهوبًا يستطيع النجاح فى ميدان الكومبيوتر مثلاً لن يتردد فى عمل كل ما يستطيع لإدخال ابنه معهد الكومبيوتر مهما كلفه ذلك من المال. ومن المؤكد أيضًا أن أى شاب يحس بأنه يستطيع النجاح فى معهد الكومبيوتر سيجتهد فى التفوق لكى يدخل هذا المعهد على حساب الدولة التى ستحتاج إليه ، ونحن وقفنا هذا الموقف عندما كنا شبابا: أحسسنا أن الدولة تحتاج إلى الممتازين فى اللغات أو الرياضيات أو الطبيعة أو الكيمياء ، فبذل كل منا أقصى ما استطاع من جهد فى ميدانه ، ومعظمنا نجح فى أن يكمل تعليمه على نفقة الدولة بل ذهب فى بعثة وأتم دراسته وعاد ليخدم الدولة والبلاد، ولهذا فقد كثر الممتازون فى أيامنا ووجدت الدولة طريقها مذللاً إلى النهوض بل زاد نجاح بعضنا على المطلوب واستمر يعمل طول حياته بنفس الاجتهاد لأن الاجتهاد أصبح لذة فى الحياة ، وأذكر مثلاً أن المنافسة فى ميادين العلوم بين رجلين مثل مصطفى مشرفة وأحمد زكى كانت منافسة بين إرادتين ، وقد انتفعت مصر والعالم العربى كله من الاثنين وهناك أمثلة كثيرة جدًا على ذلك.

فاعتماد العرب على العرب لابد أن يؤدى بهم إلى النجاح وسينجو بهم ذلك – دون شك – من كوارث الملل التى استولت عليهم نتيجة تصورت أن أمريكا أو روسيا يمكن أن تنفقه وكذلك جرينا وراء هذه أو تلك ، وهذا

الاتجاه من جانبنا قد وضع هذه وتلك فى موضع رياسة وسيادة لا معنى له، وأول من تنبه إلى هذا الخطأ هو الرئيس السادات الذى وجد أن الخطوة الأولى فى طريق النصر هى التخلص من الروس ، فبادر إلى إخراج سبعة آلاف روسى من مصر كى يستطيع أن يتصرف بحرية ، وكانت ضربة معلم كما يقولون وكانت الخطوة الحاسمة فى طريق النصر كما نعلم.

(٥)
العرب فى عصرهم الجديد:
الدنيا كلها تتغير فى أيامنا*

التاريخ لا يسير بسرعة واحدة فى كل العصور.

إنه يسير دائمًا ولا يتوقف قط ، لأن مسيرته ترتبط بحركة الكون ، بسير الشمس. بدوران الأرض ، بحركة الكون العظيم الذى نراه من حولنا إنه لا يتوقف ، ولكنه أحيانا يسرع فى مسيرته.. تتزاحم الأحداث ويحس الإنسان أننا على وشك انفجار.

حدث هذا على طول التاريخ وعرضه. حدث – مثلاً – فى عصر النهضة الأوروبية ، عندما تعاصر ظهور رجال تمتلئ رءوسهم بأفكار التغيير والتقدم من أمثال جاليليو وليوناردو دافنشى ومايكل أنجلو ممن نقلوا الدنيا بعلمهم واكتشافاتهم من حال إلى حال. ذلك حدث أيضًا فى الثورة الفرنسية عندما تزاحمت الأفكار وتكاثر المفكرون الذين دفعوا الدنيا كلها خطوات واسعة وسريعة إلى الأمام.

فى أيامنا هذه نحن نعيش عصرًا من عصور التزاحم التاريخى الغزير الذى ينتقل بالدنيا كلها – ونحن نرى – من عصر إلى عصر ومن حال إلى حال. وفى هذه العصور يستحيل التوقف أو الإبطاء. لابد من السير إلى الأمام لأن العصر الذى نعيشه مات وانتهى ، ولا يمكن أن ينهض من جديد . ونحن العرب لابد أن نعرف ذلك ولا نحاول قط الوقوف. لأننا إذا توقفنا داستنا الأقدام وسقطنا مرة أخرى فى هاوية الاستعمار.

ويرتبط التغيير الحالى فى أحوال الدنيا باسم رجل روسى هو ميخائيل سيرجييفيتشى جورباتشوف أو جورباتشيف. والحقيقة هى أن هذا الرجل

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٩ أكتوبر ١٩٨٩م .

عندما وضع قدمه على أول درجة من درجات الصعود السياسى فى أوائل الثمانينات أحس بأن روسيا وطنه فى خطر ، لأن الغرب الأوربى سائر نحو الاتحاد: إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وهولندا وبلجيكا تسير نحو التوحد ، وفى سنة ١٩٩٢م ستصبح أمة واحدة لها جيش واحد واقتصاد واحد بل عملة واحدة. دول غرب أوروبا إذا وصلت إلى ذلك أصبحت قوة لا تقاوم. أصبحت أقوى من الولايات المتحدة نفسها ، لأن الولايات المتحدة تسير منذ أيام رونالد ريجان خلف أوروبا. إنها دولة كبرى وثروتها هائلة وقوتها العسكرية هى أقوى ما على الأرض ، ولكن ينقصها الفكر والروح. إنها أمة تتدهور لأن الفساد السياسى هناك عام وشامل وحب المال وحرص الناس على الاستمتاع بالحياة يجعلهم يقبلون الرشوة ويضحون بالعرض ويتزاحمون على الملذات.

ثم إن هذه الولايات المتحدة نفسها – أيا كانت حقيقتها – تسير خلف أوربا ، وإذا حدث تصادم بين غرب أوربا وروسيا فإن أمريكا ستقف مع غرب أوربا ، وهنا لن تستطيع روسيا الثبات – ومن المستحيل عليها الوقوف أمام هذا الخصم القوى العنيد.

وكان جورباتشوف أثناء تقدمه فى الوظائف خطوة خطوة يرى أن الاتحاد السوفيتى نفسه يتغير. وقد حاول نيكيتا خروشوف فى أوائل الخمسينات أن يحدث تغييرًا حاسمًا فى نظم الاتحاد السوفيتى. ولكنه تراجع بعد أزمة كوبا خلال سنة ١٩٥٠م ، وعقب ذلك مباشرة هجمت قوى الجمود والتخلف فى روسيا وأعادت بناء الماضى وأوقفت التقدم. وبعد ذلك حاول اليكسى كوسيجين الذى كان رئيسًا لوزراء روسيا حتى وفاته سنة ١٩٨٠م حاول أن يوجه النشاط الصناعى الروسى – أو جزءًا منه على الأقل نحو خدمة الجماهير بصناعة أشياء تسهل حياة الناس ، وابتكر تعبيرًا جديدًا هو «الاشتراكية بوجه إنسانى». وقبل مجىء جورباتشيف

بخمس سنوات كانت بولندا قد قامت بثورتها الهادئة على الاتحاد السوفيتى وأنشأ ليخ فاليسا حركة التضامن أو السوليداريتى. ويومها رفضت حكومة بولندا أن تسمح لحركة التضامن بالاشتراك فى حكم بولندا فكان ذلك عاملاً من عوامل قوتها. فزاد انتشارها فى بولندا وأصبحت قوة سياسية خطيرة.

وكان أندريه جروميكو يرقب جورباتشيف فى هدوء. وكان يعجب به ، وفى سنة ١٩٨٥م رشحه ليصبح سكرتيرًا عامًا للحزب الشيوعى الروسى ، ونجح فى تعيينه فى هذه الوظيفة. ومن ذلك الحين لم يعد جورباتشوف يحتاج إلى معاونة أحد ، فقد وصل إلى مركز القوة وأصبح يستطيع السير وحده فى طريق التغيير.

وكان جورباتشيف يختلف اختلافًا كبيرًا عن كل الذين سبقوه من زعماء الاتحاد السوفيتى. فقد تخرج فى كلية الحقوق فى جامعة موسكو ، ولم يدرس أحد ممن سبقوه فى قيادة روسيا فى جامعة ، فكان بذلك أول زعيم روسى منذ أيام لينين يحصل على درجة جامعية. وكان ذكيًا جدًا وتمتع بملكات سياسية عظيمة. وإذا كان من سبقوه من زعماء الاتحاد السوفيتى لم يفهموا المراد بمصطلح «الحقيقة الموضوعية»بفقد فهمه هو ، وأدرك أن روسيا لن تستطيع الحياة إلا إذا اعترفت بالحقيقة الموضوعية ، ومعناها الواقع ، وسارت فى حدوده.

وكانت تسيطر على روسيا حتى ذلك الحين روح الكراهة لكل ما هو ليس بروسى. وأحس بورى اندروبوف بخطورة ذلك ولكنه لم يجرؤ على عمل شىء ، ولكنه أحس أن جورباتشيف جرىء وقوى وذكى فاختفى رواءه ودفعه إلى الأمام.

□□□

ومن مركزه السياسى القوى – رئيسًا للوزارة – رأى جورباتشيف بوضوح أن الإداريين يسيطرون تمامًا على الاتحاد السوفيتى ويقودونه بذلك

إلى الموت ، فقرر أن يضرب الجمود الإدارى ضربة حاسمة ، وكانت لديه الشجاعة ليقول فى سنة ١٩٨٧م إن العسكريين لا يستطيعون ضمان بقاء الاتحاد السوفيتى.

وكانت حركة السوليداريتى فى بولندا ذات أثر بعيد تطوير الأحوال فى روسيا ، وقد مرت ثورة بولندا فى مراحل حاسمة فى سنوات ١٩٥٦م و١٩٦٨م و ١٩٧٠م و ١٩٧٨م و ١٩٨٠م و ١٩٨١م وكان لكل خطوة من خطوات تقدمها صدى بعيد فى روسيا ، وقد حاولت روسيا إيقاف هذه الثورة أو معارضتها دون فائدة وأخيرا استطاعت حركة سوليداريتى أن تتحول إلى حرب وكسبت الانتخابات وانتصرت بذلك انتصارًا حاسمًا على روسيا.

وتمسكت الصين بالشيوعية القديمة ورفضت أى تغيير ، ولكن رئيس الصين وهو دينج اكسياوبنج أصدر إصلاحات جريئة فى بلاده ، وقد سميت هذه الإصلاحات بخطوات التقدم الأربع ، ولكنه أصر على أن يبقى النظام فى الصين داخل النظام الشيوعى ، كما رسمه ستالين ، وقد لقى رئيس وزراء الصين معارضة من شعبه وقامت الثورة التى سمعنا بها ، وتظاهر الطلاب فى ميدان آن مين فى بكين ، وهنا نجد دينج اكسياوينج يقضى على ثورة الطلاب بعنف بالغ ، وقد مات فى هذه الحركة ألوف الشباب ، وتبين فيما بعد أن دينج لم ينتصر بل كانت هذه المذبحة التى قادها سبب سقوط نظامه ، وهاهو ذا اليوم يحاول الثبات فى معارضة الثورة على النظام الشيوعى ، ولكنه لن يستطيع الثبات لأن الثورة على النظام الشيوعى بجموده القديم عالمية ولابد أن تنتصر.

وفى المجر أيضًا قامت الثورة على الاتحاد السوفيتى ، ونحن نذكر أن المجر كانت قد ثارت على الاتحاد السوفيتى سنة ١٩٥٦م ، وقد قضى على تلك الثورة فى عنف فى نفس الوقت الذى غزت فيه إنجلترا وفرنسا

وإسرائيل مصر سنة ١٩٥٦م بعد القضاء على ثورة ١٩٥٦م فى المجر ظلت نيرانها مشتعلة تحت الرماد حتى انفجرت مرة أخرى يقودها إمرى ناجى فى ١٧ مارس ١٩٨٩م ، وكان الألمان الشرقيون هم الذين قضوا على ثورة المجر سنة ١٩٥٦م ، ولكن الألمان الشرقيين ثاروا ضد الروس هذه المرة.

هنا نجد أريك هونيكر يواجه ثورة على الشيوعية فى بلاده فى ٩ أكتوبر ١٩٨٩م ، وهذا الرجل أمر رجاله بأن يحشدوا أكبر قوة للقضاء على الثورة، ولكنه فوجئ بأن شعب بلاده كله ثائر على الشيوعية الروسية ، وقد وجه ضد الثائرين قوة من مائتى ألف رجل وزادها إلى ٤٨٠٠٠٠ بعد ذلك دون فائدة ، وفى ٦ نوفمبر اتسع نطاق الثورة على هونيكر حتى شعر بأنه لا يستطيع المقاومة واستغاث بجورباتشيف ، ولكن جورباتشيف قال إنه لا يستطيع نصرة النظم الشيوعية خارج بلاده وانتهى الأمر بطرد هونيكر وحل محله كرينز ، وهذا الرجل لم يجد بدا من فتح الأبواب بين ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية ، بل اقتحم الناس حائط برلين ، وفى ٣ ديسمبر سقطت حكومة ألمانيا الشرقية الشيوعية والحزب الشيوعى الألمانى، وكان عدد قواته مليونين وثلاثمائة ألف لم يستطع عمل شىء. وألوف الألمان هاجروا من ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية.

ومعنى ذلك أن جورباتشيف وجد أن صالح روسيا يقضى بالتخلى عن التعصب للشيوعية بصورتها القديمة ، فمن يستطيع الثبات على الشيوعية القديمة فليثبت وإلا فليستسلم لأن روسيا لابد أن تكون عضوا فى الاتحاد الأوربى ، وهى لا تستطيع أن تظل معادية للغرب الأوربى وأمريكا معا ، فمعنى ذلك ضياعها ، ولا معنى لإنفاق ملايين الملايين فى عمل أسلحة لمحاربة الغرب ، وروسيا بلد أوربى وينبغى أن تدخل الاتحاد الأوربى ، حقا إنها لن تتخلى عن الشيوعية ، ولكنها فى نفس الوقت لن تهلك نفسها فى سبيل الشيوعية ، لأن نظريات كارل ماركس ولينين وستالين

كلفت روسيا البلايين ، ولكنها الآن لابد أن تختفى إذا كان فى اختفائها حياة لروسيا ، ومع ذلك فليس من الضرورى أن تختفى شيوعية كارل ماركس ولينين ، بل يمكن تحقيقها والتقريب بينها وبين الرأسمالية الغربية ، وليس من العدالة على أى حال أن يظل الروس محرومين من كل نعم الحياة فى سبيل الدفاع عن الشيوعية القديمة كما هى.

وهذا الموقف الشجاع الذى وقفه جورباتشيف هو الذى أوقف الغرب كله أمام مشكلة لم يكن يتوقعها ، وفى مارس ١٩٨٩م أجريت انتخابات فى روسيا ، وفاز المجلس الأعلى للاتحاد السوفيتى ، ولكن الذين فازوا من أعضائه هذه المرة كانوا يختلفون تماما عن أعضائه فى الماضى ، فهم اليوم من أنصار جورباتشيف أى أنهم ليسوا متعصبين للشيوعية القديمة ، إنهم رجال أحرار يريدون أن يكونوا جزءًا من أوربا ، وجورباتشيف اختار رئيسا للمجلس الجديد رجلاً كان فى الماضى عدوا للنظام الشيوعى القديم وهو اندريه زخاروف الحاصل على جائزة نوبل للسلام ، وفى نفس الوقت انتخب المجلس الجديد جورباتشيف رئيسًا للدولة وأندريه جروميكو ، الرئيس القديم الذى كان وزيرًا لخارجية روسيا سنة بعد سنة اختفى ثم مات بعد ذلك ، وانضمت النظم الجديدة فى بلاد الاتحاد السوفيتى فى شرق أوربا إلى جورباتشيف ، وبذلك تغير الوضع فى أوربا تمامًا ، وكل ذلك بفضل جورباتشيف الذى غير الوضع السياسى العام فى أوربا – والعالم كله تبعا لذلك – وهذا هو السبب الذى جعل مجلة تايم الأمريكية تختار جورباتشيف رجل العقد (بفتح العين) أى السنوات العشر الأخيرة لا مجرد رجل السنة.

وامتدت حركة التغيير حتى شملت كل جمهوريات الاتحاد السوفيتى ، وقد سمعنا عن العداء بين أرمينيا واذربيجان فى بلاد القوقاز على أقليم من أقاليم اذربيجان ، كان الأرمن قد هاجروا إليه يسمى ناجورنو كراباخ ،

وأرادت أرمينيا بعد ذلك نزعه من اذربيجان وضمه إليها ووقعت الحرب بين الجانبين وقام جيش من اذربيجان بحصارنا جورنو كاراباخ واستعادها، فهى أرض إسلامية وروسيا لم تتدخل هنا ، ولكن الأمور مازالت مضطربة هناك.

ولا يتسع المجال هنا للكلام على الثورة ضد النظام الشيوعى فى ثلاث جمهوريات على بحر البلطيق هى لتوانيا ولتفيا واستوفيا ، وكانت روسيا قد ضمتها إليها وجعلتها بلادا شيوعية فى سنة ١٩٤٧م. هذه الجمهوريات ثارت اليوم على النظام الشيوعى وواحدة منها لتوانيا أعلنت نفسها بلدًا مستقلاً وإن ظللت شيوعية لم تفعل شيئًا ، ولكن جورباتشيف لم ينهزم وإنما هو يقول إن كل شىء ينبغى أن يسير فى كل بلد كما يريد الناس ، ومازالت لديه القوة ليعيد النظام الشيوعى كما كان ، ولكنه لا يريد ، لأنه يرى أن ذلك ليس إنسانيا من ناحية ، وليس من صالح روسيا من ناحية أخرى. وهو لم ينزعج لخروج خمس جمهوريات من الاتحاد السوفيتى على النظام الشيوعى ، لأن هذا لا يعنى عداءها لروسيا بل يعنى أنها صارت أحلافا أقوى وأكثر إخلاصًا لروسيا والنظم الجديدة التى قامت فى تلك الجمهوريات ليست رأسمالية بل هى اشتراكية معدلة ، لأن الرأسمالية ليست من خير النظم ، فلها عيوبها الكثيرة ولكن المهم هو أن روسيا قامت بدور أساسى فى حدوث التغيير فى تلك البلاد ، وهو نفسه قال فى شهر ديسمبر ١٩٨٩م أن كل بلد يستطيع أن يتبع النظام الذى يريد ، ومعنى ذلك أن العالم كله يدخل اليوم فى عصر جديد بفضل ذلك الرجل ميخائيل سيرجييفيتش جورباتشيف.

فى وسط هذه الثورة كلها ماذا تفعل أمريكا؟

لا شىء.

إنها تصر على أن تزعم أنها تحاول أن تحمى الغرب من روسيا ، ولكن روسيا نفسها تنضم إلى الغرب . والحقيقة هى أن أمريكا تقف الآن فى آخر خط من خطوط التقدم الفكرى العالمى ، وأبسط دليل على ذلك موقفها من إسرائيل ، فإن الذى لا شك فيه هو أن إسرائيل ترتكب فى فلسطين أبشع أنواع الاضطهاد والعدوان على الناس ، وهى تجتهد فى إيقاع عالمنا العربى كله فى الفوضى ، وأمريكا لا تنكر شيئًا بل تؤيد إسرائيل لأنها فى الحقيقة أضعف من إسرائيل وجورج بوش على الرغم مما يدعيه هو عدو العرب الأكبر ، وربما كان هذا الرجل غير راض عن أعمال إسرائيل ، ولكنه لا يستطيع مقاومة إسرائيل ، وأمريكا اليوم بلد قوى جدا فى الناحية العلمية والعسكرية ، ولكنه ضعيف جدًا من الناحيتين الفكرية والإنسانية ، وهذا هو الذى يهمنا هنا. ولهذا فإننى أقول هنا لإخوانى العرب: لا معنى لهذا الاهتمام الكبير بأمريكا ، لأن أمريكا خاضعة – بالفعل وفى الواقع – لإسرائيل.

وإسرائيل فى نظر أمريكا دولة من الطراز الأول فى حين أن العرب فى نظر أمريكا – دولة من الدرجة الرابعة ، وربما الخامسة ، ومن هنا فإن أمريكا لا يمكن أن نعتمد عليها نحن العرب فى خصومتنا مع إسرائيل ، وهذه الخصومة هى مشكلتنا الرئيسية اليوم.

ومن هنا فإننى أقول للعرب: إذا كنتم ستدخلون الآن عصر التغيير الشامل الذى يشمل العالم كله فلتدخلوه على أساس التخلى عن هذا الاعتماد الكبير على الأمريكيين ، لأن أمريكا فى عصرنا هذا تقف فى آخر الخط ثم إننا مهما فعلنا فهى لن تقف معنا فى خصومتنا مع إسرائيل ، وتلك هى الحقيقة الأساسية التى أريد أن أقولها لإخوانى العرب.

□□□

وقد قال جورج بوش فى لقائه الأخير مع جورباتشيف فى مياه مالطة: لقد آن الأوان لكى أنضم إلى ما يسميه جورباتشيف «الفكر السياسى الجديد» وتقول مجلة تايم إن بوش ظل إلى الآن يسير خلف جورباتشيف محاولا اتباع التغيير الذى أحدثه فى السياسة العالمية. إن جورباتشيف يحتكر إلى الآن ابتكار الآراء الجديدة والسير فى أول صفوف التقدم. وقد كانت الحملة التى أمر بها بوش على بنما أول خطوة حاسمة تقوم بها أمريكا فى تعديل الاتجاه السياسى فى أمريكا الوسطى منذ أصدر جيمس مونرو قراره التاريخى بتحريم التدخل فى شئون الأمريكيتين ، وكانت أمريكا تتساءل: هل جورباتشيف صادق فيما يقول؟ هل هو بالفعل يريد مصادقة الغرب؟ والآن وبعد قمة مالطة أصبح كل أمريكى واثقًا من أن جورباتشيف صادق. والحق أنه لا يمكن إلا أن يكون صادقًا لأنه يؤمن تمام الإيمان بأن سلامة روسيا معقودة فعلاً باتحادها مع الغرب الأوربى ، لأنها لا تستطيع أن تقف فى وجه الغرب ولابد أن تنضم إلى الغرب حتى تطمئن على مصيرها ، وهذا ينبغى أن نفهمه نحن العرب لكى نطمئن على مصيرنا لابد أن نتخلى عن عدائنا للغرب ، ولابد أن ننضم إليه لكى نستطيع أن نتغلب عن مشكلة إسرائيل ، لأن الغرب يفهم إسرائيل ويعرف أنها خطر لا على العرب فحسب بل على العالم كله ، فإن أوروبا تعرف حقيقة الإسرائيليين ومطامعهم ، وهى تعرف أن الغرب فى الحقيقة هو العدو الحقيقى لإسرائيل ، والصهيونيون لا ينسون ما أصابهم على أيدى أهل الغرب أثناء الحرب العالمية الثانية. □

(٦)

مواطنون للتصدير*

لم أكن فى مصر عندما حدثت حوادث المصريين فى العراق ، وقد وصلتنى أنباؤها متقطعة غير مترابطة ، بعضها عن طريق الإعلام العربى وبعضها عن طريق الإعلام غير العربى ، وقد أدهشنى الأمر فى مجموعه لأن الذى أعرفه هو أنن العراقيين شعب لطيف معتدل وكريم ، ولا أذكر أننى عرفت فى حياتى عراقيًا أنكرت منه شيئًا ذا بال ، وعلى عادتى تركت الأمر فى نفسى كما وصلنى فى انتظار أن تأتينى الأيام بتفاصيل توضح لى الأمر.

ومن أيام لقيت صديقًا عراقيًا قديمًا عرفته فى أثناء عملى فى الكويت ، وأعجبنى خلقه وتصرفه فارتبطنا معًا بعلاقة صداقة أعتز بها وتسعدنى ذكرياتها ، وقمت بحقه فى بلدى ، وجرى الحديث بيننا ، ولا أدرى كيف جاءت سيرة حوادث المصريين فى العراق ، فقلت له: على فكرة ، أحب أن أسألك عما جرى للمصريين فى العراق ، قال: ما كنت أحب أن أتحدث فى ذلك حتى لا أسوءك ، أما وقد سألتنى فاسمح لى أن ألقى إليك كل ما فى نفسى ، وأرجو أن تكون واثقًا من كل كلمة أقولها وأنت تعرفنى جيدًا فيما أعتقد.

– طبعًا.

قال: قبل أن أتحدث أحب أن تعرف أن الذين جاءونا من مصر خلال السنوات الأخيرة ينقسمون قسمين ، قسم له حرفة واضحة معروفة وقد أتى بها إلى العراق وزاولها بأمانة ولا دخل لهم فى الحوادث التى تشير إليها لأن صاحب الصنعة له دائمًا خلق ثابت ، وحتى لو اضطر واحد من هؤلاء

---

* نشرت هذه المقالة فى ١١ فبراير ١٩٩٠م .

المصريين إلى تغيير حرفته بحكم الظروف فقد ظل يحمل فى نفسه أخلاق الرجل المحترم صاحب الحرفة ، وقد أفدنا هؤلاء وأفادونا لأننا كنا فى حالة حرب وكنا فى حاجة إلى المعونة من أى إنسان مخلص محترم ، خاصة أن الحرب كانت قاسية وعنيفة وألوف العراقيين كانوا فى الجبهة ، ومن هؤلاء العراقيين كثيرون أصيبوا فى الحرب ، وجاءت علينا أيام لم نكن نرى فيها كيف نخلص من هذه الحرب ، والمصريون أصحاب الحرف – أيا كانت – خدمونا فعلاً واحترمناهم ، وأعتقد أنهم إذا كانوا قد عادوا من بلدنا فقد عادوا سعداء ، وإذا كانوا لا يزالون فى بلادنا فهم أيضًا سعداء ونحن كذلك سعداء بهم ولكن المشاكل أتت من طائفة أخرى من المهاجرين المصريين أتونا مغامرين : لا حرفة ولا مال ، وهؤلاء بدأوا حياتهم فى بلادنا بداية كل محتاج أى أنهم قبلوا أى حرفة أو أى عمل تفتحت لهم أبوابه وأخلصوا فيه فى البداية ، ومعظم هؤلاء احترفوا بيع الفاكهة والخضر لأن هذا العمل على بساطته معقد ويحتاج إلى صبر وطول بال وحسن خلق ، فلابد أن تذهب إلى سوق الجملة وتشترى مقادير من الخضر والفواكه وتحملها إلى العواصم وتتخذ لنفسك موقفًا وتمارس البيع بشىء من الكسب ، والمسألة هنا تحتاج إلى صبر وحسن خلق ، وهؤلاء المفلسون الذين لم يأتونا بحرفة استطاعوا أن يحصلوا على مقادير من الخضر والفاكهة واتخذوا لهم مواقف للبيع على نواصى الشوارع أو فى أى مكان وأقول لك الحق لقد حمدنا لهم ذلك وسعدنا بهم لأن العراقيين بينى وبينك لا يحبون مثل هذه الحرفة المتعبة التى لا تعطيك رزقك إلا بعد جهد شديد.

ولكن المصريين احتملوا متاعب هذا العمل ولم يكن لهم من ذلك مفر ، فقد أتوا بلادنا دون حرفة أو رأس مال يذكر ، فدلهم الناس على هذا العمل فأقبلوا عليه وتكاثروا فيه ولحق بهم غيرهم من مصر لأن دخول

العراق من مصر لا يحتاج إلا إلى تذكرة السفر وشيء قليل جدا من المال ، وجاء يوم أصبحت فيه هذه الحرفة شبه احتكار عندنا للمصريين فما كنت تشترى خضرًا أو فاكهة إلا منهم.

ومع الزمن جرى المال بين أيدى أولئك المهاجرين وأصبح الواحد منهم ينظر إلى الركن الذى اتخذه للبيع كأنه دكانه الذى حازه بالمال والإيجار المرتفع ، وشيئًا فشيئًا وبتوالى الأيام وانتظام البيع جمع الكثيرون منهم مالاً طيبًا ، ولكن الغريب أن هذا المال لم يغير شكلهم أو ملابسهم بشكل واضح فظلوا كما هم يبدون لك فى مظهر المفلس أو المعدم ، ولكن أخلاقهم تغيرت فبينما كان الواحد منهم أول الأمر فى غاية الأدب وحسن التعامل، لا تهل عليه حتى يقبل عليك ويبتسم ويحاول أن يرضيك حتى تنصرف راضيًا ، أخذ الكثيرون منهم يتغيرون ، تقبل على الواحد منهم فلا يقبل عليك ولكنه يظل مكانه وتسأله عن سعر البضاعة فيقول لك عندك الأسعار على البضاعة ، وتحاول أن تفاصل معه على العادة فيقول لك قلت لك إن الأسعار على البضائع ولا مناقشة ولا فصال.

ولم يتغير فينا شيء حيال أولئك الناس ولكنهم أخذوا يزيدون فى الأسعار بصورة غير معقولة واحتملنا تلك الزيادات فقد كنا فى حالة حرب ومحتاجين إلى أية معاونة وأنت تعرف قسوة الحرب بيننا وبين إيران وكثرة خسائرنا ما بين قتل شهداء ومجروحين وأسرى.

وشيئًا فشيئًا بدأت أحوال أولئك الناس تسوء ، خاصة وقد لحق بهم من مصر أمثالهم ، ولم يجدوا الطريق أمامهم سهلاً ، وبعضهم احترف أشياء تافهة جدًا مثل بيع السجائر ، فتجد الواحد منهم جالسًا طول النهار أمام صندوق عليه بضع علب سجائر تعطيه فى اليوم دنانير قليلة لا تكاد تقيم أوده ، وبعضهم لم يفكر حتى فى مثل هذا العمل ، وقد وفدوا من مصر دون رأس مال أو صنعة ، ولم يكن لديهم احترام النفس الذى يكسبه الناس

من الحرفة أو المال ، فبدأوا يتخذون للحياة طرقًا لا ترضيك ، وكانت حكومة العراق – تقديرًا منها لروح التعاون بين البلدين – تحسن معاملتهم ولا تميل إلى الضغط على أحد منهم ، أما تجار الفاكهة والخضر فقد ازدادت معاملتهم للناس سوءًا ، فأصبحت تقصد الواحد منهم فلا يكلف الواحد منهم نفسه عناء النهوض من على كرسيه ، بل يدعك تأخذ ما تحتاج إليه من الخضر والفواكه ثم تأتيه فتدفع له الثمن كما قرره هو ، ولا مناقشة ولا فصال.

وحتى هذا احتملناه لأننا كما قلت لك كنا فى حرب وكنا فى حاجة إليهم ، وأرجو أن تصدق ما أقول لك فأنا كما تعرفنى أحب المصريين ولا أقول غير الحق. ولكننا نحن العراقيين لم نستطع احتمال الكثير مما كان يعمله نفر من هؤلاء المصريين.

□□□

ثم انتهت الحرب وجاء السلام ، وبدأ الكثيرون من العراقيين فى العودة من الجبهة ، فوجدوا هذا الطراز من المصريين يملأ الطرقات. وكان لابد – فيما أظن – أن تحدد سلطات العراق أعداد المهاجرين الوافدين من مصر ، ولكن الظروف لم تكن تسمح بذلك ، فتكاثر المهاجرين الصعاليك وساء تصرفهم فى وقت لم تكن فيه الحاجة إليهم شديدة ، وبدأ الاحتكاك بينهم وبين العراقيين ، والعراقى كما تعرف فيه عنف وشدة ، وبدأوا يضربون على أيدى أولئك الصعاليك ، وساءت الأحوال وكثرت الاحتكاكات وتجاوزت المألوف أو المقبول. وجاء يوم أنكر فيه جمهور العراقيين هؤلاء الصعاليك ، وكثرت الأقاويل عنهم بين الناس ووقعت من بعضهم وقائع منكرة ، ولا أنكر أنهم تعاونوا فى ذلك مع بعض أمثالهم من العراقيين والعراقيات ، ولكن الأجنبى – أيا كان – أجنبى ، وإذا وقعت من الأجنبى جناية قتل أحد أهل البلد فإن الناس لا يحققون ولا يبحثون عن

الحق ، وإنما تثور العواطف وتضطرب الأعصاب ويكون ما ينكره الناس بحق وبدون حق ، وأخيرًا حدث ما سمعت عنه من قيام الناس على بعض أولئك الصعاليك وقتل الكثيرون منهم ، وصدقنى أننا جميعًا آسفون على ذلك ولكن هذا هو الذى حدث ، وكما رجوتك فى أول حديثى أرجو أن تتأكد من أن المصرى صاحب الحرفة والأصل ظل على حاله من الكرامة والأمان، حتى الذين اشتركوا منهم فى الحرب دخلوها وخرجوا منها بكراماتهم إلا من قتل منهم أو أصيب أو وقع فى الأسر.

□□□

واستمر صاحبى يتكلم ، ولكن نفسى اطمأنت وبدأت أفكر على عادتى فى هدوء ، وتساءلت: ولكن ما السبب فى سفر أولئك الصعاليك إلى العراق وهم على هذا المستوى من الجهل والفقر والحاجة إلى الحصول على المال بأى طريق؟ فعرفت أن السبب فى ذلك هو أن السفر إلى العراق لا يحتاج إلى تأشيرة سفر ، وكل ما عليك هو أن تذهب إلى القنصلية العراقية فيختموا لك تأشيرة دخول على جواز السفر. وبطبيعة الحال أصدرت الحكومة العراقية أوامرها بذلك إلى القنصليات العراقية فى بلادنا ، وهى تعطى التأشيرات دون سؤال لأن العراق كما قلت لك كان فى حاجة إلى أولئك المصريين ، وكان العراقيون يتصورون طبعًا أن كل مصرى سيفد على بلادهم: صحاب صنعة فهو سيخدم العراق بها أو غير صاحب صنعة فيستخدمونه هم فيما يحتاجون إليه من الخدمات ، ولم يخطر ببالهم أن هناك هذا المستوى من الصعاليك الذين خرجوا من مصر باحثين عن المال بأى طريق ، وقد اشتغل القليل جدًا منهم بأعمال النظافة والحمل فى المحطات وغيرها ، أما الباقى فقد وجدوا أن حرفة تجارة الفاكهة والخضراوات أكسب لهم ، فالواحد منهم يذهب إلى سوق الجملة ويشترى بضاعة يوم ، ثم يتخذ له ركنًا فى أى مكان من المدن ويجتهد فى بيعه

طول النهار ويكسب شيئًا لا بأس به من المال ، وكانوا أول الأمر يبيعون الأشياء بأسعارها المقررة.. وهى مكسبة ، ولكن الطمع وروح الصعلكة والجهل جعلتهم يتخطون الأسعار المقررة ، وما دامت هذه الزيادة معقولة فقد تركهم الناس ، ولكن الطمع والبعد عن التفكير فيما ينبغى أن يكون بين مصر والعراق جعلهم يتخطون المعقول حتى بلغ بعضهم درجة السرقة ، وأنكر الناس هناك ذلك ، ولكن نظرًا إلى أنهم كانوا محتاجين إليهم فقد تركوهم أو فاصلوهم ، ولكنهم كرهوهم ، ولم يمنعهم من استعمال العنف معهم إلا تعليمات حكومة العراق.

وتفكيرى هنا – كما هو فى كل مقالاتى وكتاباتى – يتركز فى مصر والمصريين وما ينفعهم ، وسواء أكان صاحبى العراقى قد التزم الحق فى كلامه أم لم يلتزمه – وهو الغالب – فقد وضعت يدى على لب الموضوع. وتفتحت أمامى سبل النصيحة والتوجيه.

وقلت: ألا توجد فى بلدنا وزارة قوى عاملة ووزارة هجرة ، وكلنا يعرف أن لدينا هاتين الوزارتين؟ ألم يبلغ المسئولين فى هاتين الوزارتين ما يفعله أولئك الناس هناك؟ والجواب: كان لابد مادام لنا ملحق أو مستشار عمالى فى السفارة ، فهل يا ترى لم يعرف أولئك الملحقون شيئًا عن أعمال أولئك الناس؟ ألم يشعروا بأن هذه التصرفات ليست من صالح مصر؟ وهل اجتهدوا فى إبلاغ وزاراتهم بذلك لكى تتخذ الإجراءات اللازمة للحيلولة دون سفر أولئك الناس إلى العراق وهم على هذه الحالة من الجهل والعجز عن معرفة ما ينفع مصر وما يضرها؟ وأنا لا أفكر هنا فى العراقيين ولكنى أفكر فى المصريين.

يبدو فعلاً أن هذا هو الذى حدث ولم تعرف الوزارتان شيئًا. ولهذا لم تتخذ أى من الوزارتين أى إجراء لحماية مصر من ضرر أولئك الناس بل يبدو أن أحدًا من رجال السفارة لم يفكر فى أنه ليس من الضرورى منع

الناس من السفر ، ولكن من الضرورى أن نعمل ما يعمله الفيليبينيون والكوريون والتايلانديون ، وهو إعداد أولئك الناس لكسب العيش الشريف خارج بلادهم ، وفى البلاد التى ذكرناها تقوم الحكومة بإعداد المهاجر لكسب عيشه فى الخارج بتعليمه حرفة وتثقيفه حتى يصل إلى مستوى خلقى وثقافى يحول بينه وبين التدهور.

وفى بعض هذه البلاد – مثل الفيليبين وكوريا – أنشئت شركات وظيفتها إعداد المواطنين للتصدير للخارج والعمل فيه. وفى بعض الأحيان كانت تلك الشركات تعد مواطنيها للعمل فى مشروعات كاملة ، فإذا احتاجت السعودية أو الكويت أو الإمارات ، إلى عمال بناء قامت هذه الشركات بالتقدم بعرض أطقما كاملة من العمال فهناك ، عمال بناء لأعمال الأساسات وآخرون لنجارة المسلح ثم آخرون لصب المسلح ، ومجموعات عمال للبناء والتسقيف ودورات المياه ومواسير الكهرباء والغاز ، ثم هناك متخصصون فى أعمال البياض وأعمال التغطية بالأخشاب وكل ما يتصل بالتشطيبات. والبلد العربى يوقع مع حكومات هذه البلاد أو الشركات فيها عقودًا شاملة تجمع كل من ستحتاج إليه من أولئك العمال وتحدد مرتباتهم. العمال يصلون إلى البلد العربى بالعدد المطلوب من كل تخصص من تخصصات البناء ، ولهم رئيس مسئول عنهم ، وهذا الرئيس لا يتقاضى من العمال شيئًا وإنما هو يحافظ على مستواهم وهذا أمر متعلق بسمعة البلاد ولا مفر منه ، وقد رأيت بنفسى فى الإمارات والسعودية مجموعات من أولئك العمال تعمل بنظام كامل ، بل رأيت رئيسهم – وهو عامل منهم – وعرفت منه أن له السلطة فى أن يعيد من لا يعجبه تصرفه منهم إلى بلاده بعد أن ينصحه ويوجهه ، وتأكدت من ذلك من الناحية السعودية. وهذا كله لا يكلف الفيليبين أو كوريا شيئًا ذا بال ، وإنما هم يطلبون إلى من يريد الهجرة للعمل أن يتصل بجهات معينة فى وزارة الهجرة أو وزارة

القوى العاملة ، وهذه لا تكلفه شيئًا ولا تطالبه بشيء ، وإنما هي تسأله عما يريد أن يعمل وهو يختار ؛ وهم يتولون إعداده في معاهد خاصة بتصدير المواطنين – إذا استقام هذا التعبير – والإعداد لا يستغرق أكثر من سنة على الأكثر ، وفي معظم الأحيان لا يتطلب إلا بضعة شهور تصل أحيانًا إلى أربعة أشهر ، بحسب نوع التخصص ، ولكل عمل أجره الذي يتوقف على نوع التخصص ، وهناك طبعًا فرق بين راتب من يعمل في الأساسات الميكانيكية أو غير الميكانيكية ومن يعمل في نجارة المسلح ومن يعمل في صب المسلح نفسه ، ولا يمكن لعامل أن يهاجر خارج البلاد إلا إذا مر بهذه المعاهد التي تقدر أيضًا مستواه وما يصلح له ، فهناك عمال لا يصلحون للبناء ولكنهم يستطيعون العمل بنجاح في صب المسلح. أما أن يهاجر المواطن من وطنه دون أي إعداد فمستحيل..

بل إن هذه الشركات تعد أطقم المرضات اللازمات للمستشفيات ، فتجد الطقم يضم ممرضات من كل نوع ومستوى: من ممرضات غرفة العمليات إلى ممرضات أعمال النظافة. والطقم يخرج من بلاده إلى مكان العمل بناء على عقد واحد ، ورئيسة المرضات هي التي تتولى الإشراف على حصول كل ممرضة على راتبها المدون في العقد. فهل من الصعب على وزارتي القوى العاملة والهجرة ، عندنا تطبيق هذا النظام على عمالنا الراغبين في الهجرة إلى الخارج؟ وماذا تعمل وزارة الهجرة والله إذا هي لم تقم بذلك محافظة على اسم مصر وعلى مستوى حياة أولئك المواطنين في الخارج؟ □

(٧)

لابد أن ننجو ببلادنا
من الأخطار العالمية القادمة

كلنا نقول – إننا نعيش فى عالم جديد، ولكن غالبيتنا تعيش فى عالمها القديم وكل منا يظن أنه يجدد والمسئولون عندنا يزعمون لنا أنهم يجددون حياتنا، ولكنهم من أحرص ما يكون على حياتنا القديمة لأنها صاحبة الفضل فى وصولهم إلى السلطان، ولو غيرنا حياتنا وجددناها لكان أول ما ينبغى علينا عمله هو أن نفهم أهل السلطان أننا نفهم اللعبة التى نعيش فيها، وأن الجهة الأولى التى ينبغى أن تتغير لتجدد حياتنا هى جهة السلطان، ولكن الذى وجدناه فى كل مرة غيرنا فيها نظام حكمنا وأتينا برجال سلطان وجدنا أن أهل السلطان الجدد أقرب ما يكونوا إلى الرياضيين وأنه لو كانت هناك ناحية تجدد ونريد أن تتجدد فهى الشعب وهى نحن لحم الوطن ودمه وعظمه.

وإذا كنا نعتبر ميخائيل جورباتشوف هو أكبر مجدد فى عصرنا، فقد حطم الشيوعية وأخرج روسيا من عالمها الشيوعى المهلك الذى كانت تعيش فيه وهدم النظام السياسى الذى كان يجعل خمس عشرة جمهورية مختلفة الأجناس تخضع لنظام واحد وضعه وسار عليه جوزيف ستالين وأرغم الناس على السير فيه.

وفى نظام ستالين هذا إذا كان هناك خصوم فلا سبيل إلى معاملتهم إلا بإعدامهم والخلاص منهم حتى أصبح نصف الدنيا يرتعد خوفاً من القيادة الشيوعية الغاشمة وخلف ستالين رؤساء على طرازه وإن زعم بعضهم أنهم يختلفون. ثم جاء جورباتشوف وقد نشأ نشأة شيوعية وسار فى طريق شيوعى، ولكنه أحس أن العالم الشيوعى يسير نحو كارثة لأن الاستبداد

بطبعه لا يمكن أن يعيش إلى الأبد فى أى مكان، وأحس جورباتشوف أن روسيا إذا استمرت كما هى فلابد أن يجئ يوم الانفجار لأن الناس يموتون من الجوع ومن الخوف، ولهذا فقد رأى أنه إذا كان ولابد من التغيير فلتقم به الدولة نفسها، وبالفعل أعلت التغيير ثم وصفه بأنه بيريسترويكا أى نظام متصل للتنفيذ، ورأينا كلنا أن الشيء الذى كان يتحاشاه هو العودة إلى الحرب الباردة مع أمريكا والغرب، وفرحت أمريكا بذلك ومدت يدها إلى جورباتشوف ووقفت الحرب الباردة فعلا، وبدأت الجمهوريات السوفيتية تعمل لتستقل عن سلطات روسيا، وإن لم يكن لديها مانع من أن تظل عضوًا فى الاتحاد السوفيتى، ومضى جورباتشوف يعمل بالتعاون مع الولايات المتحدة وأوروبا وإن كان قد رفض تمامًا ما اتجهت إليه بعض جمهوريات الاتحاد السوفيتى من الاستقلال التام عن روسيا وإنشاء نظام ديموقراطى مطلق، وهذا هو الذى دعت إليه ليتوانيا وغيره، وهنا وبينما كان جورباتشوف سائرًا فى طريقه بنجاح إذا بوزير خارجيته السابق شيفرنادزه يعلن فى ديسمبر ١٩٩٠م أن الاتحاد السوفيتى يسير نحو دكتاتورية جديدة، وقال إنه مستقيل لأنه غير موافق على السياسة التى يسير فيها جورباتشوف وإن كان موافقا على المبادئ وأعلن استقالته من الحكومة، ودهش جورباتشوف لذلك، وتألم وأنكر ذلك واختار وزير خارجية جديدًا، ولكنه فيما بينه وبين نفسه كان يعرف أن ما قاله شيفرنادزه كان صوابًا، ولكنه عرف أنه إذا لابد له من بناء الاتحاد السوفيتى الديموقراطى الجديد فلم يكن له بد من أن يسير فى سياسة استبدادية ، ولابد أن يكون دكتاتورًا خلال فترة بناء النظام الجديد.

والحقيقة أن أى إنسان لا يستطيع أن يحدث تغييرًا حاسمًا ويبنى نظامًا جديدًا إلا إذا سار فى طريق دكتاتورى، وجورباتشوف يعرف ذلك ويسير فى سياسة دكتاتورية وجورج بوش وكل مساعديه يعرفون ذلك،

ويبذلون كل جهدهم فى اجتذاب جوربا تشوف إلى صفهم، والشعب الروسى يعانى من أزمة اقتصادية وبعض جمهورياته تسير نحو الجوع، ولهذا فقد طلب جوربا تشوف أن يكون عضوًا فى الاجتماع السياسى والاقتصادى الذى سيعقده الغرب فى لندن فى يوليو القادم (١٩٩١م) وتترأسه الولايات المتحدة، وتشترك فيه كندا وانجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا واليابان، لأن بلاده فى حاجة فعليه للمال والمساعدة، ولكى يستجيب الغرب لطلبه تنازل عن أشياء كثيرة مما كان لينين وستالين بل – القياصرة – يتمسكون بها، والشعوب السوفيتية تعرف أن جوربا تشوف يحكم بطريقة دكتاتورية، ولكنهم يسلمون له بذلك ويخاصمون الجمهوريات السوفيتية التى تعادى روسيا وتعلن استقلالها عنها مثل لتوانيا، والكتلة الغربية. لا تتدخل فى هذا الموضوع لأنها لو تدخلت فى استقلال الجمهوريات الصغيرة لتعرض جوربا تشوف لمتاعب كثيرة وربما أدى الأمر فى النهاية إلى سقوط جوربا تشوف وعودة الشيوعية إلى ما كانت عليه.

والحقيقة أننا لا نعرف حقيقية النظام الذى يحكم الدنيا اليوم، كل ما نستطيع أن نقوله هو أن تجتهد كل أمة من أممنا فى أن تعيش فى المستوى المناسب لها من الحرية والحزم الاقتصادى. وقد تناول ذلك الموضوع الدكتور مصطفى محمود فى واحد من أواخر كتبه الصغيرة البالغة العمق والشمول وهو كتاب (قراءة للمستقبل) وسأقتبس لك منه الفقرة التالية:

قال بعد أن تحدث عن صراع الرأسمالية والشيوعية:

(ورأينا اللقاء بين الفكر الشيوعى وبين المناخ المتخلف فى دول العالم الثالث يفرز زعامات مستبدة تغمر شعوب أمريكا اللاتينية ودول أفريقيا وأوروبا الشرقية بنظم قمعية بوليسية تصنع بدورها دوامات من الفساد

والإرهاب ثم رأيناها تتساقط واحدة بعد أخرى ما بقى من اراجوزات الاشتراكية انتهى عمره الافتراضى، وهو فى طريقه إلى الزوال وآخرها أراجوز كوبا بابا كاسترو العجوز الذى أصبحت خطبه نكته)

وهذا كلام طيب وحق، وقد رأينا من حين قريب اثنين من هؤلاء الأراجوزات فى شرق أفريقيا يسقطان. وكل منهما كان يسعى قاصدا أو غير قاصد إلى أذانا نحن المصريين، أحدهما محمد سياد برى رئيس الصومال المستبد الذى حاولنا جهدنا إصلاحه وتسييره فى الطريق العربى السليم بعد أن دخل الصومال الجامعة العربية، وكان هذا الرجل قد انتصر من أكثر من عشر سنوات وانتزع إقليم أوجادين من الحبشة، ولكنه أساء التصرف بعد ذلك ففقد أوجادين ودخل بالصومال فى فوضى استبدادية انتهت بتحزب المعارضة عليه وطرده من البلاد وإقامة نظام جديد، وكانت الفوضى التى حكم بها قد ادخلت الصومال فى اضطراب شديد لا يعرف معه النظام الذى خلفه كيف يحكم، والثانى هو منجستو هيلا مريم رئيس الحبشة الذى سلك مسلكًا استبداديًا فى الحبشة وقتل من أهلها ألوفا بعد ألوف، وبذل أقصى جهده لكى يقضى على كل أمل للاستقلال فى بلادنا أريتريا الإسلامية، واستبد بإقليم تيجرى وتدخل فى شئون السودان وشجع الثائرين فى جنوبه، وفاته أن الحبشة نفسها من أفقر بلاد أفريقيا وأكثرها تخلفا، وقد استعان بإسرائيل وبلاد الشرق الأوروبى لكى يجعل من الحبشة إمبراطورية مستبدة، ولكن الحقيقة تأبى إلا أن تظهر فى النهاية فتجمع عليه أعداؤه وقادها رجال أريتريا وهاجموه وأسقطوه وهرب من بلاده هروب المجرم الذى يخاف على حياته ولو أن محمد سياد برى حكم شعب الصومال حكمًا إنسانيًا تعاونيًا لما سقط وكذلك منجستو هيلا مريم الذى تبين بعد هربه أنه كان من أكبر الدكتاتوريين استبدادا وظلما حتى أنه أعدم الألوف، وهذه هى النتيجة.

والحقيقة هى أن تجارب التاريخ دلت على أن الدكتاتوريين من أغبى الحكام، لأن الحاكم الذكى يحكم بالعقل. ولا يخاف المناقشة وقد ينجح وقد يفشل ولكنه يظل رجلا محترما ورجلاً عاقلاً، أما الدكتاتور المستبد فيخاف من العقل، ولهذا يلجأ إلى تدبير قتل خصومه الذين ينافسونه ويحاولون أن يثبتوا له أنهم على حق، والواحد من أولئك المستبدين إذا بدأ فى القتل سار فيه دون إنسانية أو حياء، فهو يقتل ويقتل، وقد عرفنا أن تشاوشيسكو رئيس رومانيا الأسبق كان قتالاً ومجرمًا لا يستحى، وقد قتل عشرات الألوف وكذلك منجستو هيلا مريم ومحمد سياد برى، ورغم استمرارهم فى القتل فقد وجدوا أنفسهم فى النهاية أمام ثورة الشعب وأن حياتهم أصبحت فى الميزان فقتل منهم من تمكن الشعب من رقبته مثل شاوشيسكو وهرب من استطاع الهرب مثل سياد برى ومنجستو هيلا مريم، فأضافوا إلى الوقاحة وقلة الحياء الجبن والخوف وأصبحوا عارا على الإنسانية، ونحن نقول إن الاستبداد لا يمكن أن يؤدى إلى خير. وإذا لم يكن للشعب صوت فإن الحكم أكثر من عشر سنوات خطأ بالغ، فإن الله لم يخلق إنسانا يصيب فى قراراته أكثر من عشر سنوات، أما الحاكم العاقل الديمقراطى فيمكنه أن يحكم أى مدة يديرها شعبه، لأن الشعب هو الذى يملى عليه قراراته وهى التى تصدر بها المراسيم، وإذا أراد الشعب منه أن يتخلى عن الحكم تخلى ويندر أن تنتهى حياة الحاكم الديمقراطى العادل نهاية مأساوية ونحن الذين ندرس السياسة ورجالها لكى نكتب تاريخ البشر ندهش من أن هناك دائما ناسًا يسعون إلى الاستبداد بالحكم رغم ما فى الاستبداد من تعاسة للحاكم والمحكوم، ويكفى أن يكون هناك رجال مثل صدام حسين الذى اقترف جريمة فى حق العرب عندما اعتدى على الكويت، وكنا نستمع إلى إذاعاته أيام كان يحتل الكويت ونسمعه يقول إنه قدم بذلك خدمة للعراق وزعم أنه استكمل أرضه باحتلال الكويت واستعاد له ما سماه بالمحافظة التاسعة عشرة، وبطبيعة الحال كان هناك عراقيون يحبون هذا الكلام ويقبلون عليه، وكان صدام يعرف ذلك ويمضى

فى استبداده وبشاعة حكمه لشعب الكويت، ولكن ها هو ذا اليوم قد انهزم وتحرر منه الكويت، وقد قتل فى هذه المعركة ٢٥٠ ألفا من جنود العراق وألوفا من المدنيين، ولم يقتصر الأمر على تحرر الكويت بل إن الأكراد أيضًا حصلوا على نصيب كبير من الاستقلال، وقوات الحلفاء مقيمة على أرض العراق وهى تتصرف فيه كما تريد. ولكن صدام ما زال هناك رغم هزيمته والعار الذى جلبه إلى وطنه والألوف من العراقيين الذين ماتوا بسببه لأنه فى الحقيقة رجل لا يستحى، وسينتهى أمره بالقتل، وهذا هو العلاج الوحيد لمصيبته وما دام قد عاش بالقتل فسينتهى أيضا بالقتل.

ولكن عدوانه أخاف جيرانه وجعلهم اليوم يتخذون إجراءات تؤمنهم من عدوانه، ولجأوا إلى الغرب، وهذا فى ذاته ضرر بليغ أصاب العالم العربى، فقد أصبحنا اليوم نرى قوات أجنبية على أراضينا برضانا، وقد أحسنت مصر صنعا أن سحبت قواتها من السعودية بعد أن أحست أن حكومة الكويت لا تقدر جهودها، لأن مصر التى تشعر دائمًا بكرامة العرب، وتدافع عنهم لا ترضى – بعد أن قامت بدور حاسم فى تحرير الكويت – أن تكون قواتها اقل فى نظر حكومة الكويت من القوات الأجنبية على الأرض العربية، ولا يعلم إلا الله كيف سيكون تاريخ العرب فى المستقبل القريب والبعيد لأن الأجانب هو الذين يضمنون سلامة البلاد العربية من العدوان العراقى، ولكن يكفينا أننا فى مصر مستقلون فى بلادنا ومستعدون دائما لمعاونة أى بلد عربى يصيبه شر.

ولكن الأمر الذى استوقف اهتمامى هو موت راجيف غاندى رئيس وزراء الهند الأسبق (١٩٤٤م – ١٩٩١م) وكان قد نجح فى الاقتراب من الحكم مرة أخرى وخرجت جماهير الهند تحييه فى طوافه بنواحيها. وعندما كان قرب مدارس خرجت الألوف تحييه واخترقت الصفوف امرأة لتقدم إليه باقة زهر وقدمتها إليه وانحنت وهنا انفجرت المرأة فقد كانت قد أحاطت وسطها بحزام من المتفجرات وتطايرت المرأة أشلاء ولكن وجهها بقى

سليما، ولكن راجيف غاندى سقط على الأرض فى بحيرة من الدماء، وهكذا أصبحت الهند – ٨٤٤ مليون إنسانا – من غير قيادة ومن غير مستقبل معروف، وكان غاندى قد ورث رياسة وزارة الهند عن أمه التى قتلت مثله وأمه ورثته عن زعيم الهند جواهر لال نهرو وعاشت الهند بفضل هذه الأسرة نحو تسعين سنة من الاستقرار والتقدم، ولم يكن أحد يتوقع أن يلقى راجيف غاندى هذه الميتة فى هذا المكان والوقت، فمن تكون هذه المرأة التى انتحرت على هذا الأسلوب البشع. قتلت نفسها أسوأ قتلة لكى تحطم راجيف غاندى، لقد كتبت بعض الصحف تقول إن هذه الجريمة ليست سياسية وإن الذى دفع هذه المرأة إلى ذلك العمل هو دافع فردى، وفى هذه الحالة لا يكون إلا دافعا غراميا، وقالت بعض الصحف إنه لابد أن هذه المرأة كانت على علاقة براجيف ثم انصرف عنها ووجدت نفسها وحيدة مهجورة فى الدنيا وكان لابد من أن تموت وفكرت فى أن تموت ومعها غريمها وسنعرف القصة فى يوم من الأيام، فإن الأسرار كلها تتكشف، ولكن الهند تعانى من دين مخيف وابتعاد عن الطريق الإنسانى وتهدد بلاد السيخ والباكستان وتتعرض الآن لأسوأ الأخطار وإذا تعرضت الهند للأخطار فنحن أيضًا وبقية العالم نتعرض للأخطار فإن ٨٤٤ مليون إنسان ليسوا بالشىء القليل، وقد قال ناتوا سيخ وكان نائبًا لرئيس الوزراء فى حكومة راجيف غاندى السابقة هل هذا هو ما انتهت إليه الهند من اتباعها لحكمة بوذا وآراء المهاتما غاندى؟ لقد كنا مثالاً بين دول العالم وها نحن أولاء أصبحنا محنة.

لقد كان راجيف مختلفًا كل الاختلاف عن أمه التى كانت مستبدة غاشمة وكان مختلفا عن جده جواهر لال نهرو الذى كان سياسيًا محنكًا، وقد حكم الهند فترة طويلة، ولكنه كان ينطوى على شر كبير لجيرانه فى الباكستان وبلاد السيخ، بل يقال أن راجيف لم يكن يحب السياسة ولم يكن فى حسابه أن يدخل السياسة لأنه كان سعيدًا بامرأته الإيطالية الأصل سونيا وابنيه منها.

(٨)

نحن العرب فى خطر شديد
ولابد أن تصفوا قلوب بعضنا لبعض*

فى هذا الفصل أتحدث عن منطقتنا هذا الجزء من العالم المسير المتحير الذى أتعسه الحظ بقيام دولة غريبة مفترسة على أرضه هى إسرائيل التى لن تستريح أبدا، وإسرائيل تعتقد أنها لن تستريح إلا إذا قضت على كل قوة وسلطان للعرب فى المنطقة، وحيث أن هذا غير ممكن فإنه يبدو أن إسرائيل لن تسكن إلا إذا تحطمت وزالت كل أسلحتها المخربة، وهنا تختفى إسرائيل من المنطقة تماما، وهذا تصور يبدو مستحيلاً، ولكنه هو الذى سيحدث بعد عمر طويل لأن الأمور لابد أن تعود دائمًا إلى حالتها الطبيعية والحالة الطبيعية لمنطقتنا هى أنها منطقة عربية هى وطن العرب ولا وطن للعرب إلا هذه المنطقة. أما الإسرائيليون فإن الدنيا كلها وطنهم وهم يعشقون البلد القوى ويلصقون أنفسهم به . فمن خمسين سنة كانوا خدمًا للإنجليز أيام أن كان الإنجليز سادة الدنيا واليوم يلصقون أنفسهم بالولايات المتحدة لأنها أقوى دولة فى الدنيا.

وقبل أن أمضى فى هذا الفضل احب أن أصحح خطأ شائعًا نقع فيه وهو أننا نقول المنطقة بفتح الميم وكسر الطاء والصحيح (المنطقة) بكسر الميم وفتح الطاء لأن المنطقة بفتح الميم وكسر الطاء هى كيان الرجل وقلبه وهناك أغنية عامية تقول:

خدنى فى جيبك بقى
بين الحزام والمنطقة

---

* نشرت هذه المقالة فى ٧ يوليو ١٩٩١م .

وبعد فمنطقتنا التى تتحدث عنها هنا وطن العرب؛ وبهذا كانت تسمى قبل أن تغرس إسرائيل نفسها فيه وتحاول إفساد كيانه، ومن سوء الحظ أن الوطن العربى مقسم إلى دول ودويلات كثيرة وبعض هذه الدول أقامها رجال لحساب أنفسهم، وقد أنشأ كل منهم دولة لحسابه فى جزء من الوطن العربى، وأصبح همه حماية سلطانه فى منطقته ولو استعان فى ذلك بدول أجنبية وهذا الانقسام هو نقطة الضعف الكبرى فى كياننا العربى، وخاصة بعد أن تبين أن الكثير من أقاليم الوطن العربى تسبح على بحر من البترول والبترول هو القوة الكبرى فى عالم اليوم. فكل شىء فى حياتنا المعاصرة والمستقبلة يقوم على البترول، وأمريكا عندما تدخلت عسكريا فى المنطقة لتحرر الكويت لم تكن تهتم بشعب الكويت أو حقوق أهله، وإنما هى تعرف أن ١٠٪ من بترول العالم يقوم تحت الكويت، وتحت أرض العراق يجرى ٣٠٪ من بترول الأرض، فالعراق يصبح بذلك مالكًا لأربعين فى المائة من بترول الدنيا، واتضح بعد ذلك ان صدام حسين بجشعه الذى لا يوصف كان ينوى أن يستولى على شبه جزيرة العرب كلها وفيها نحو أربعين فى المائة من بترول الدنيا أى أن العراق سيصبح مالكًا لثمانين فى المائة، ويصبح بذلك أقوى دولة فى الدنيا وأكبر منافس للولايات المتحدة، ولهذا فقد سارعت لتقصف رقبته وتحول بينه وبين ما يريد، وقد نجحت فى ذلك فعلاً والعراق اليوم أرضه مفتوحة للولايات المتحدة وحلفائها ولم يعد دولة مستقلة ذات سيادة، وشماله بالذات حيث يعيش الأكراد يجتهد فى أن يكون دولة مستقلة عاصمتها كركوك أو السليمانية، وتملك بذلك نسبة عالية من بترول العراق.

هذا الانقسام إلى دول ودويلات كثيرة نقطة الضعف الأولى فى كياننا نحن العرب، ولو كنا دولة واحدة مثل الصين مثلاً لكان لنا فى الدنيا شأن آخر، ولكن أنقسامنا إلى دولة ودويلات أصبح جزءًا من كياننا وهو أساس ضعفنا، ويكفى أن نرى كيف أن شبه جزيرة العرب باستثناء اليمن تنقسم إلى ست دول دولة واحدة منها لها كيان ولحم وعظم وهى السعودية،

أما دول الخليج فإذا استثنينا عمان فإن الباقى دول أشخاص أقاموا دولاً أعطوها اسمهم ووضعوا أيديهم على ما فيها من بترول مع أن أحدًا منهم لم يكتشف بئر بترول ولكنهم أصبحوا أمراء أغنياء ينفقون جزءا ضئيلا من إيراد البترول الضخم الذى يجيئهم على شعوب البلاد التى أنشأوها يحتفظون بالباقى فى بنوك الدنيا، وهم دون شك من أغنى أهل الدنيا، ولكنهم أضعف من أن يدافعوا عن أراضيهم، وواحدة من كبار دول الخليج وهى الكويت ضاعت وأكلتها العراق فى ساعات، وقد تبين أنها كانت تملك أسلحة عظيمة من كل نوع، ولكن الأسلحة وحدها لا تدافع لابد من الناس وحكام الكويت لم يمرنوا الشعب على استعمال الأسلحة وبعد أن حررها الحلفاء – ومن بينهم مصر – واستردوا من العراقيين المنهزمين بعض السلاح نهض شعب الكويت، وتعلم استعمال الأسلحة واشترك فى معركة تحرير بلاده واتضح أنه شعب شهم قوى استطاع فعلاً أن ينزل بالعراقيين ضربات عنيفة. وعندما عادت الأسرة الحاكمة إلى الكويت الحرة وقف هذا الشعب يطالب بنظام سياسى جديد يشترك فيه الشعب فى حكم البلاد، والأمراء لا يمانعون فى ذلك، ولا شك أننا سنرى فى القريب كويت أخرى ديمقراطية حقًا. يعيش شعبها فى حرية ولا يمكن العدوان عليها بالسهولة التى تم بها العدوان العراقى الماضى، وتستطيع أن تقول إن كل بلاد الخليج ستبنى نفسها من جديد وستكون شعوبها قوية حرة مشتركة مع العالم الحر فى نواحى الدنيا فى بناء الدنيا.

ولكن هذه ليست المشكلة الرئيسية التى ينبغى أن تعالجها بلاد اتحاد الخليج، فإن مشكلة البلاد العربية التى تجعلها دائمًا دولا ضعيفة هى عدم إحساس أهلها بأن قوة العرب الحقيقية هى فى اتحاد بلادهم بعضها مع بعض، وزوال عناصر العداوة أو سوء الظن على الأقل الذى يقوم بينها، ويكفى أن نذكر أن الكويت بعد أن استقلت اتجهت بالشكر وعرفان الجميل إلى الولايات المتحدة وحلفائها، ولم توجه لمصر إلا أقل الشكر مع أن مصر هى التى قامت بالمعركة الرئيسية مع العراقيين لتحرير الكويت،

حقيقة أن الأمريكيين كانوا قد حطموا أسلحة العراق الخطيرة وقضوا على صواريخها، ولكن الحروب لا تدور إلا على الأرض ومعارك التحرير لا يقوم بها إلا الرجال، وقد انسحبت مصر من الكويت وقالت: لقد ذهبنا إلى هناك للاشتراك فى تحرير الكويت. ومادامت الكويت قد تحررت فنحن نعود إلى بلادنا، وبعد العودة شعر أمراء الكويت أنهم لم يحسنوا إلى أبناء عمومتهم أهل مصر فأقبلوا يصلحون الأمور والعلاقات، وقد صلحت العلاقات، ولكننا نرجو أن يكون هذا درسا للكويت والعرب، لأن قوة العرب لا توجد إلا فى قلوب العرب. ولا يمكن أن يكون هناك عالم عربى قوى إلا إذا صفت القلوب. واتحدت الأفئدة وتكون عالم عربى متحد، وليس من الضرورى أن يكون الاتحاد سياسيًا، ولكن يكفى أن يكون اتحاد قلوب كهذا الذى يقوم بين مصر والسعودية، لأنهما فى الحقيقة قلب العالم العربى، واتحادهما على أى صورة من صور الاتحاد هو الذى يضمن لهما ولبقية البلاد العربية السلامة من شر إسرائيل، والآن وقد استقلا أريتريا ورجعت الحبشة إلى حدودها الطبيعية، ولم تعد تملك المساحة التى كانت تملكها من سواحل البحر الأحمر يتحول هذا البحر إلى بحيرة إسلامية، لأن البحر الأحمر ما هو إلا ممر مائى ضيق يشق الأرض العربية من باب المندب إلى السويس، ولابد من أن يكون هناك حلف قوى بين مصر والسعودية فهما تملكان الوسائل العلمية والمالية التى تبنى قوة كافية للحماية من إسرائيل، وقوة إسرائيل تأتى من الولايات المتحدة، ولكن الولايات المتحدة لا ترضى عن إسرائيل العدوانى، ونرجو أن توفق إلى مساعدة دول المنطقة على عقد اتفاق سلام يضمن سلامة كل بلادها، وكانت إسرائيل فى الماضى تخشى الولايات المتحدة، ولكنها اليوم لا تخشاها، لأن لديها من الأسلحة ما يمكن لها من سيادة المنطقة والاحتفاظ بالأراضى التى احتلتها بعد حرب ١٩٦٧م وإليك خبرًا وتعليقًا سياسيًا نشرته الأهرام يوم الجمعة ٧ يونيو ١٩٩١م وسأنشرهما كاملين لأن كل كلمة فيهما لها معنى بالنسبة لمنطقتنا وسلامتها يقول الخبر:

(أبلغ ريتشارد تشينى وزير الدفاع الأمريكى البيت الأبيض – عقب عودته من جولته الأخيرة بالشرق الأوسط – ردود الرئيس حسنى مبارك ووزيرى الخارجية والدفاع (المصريين) على المبادرة التى أعلنها الرئيس جورج بوش بخفض سباق التسلح فى الشرق الأوسط، وما أعربت عنه مصر من قلق لاحتفاظ إسرائيل بالأسلحة النووية. فى الوقت نفسه اعترف إسحاق رابين وزير الدفاع الإسرائيلى السابق بأن بلاده تمتلك أسلحة نووية وأسلحة دمار شامل قادرة على أية دولة. وقال إنه يتعين على الجيش الإسرائيلى أن يظل هجوميا بكل ما فى الكلمة من معنى، وقادرًا على نقل المعركة إلى أراضى الخصم بكل الوسائل. وقال رابين فى محاضرة ألقاها بجامعة حيفا ونقل راديو إسرائيل جانبا منها. إن الجيش الإسرائيلى الهجومى هو الذى يحقق الردع ويقرر مصير المعركة، وإن عامل الردع يعتمد على بقاء القوات الإسرائيلية الأقوى والأفضل تسليحًا بالمنطقة، كما أشار رابين إلى أن كل الحروب التى خاضها الجيش الإسرائيلى لم تفلح فى جر العرب إلى التفاوض وتوقيع اتفاقيات سلام. وفى محاولة لشرح الموقف الأمريكى من امتلاك إسرائيل للأسلحة النووية أعلن بول وولفتيز وكيل وزارة الدفاع الأمريكية فى مؤتمر صحفى أن الولايات المتحدة تحث إسرائيل دائما على التوقيع على المعاهدة الدولية لحظر انتشار الأسلحة النووية، وأن الحكومة الأمريكية تود أن ترى جميع الدول فى المنطقة، وقد وقعت هذه المعاهدة وأضاف المسئول الأمريكى أنه لا يمكن الانتظار حتى تتساوى دول الشرق الأوسط فى امتلاك الأسلحة النووية قبل أن يصبح ممكنا التفاؤل حول تخفيضها وأكد وكيل وزارة الدفاع الأمريكى أن الوضع فى الشرق الأوسط سيىء إلى الحد الذى يتطلب العمل على تجميده على ما هو عليه الآن. والبدء فى العمل للوصول إلى نزع أسلحة الدمار فى المنطقة. وقال إن الولايات المتحدة لا تؤيد احتفاظ أحد (فى المنطقة) بالأسلحة النووية، بل إنها تعتقد أن جميع الأطراف يجب عليها التخلى عن الأسلحة الكيمياوية والبيولوجية. لأنه ليس هناك سبب لأن يحتفظ أحد بهذه الأسلحة والقدرات التدميرية.

وهذا الكلام يدل حقيقة على أننا فعلاً نواجه خطرًا جسيمًا جدًا من ناحية إسرائيل، فهى كما قال رابين وزير دفاعها السابق تملك أسلحة كافية لإبادة أية دولة، والعامل الرئيسى وراء ذلك هو أن إسرائيل منذ أنشئت وهى تعد نفسها للقضاء على كل دول منطقتنا لأنها تعرف أن العالم كله لا يريدها، وقد دلت تجارب التاريخ على أن اليهود لا يفكرون فى الصداقة مع أى شعب، بل إنهم معادون للإنسانية كلها، وقد ساعدتهم بريطانيا وألمانيا وفرنسا فى بداية إنشائهم دولتهم، ولكنهم تبينوا أن معاونة اليهود لا تجئ إلا بالشر، فتوقفوا عن ذلك، فاتجهت بكل قواها الى كسب الولايات المتحدة ناحيتها معتمدة على وجود الكثيرين من اليهود فيها، وتمكنهم من احتلال الكثير من مراكز العلم والسلطة فى أمريكا، وقد وفق اليهود فى بناء مركز كبير لهم فى الولايات المتحدة، ولم يحاولوا استخدام هذا المركز فى تقوية مركزهم الحضارى فى بلادنا بل اتجهوا من أول الأمر إلى بناء سلاح خطر قادر على إزالة أية دولة تعارضهم كما رأيت فى الفقرة التى نقلناها عن الأهرام، فأقامت مراكز سلاح نووى وكيمياوى، وبيولوجى ووقفت موقف العداء من كل دول المنطقة لأن اليهود حقيقة لا يعرفون الصداقة ولا يمكن أن يعيشوا بسلام مع الآخرين، ومن سوء حظنا أننا الآن نواجههم ونتعرض للهلاك على أيديهم، ولكن الانتفاضة ألحقت بهم أذى شديدا لأنها اضطرتهم إلى استعمال قواهم العسكرية للقضاء على كل محاولة اعتراض عليها فى المنطقة، ومن الواضح أن الفلسطينيين كشعب فى غاية القوة وأنهم لو تركوا فى مواجهة إسرائيل لتخلصوا منها أو أضعفوها، وهم هنا أقوى بكثير من رياستهم التقليدية فى منظمة التحرير الفلسطينية وقد ثبت الآن أن ياسر عرفات وأمثاله هو طراز الزعماء الذين تستريح إليهم إسرائيل، لأنهم يتكلمون ولا يعملون شيئا، وها هى ذى منظمة التحرير فى مواجهة إسرائيل أكثر من ثلاثين عامًا فماذا فعلت؟ لا شيء بل إن صدام حسين الذى بنى قوة عسكرية هائلة لم يفكر فى توجيه هذه القوة إلى إسرائيل فلو أنه توجه إلى حرب إسرائيل لألحق بها

ضررا بالغا، ولكنه بدلاً من ذلك اتجه إلى القضاء على شعب عربى هو شعب الكويت، وكان ينوى مهاجمة بقية بلاد شبه الجزيرة وبناء إمبراطورية عراقية، ثم يواجه إسرائيل بعد ذلك، ولكنه كما قلنا أكثر من مرة لا يفهم الكثير فى السياسة وأنه لا يعرف أن إسرائيل لن تنتظر حتى يكمل حلمه فى بناء الإمبراطورية العراقية، وأنها لابد أن تقف فى طريقه، وعندما وجدت إسرائيل الولايات المتحدة تقضى على القوة العسكرية للعراق اقتنعت بذلك رغم أن العراق هاجمها أكثر من مرة. وهنا وفى الوقت الذى تعرض العالم العربى فيه لأكبر الأخطار على يد العراق، يجرى ياسر عرفات إلى العراق ويعانق صدام من اليمين والشمال، ويعلن أنه معه لأن صدام فى أثناء المعركة مع الأمريكيين وحلفائهم وعد ياسر عرفات بأن يعطيه الكويت كما وعد رئيس اليمن بأن يعطيه جيزان ونجران من بلاد السعودية فاضطرب تفكير رئيس اليمن على عبد الله صالح وانضم إلى صدام، أى أن العالم العربى انقسم على نفسه ودخلنا فى معركة من معارك الصراع العربى الكثيرة التى دارت فى بلادنا وأخرتنا كثيرًا.

والحقيقة أن إسرائيل – رغم ضخامة الأسلحة التى تملكها رغم الكلام الكثير الذى تقوله – تشعر بخوف من العرب وتجتهد فى القضاء على كل عناصر القوة عندهم، ونحن المصريين عندما التقينا مع الإسرائيليين فى معركة التحرير سنة ١٩٧٣م عرفنا أنهم لا يصبرون على الحرب الحقيقية إذا قامت فى وجوههم، ولا شك أننا نحن العرب إذا اتحدنا على أى صورة من صور الاتحاد فإننا دون شك سنقضى على إسرائيل أو سنقضى على خطرها على الأقل.

وأمريكا ترى الآن أنها تخطئ فى تقوية إسرائيل لأن إسرائيل بعد أن بنت قوة عسكرية خطيرة اصبحت الآن لا تخاف من أمريكا، ولا شك فى أن جورج بوش يرى الآن أن الخطر الأكبر الذى يهدد سياسة أمريكا فى الشرق الأوسط هو خطر إسرائيل وأن العرب مستعدون لصداقتها إذا هم

اطمأنوا إلى أنها نفضت يدها من إسرائيل، ولكن السياسة الأمريكية معقدة جدا ورئيس الولايات المتحدة إذا أراد أن يكسر قوة بلد مثل إسرائيل فهو لا يستطيع إلا بعد زمن طويل وبعد تخطى عقبات سياسية ضخمة داخل أمريكا نفسها بسبب القوة التى بناها الإسرائيليون هناك، وهذا هو الذى يواجهه جورج بوش الآن كما ترى، وقد نشرت مجلة تايم فى عددها الصادر فى ١٠ يونيو ١٩٩١م تعليقاً خطيراً يكشف عن كثير من الأسرار الأمريكية بأسلوب سياسى غامض، ولكن هذا التعليق يدل على ضيق أمريكا بإسرائيل وحيرة بوش ورجاله أمام خطرها، وهذا التعليق يقول: إن الرئيس بوش غير ناجح فى محاولاته جمع العرب واليهود إلى مائدة تفاوض، وقد دعا بوش الأسبوع الماضى إلى محاولة جديدة لتنفيذ خطته، وذلك فى مدخل خطبة ألقاها فى أكاديمية سلاح الطيران الأمريكى، فنادى دول الشرق الأوسط جميعا إلى تجميد قواتهم الكيميائية والبيولوجية وتجميد محاولاتهم الحصول على صواريخ وأسلحة نووية. وقال بوش إن الأسلحة التقليدية مثل الطائرات والدبابات والمدفعية التى تغرق المنطقة باستمرار ينبغى أن توقف إذا كانت تؤدى إلى إقلال الأمن، وأضاف بوش: إن الولايات المتحدة تؤيد كل بلد من بلاد المنطقة فى الحصول على ما يضمن سلامته منها. ودعا الرئيس بوش البلاد الأوروبية والغربية التى تبيع هذه الأسلحة للمنطقة، وهى الاتحاد السوفيتى وإنجلترا وفرنسا والصين إلى أن تعقد اجتماعات فى باريس خلال الأسابيع القادمة لتتدارس هذا الموضوع، على الرغم من أن أحدًا منها لم يحدد موعدًا أو جدول أعمال لمثل هذه الاجتماعات، ومن الممكن أن تبدأ بعقد الاجتماعات لوضع سياسة اختيارية لهذه السياسة، ولو أن الأوضاع فى المنطقة تدل على أننا بحاجة إلى أكثر من اجتماعات استشارية لأن إسرائيل وهى البلد الوحيد فى المنطقة الذى يملك أسلحة نووية ستجد نفسها هى المقصودة بهذه الاجتماعات، وهى ترى أنه ينبغى أن تبدأ الاجتماعات بإدخال تعديلات وتحديدات على امتلاك الأسلحة التقليدية، وإسرائيل تعرف أن البلاد العربية متفوقة عليها

فى هذا المجال. وقد رفض الاتحاد السوفيتى والصين الاشتراك فى هذه الاجتماعات لأنهما البلدان اللذان يوجهان أكبر قدر من الأسلحة التقليدية إلى المنطقة فى حين أن فرانسوا ميتران وجون ميجر رئيس وزراء بريطانيا أعلنا. أنهما مستعدان لحضور هذه الاجتماعات.

ولكننا لا ينبغى أن نظن أن أمريكا تتخلى الآن عن إسرائيل فإن الواقع هو أن السنوات الطويلة الماضية التى وقفت فيها الولايات المتحدة إلى جانب إسرائيل جعلت إسرائيل جزءا من قوة أمريكا فى الشرق الأوسط، وقد قالت مجلة تايم فى الفقرة التى نتابعها الآن أن وزير الدفاع الأمريكى ديك تشينى أبلغ الحكومة الإسرائيلية أن واشنطون ستتحمل الجانب الأكبر من نفقات تسليح إسرائيل بالصواريخ الجديدة، وقد أعطت الولايات المتحدة لإسرائيل عشرة فى المائة من تكاليف الطائرات المقاتلة ف ١٥ التى تستعملها إسرائيل وأن الولايات المتحدة تحرص على أن تحتفظ إسرائيل بتفوقها فى السلاح. وقد وعدت إسرائيل بأن تسمح للولايات المتحدة باستخدام الأسلحة التى تعطيها لها إذا لزم الأمر، وتتفاوض الولايات المتحدة مع بقية بلاد المنطقة فى أن تسمح للولايات المتحدة مع بقية بلاد المنطقة فى أن تسمح للولايات المتحدة باستخدام الأسلحة التى تعطيها لها.

والمهم فى نهاية هذا الفصل أن نرى أن بلادنا فى خطر فعلاً من جانب إسرائيل، وأننا الآن فى أشد الحاجة بعضنا إلى بعض حتى نسلم من ذلك الخطر، أما أن نقع فى أخطاء بشعة مثل ما وقع فيه العراق عندما اعتدى على الكويت فهذه جريمة خطرة تهدد مستقبلنا بأشد الأخطار.

(٩)

نصر أكتوبر ١٩٧٣م
ومكانه فى تاريخ مصر العام*

كانوا يقولون لنا ونحن صغار إن المصرى لا يستطيع الحرب ولا يثبت فى ميدانها، وكان ذلك فى عصر الاحتلال الإنجليزى، وكان الإنجليز يحرصون على الهبوط بقدر مصر، حتى أننى ذات مرة، وكنا فى مدرسة الخديو إسماعيل (الدواوين اليوم) سمعت المدرس الإنجليزى يقول: والشعب المصرى بطبعه شعب مسالم جبان، فوقفت وقلت:

هذا كلام لا يقوله إلا عدو لشعب مصر، وهل أنتم التقيتم معنا فى معركة وتبينتم أننا جبناء؟ فنظر إلىّ طويلاً ثم قال: وماذا يضايقك فى ذلك؟ هذا أحسن لكم لأننا نحن الإنجليز نحميكم،

قلت: نحن يا سيدى لا نريد حمايتكم ولو التقينا معكم فى معركة لهزمناكم، فطردنى من الفصل؟ وكان ناظر المدرسة واسمه حامد محمود دائم التجوال فى المدرسة، فمر بى وقال: لى: ماذا تفعل هنا ياولد؟

فحكيت له القصة، ففتح الباب وقال للمدرس الإنجليزى: هذا التلميذ يقول لى كيت وكيت فهل هذا صحيح؟ فقال الرجل الإنجليزى: أجل هذا صحيح، وهى حقيقة، فقال له الناظر: لا يا سيدى هذه ليست حقيقة، والولد عنده حق، ودخلت وجلست، والفصل صفق للناظر ولى، والمدرس الإنجليزى واسمه رافرتى خرج من الفصل طريدًا ولم نعد نراه فى المدرسة بعد ذلك، والناظر استدعانى خارج الفصل وقال لى: عفارم عليك! ولكن لا داعى لهذه الشقاوة كل يوم لأنهم سادة التعليم فى القصور الملكية، وكانت مدرستنا تابعة للخاصة الملكية.

---

* نشرت هذه المقالة فى ٦ أكتوبر ١٩٩١م.

وكان وقوف الجيش مع الملك من أكثر ما يؤلمنا: لأن الجيش بالنسبة للمواطن عنوان قوة ووطنية، ولكن – مع الأسف – كان الملك هو القائد الأعلى للجيش بحكم الدستور، ولهذا فعندما قامت الثورة كان أعظم ما سرنا فيها هو أن الجيش هو الذى قام بها، أى أن الجيش أصبح – كما ينبغى أن يكون – جيش الشعب، وباسم الشعب قام بالثورة، وأنزل الملك عن العرش وأخرجه من البلاد، وتكون مجلس الثورة الذى أنشأ هيئة التحرير التى أصبحت رئيسة مصر ورئيسة الجيش، وهى التى اعتمدت ترشيح محمد نجيب أول رئيس جمهورية فى مصر بعد إلغاء الملكية، لا أنسى يوم إلغاء الملكية وإنشاء الجمهورية، كان الذى أعلن ذلك على الشعب هو يوسف وهبى فى استراحة تمثيلية يقوم بها، ولم ننسىَ يومئذ أن يوسف وهبى كان ابن باشا. وقد تخلى هو عن أصله وأصبح فنان الشعب، وقد أعطيناه نحن هذا اللقب، والرجل سعد به جدًا، وأنا كتبت مقالاً فى المصور عن ذلك، ويوسف وهبى سعد بالمقال واتصل بى بالتليفون فى البيت ليشكرنى وأحسست وهو يتكلم أن صوته يرتجف ويبكى.

□□□

وكان محمد نجيب أول رئيس جمهورية لمصر رجلاً ممتازًا ، كان عاقلاً هادئًا متزنًا، ثم إنه ولد فى السودان، فكان سودانيا أيضًا، وأحبه شعب السودان ورحب به، ولكن عبد الناصر الذى كان يسعى لعزل نجيب وتولى رياسة الجمهورية، أرسل صلاح سالم إلى السودان حيث قام بعمليات رقص وتهريج حاسبًا أنه يكسب بذلك شعب السودان، وعاد إلى مصر بعد أن ضيع نتائج مجهود محمد نجيب، عاد ليجد أن عبد الناصر أصبح ثانى رئيس لجمهورية مصر، وبدأت الحرب بين الأخوين جمال وصلاح سالم وعبد الناصر وانتصر عبد الناصر فعلاً، لأن جمال سالم تعلق بامرأة من زوجات باشوات الماضى وطلقها من زوجها وتزوجها، والشعب المصرى

لا يحب هذا العيب الخلقى، وصلاح سالم مرض ومات، وفى الوقت نفسه كان عبد الناصر قد تخلى عن كل زملائه فى قيادة الثورة، وعزل كمال حسين وعبد اللطيف بغدادى وحسن إبراهيم، ولم يبق فى النهاية أمامه إلا عبد الحكيم عامر والسادات، أما السادات فكان ماهرا جدا فى تعامله مع عبد الناصر: سار وراءه بكل طاعة، وأيده فى كل أعماله، فإذا أحس أن عبد الناصر غضب منه انزوى فى بيته، وما زال هكذا حتى اطمأن عبد الناصر أن السادات لعبة فى يده فجعله نائبًا لرئيس الجمهورية، والسادات تمسك بتلك الوظيفة وتشبث بها بيديه، وأسنانه لأنه كان يعلم أنه من هذه الوظيفة يستطيع أن يكون رئيسًا للجمهورية بعد عبد الناصر.. وقد كان!

أما عبد الحكيم عامر فكان مشكلة لأن الرجل تشبث بقيادة الجيش، ولم يكن عبد الناصر يستطيع عزله لأنه - عبد الحكيم عامر - كان يستطيع أن يعزل عبد الناصر، ومن حسن الحظ أن الجيش كانت فيه قيادات ممتازة تعلمت أحسن تعلم فى روسيا وإنجلترا وأمريكا، وصرفت نظرا عن صراع عبد الناصر وعبد الحكيم عامر، وإسرائيل كانت تعرف ذلك فاستعدت فى صمت لضرب مصر، وعبد الناصر لم يكن عسكريًا ممتازًا. إنما هو كان زعيمًا سياسيًا عربيًا، وعروبته تلك جعلته يتحدى إسرائيل ويحتل منطقة الحدود مع إسرائيل عند رأس محمد، وإسرائيل فرحت بذلك؛ لأن جيشها كان يستعد لغزو سيناء وفى أيام كانت قواتها قد وصلت إلى ساحل القناة، وعبد الحكيم عامر، الذى لم تكن عنده فكرة عن الحرب، صار فى الجو بطائرة صغيرة ليرى قوات إسرائيل ثم نزل إلى الأرض، والجيش الذى كان يقوده الشبان الجدد لم يدخل الحرب فى الواقع، وعزل عبد الحكيم عامر، وعبد الناصر المنهزم انكمش وظهر عليه أنه أصبح فى حاجة إلى معاونة، فأعلن أنه يتنازل عن رياسة الجمهورية،

وكان لابد فى رأيى من قبولها، ولكن شعب مصر الكريم قال له: لا! أنت لا تستقيل الآن، لأنك فى الواقع تستقيل بإرادة إسرائيل، ونحن شعب مصر لا نقبل أن إسرائيل تتصرف فينا.

وعندما نشاء نحن نعزلك بإرادة شعب مصر الذى يعينك، وعبد الناصر ثبت فى الرياسة وفكر - ربما للمرة الأولى - كيف يخدم مصر ويتخلى عن نفسه. وذهب إلى الخرطوم وهناك لقى الملك فيصل ملك السعودية الذى كان يحاول عزله، بل إنه غزا اليمن لكى يصل إلى السعودية. أجل لقى الملك فيصل الذى كان من أعظم ملوك العرب فى العصر الحديث، والملك فيصل قال عبد الناصر: لا بأس عليك يا أخى. تعال واجلس إلى جانبى ولنتعاون كإخوة، وأحد رؤساء العرب الذين تلاقوا فى الخرطوم قال لزميل له: تعال واستمع إلى أيها المجنون فقال له عبد الناصر: هو المجنون؟ كلنا مجانين ياهذا وعبد الناصر عاد إلى مصر وقد عزم على أن يخلص للجيش وكان عبد الحكيم عامر قد عزل من قيادة الجيش ومات ويقال إنه انتحر، وعبد الناصر عين قائدًا جديدًا والقائد الجديد أخلص فى العمل وكان إلى جانبه ضباط عظام أولهم محمد حسنى مبارك قائد سلاح الطيران، وبدأ العمل فى صمت، وعبد الناصر ذهب إلى مطار القاهرة ليودع أمير الكويت، وفى المطار مات عبد الناصر، مات واقفا والمصور الذى كان ينتظر بيصور أمير الكويت صور عبد الناصر واقفا ميتا ويداه مضمومتان فى عصبية، هذه الصورة لا توجد فى مصر بل هى فى الكويت.. وأتت سيارة إلى المطار وحملت عبد الناصر إلى بيته، وفى مساء ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م مات، والسادات الذى كان ساكنا صامتا قفز واستطاع أن يتولى رياسة الجمهورية من حسن الحظ.

□□□

فى صمت وهدوء بدأ السادات يعمل مع ضباط الجيش لإعادة بناء الجيش وضرب إسرائيل. وقد لعب السادات دوره بمهارة فأظهر لإسرائيل

أن مصر لا تفكر أبدا فى الحرب مع إسرائيل، ولكى يطمئن على سلامة السير وإلى النتيجة حرر نفسه من روسيا وعزل ٧٠٠٠ روسى كانوا فى الجيش المصرى .

وروسيا غضبت، ولكن مصر لم تهتم، وبدأنا نخطط لأغرب حرب فى تاريخنا لأن إسرائيل كانت قد حصنت نفسها فى سيناء وبنت سدًا بشعا من التراب إلى خلفه خط دفاعات بارليف. وجنود مصر على ضفة القناة كانوا يتفجرون الغضب وجنود إسرائيل يضحكون.

وفى ٦ أكتوبر ١٩٧٣م هجم جيش مصر واكتسح قوات إسرائيل وأظهر جنود مصر عبقرية لم تكن تخطر ببال إسرائيل أو غير إسرائيل، فى ساعات عبرنا القناة فى أكثر من موضع وصعدنا السد الترابى وانحدرنا على خط بارليف واحتللنا منه مراكز، وإسرائيل التى كانت إلى ذلك الحين رمزًا للقوة فى المنطقة، كانت ترسم الخطط لتحتل ما تستطيع من بلاد الشرق الأوسط أصيبت برعب واستغاثت بالولايات المتحدة لأن محمد حسنى مبارك قائد الطيران المصرى قضى فى ساعات على طيران إسرائيل وحطم سلاح الدبابات الإسرائيلى فى سيناء، وأمريكا المنافقة أسرعت لعون إسرائيل والطائرات الأمريكية أصبحت تطير من ألمانيا مسلحة وطياروها على أهبة العمل ونزلت طائراتها فى سيناء لتواجه جيش مصر، والسادات قال أنا لا أريد حرب أمريكا، والكثيرون يرون أنه أخطأ فى ذلك فإننا كنا نستطيع إذ ذاك أن نهز أمريكا هزة قوية، على أى حال أسرعت هيئة الأمم وأوقفت الحرب وعقدت هدنة وبدأت مفاوضات الكيلو ١٠١ فى الطريق إلى الإسماعيلية، وإسرائيل انتهزت فرصة سنحت لها وعبرت القناة عند الدفرسوار وانحدرت إلى الجنوب نحو السويس لكى تقطع الطريق على عودة جنود مصر فى سيناء، ولكن رجال السويس وهى بلدى وقفوا كالحديد أمام إسرائيل وهموا جيشها، وإسرائيل التى كانت تريد قطع

طريق العودة من سيناء على مصر أصبحت هى المحصورة فى أرض مصر، والسادات كان يريد استعادة سيناء ولا زيادة، وبالفعل استعادها فى المفاوضات، وسمعة إسرائيل تحطمت وعرفت ما هى مصر، والسادات أصبح بطلا من أبطال تاريخ مصر وتغير الموقف فى الشرق الأوسط، ومصر أصبحت سيدة الموقف، وكان السادات يستطيع أن يعمل أكثر ولكنه فقد توازنه ذات مرة عند غضبه لنقد بعض الناس له، وقبض على ١٥٠٠ مصرى، وشعب مصر لم يغفر له هذا الخطأ وبعض رجال مصر دبروا لقتله اغتاله فى ٦ أكتوبر ١٩٨٠م. وهى فى كامل هيئته وملابسه العسكرية ولم يسر أحد فى جنازته ودفن هناك عند قبر الجندى المجهول وبدأت المؤامرات، ولكن شعب مصر عرف كيف يرفع للرياسة محمد حسنى مبارك نائب الرئيس وتولى حسنى مبارك ثالث رؤساء جمهورية مصر ودخلنا فى عصر جديد.

لأن نصرنا على إسرائيل لم يكن نصر ٦ أكتوبر فحسب، بل كان معركة سنوات، فإن إسرائيل عندما نزلت أرض الشرق العربى كانت فكرتها أن تنشىء دولة إسرائيلية تمتد من الفرات إلى القناة واليهود فى الدنيا أغنياء جدا لأن فيهم مهارة اقتصادية لا توجد فى غيرهم، وكانت فكرتهم الأساسية هى أن تنتصر على مصر لأن مصر أقوى دول المنطقة وأقدمها وأعظمها حضارة، إذا هى انتصرت على مصر أصبحت المنطقة عند قدميها، وقد استعدت بالفعل لذلك وأيدتها إنجلترا تأييدا عظيما لأن إنجلترا لا تحب العرب، وبالذات لا تحب مصر لأن مصر كانت أول دولة هبت فى وجه الاستعمار البريطانى أيام الاحتلال، وكرومر الذى كان يحسب نفسه سيد مصر شعر بغضب بالغ على مصر لأنها هى التى عزلته عن ولايتها أيام مصطفى كامل، وقد أثر عنه أنه قال: إلا يحدث لى هذا إلا على يد المصريين؟ سوف يرون منى ولكنه لم يستطع أن ينال منا شيئًا،

لقد وقف بجيش مصر عند ١٨ ألف جندى هم أشبه برجال البوليس وكان يتصرف وهو المندوب البريطانى السامى كأن مصر مزرعة أبيه، ولكن رجال جيش مصر تدربوا من وراء ظهره واستكثروا من الجنود واشتروا أسلحة وأصبح الجيش المصرى قوة عسكرية هائلة، وإنجلترا قررت أن تنتصر على مصر فأيدت اليهود وساعدتهم على إنشاء دولة إسرائيل.

وعندما قامت إسرائيل بعد الحرب العالمية الثانية تبين أن اليهود مرنوا الألوف لكى يكونوا جيش إسرائيل، وقد ظهر ذلك فى حرب ١٩٤٨م عندما انتصر اليهود على ما سمى إذ ذاك بسبعة جيوش عربية، وما كانت بجيوش أصلا، وهذه المأساة التى رسمها الاستعمار مع إسرائيل أصبحت نقطة سوداء فى تاريخنا، وعبد الناصر لم ينتبه إلى قوة إسرائيل إلا عندما التقى معها فى معركة ١٩٦٧م مع أن قوة إسرائيل كانت واضحة، وأنا شخصيا كنت فى أوروبا إذ ذاك وكنت أقرأ فى الصحف ما يعمله اليهود لكى تكون إسرائيل أكبر قوة فى الشرق الأوسط، وما كنت أحسب أن عبد الناصر لا يتنبه إلى ذلك، وكنت أتصور أننا فى مصر نستعد حتى فوجئت بهزيمة ١٩٦٧م. ولا تتصور حالى فى تلك الأيام. لقد كفرت يومها بعبد الناصر وعبد الحكيم عامر واستقر رأيى على العمل ليل نهار لكى تقف مصر على قدميها وصرت أجمع المعلومات وأعطيها لسفير مصر فى مدريد، والسفير كان يعرف رؤساءه فكان لا يرسل المعلومات إلى مصر، وعندما نقل سفيرا فى كوبنهاجن قال لى: لا تؤاخذنى فهذه خطاباتك إلى مصر لم أرسلها لأننى أعرف أنهم هناك سيلقون بها فى صندوق الزبالة، وعندما انتقلت أستاذا فى جامعة الكويت عرفت أن مصر بعد ١٩٦٧م قد تنبهت وأنها فعلا تستعد فاطمأن قلبى، وعندما قامت حرب ١٩٧٣م أتيت إلى مصر خاصة، وكانت رحلتى طويلة متعبة، خرجت من مصر إلى تركيا منها إلى ليبيا ومن ليبيا إلى مصر.

وفى مصر جلست أستمتع بأخبار النصر وسعدت برؤية الإسرائيليين أسرى بين أيدينا وسعدت أكثر برؤية الجنود المصريين يعبرون القناة بشجاعة وبعضهم كان يعبر حاملا زورقا وكانت وجوههم هادئة باسلة وكانوا يلقون الإسرائيلى فيفر أمامهم والهلع على وجهه، فيتابعه المصرى ويقتله أو يعود به إلينا ممسكا به كأنه دجاجة، وعدت إلى الكويت وأنا أسأل نفسى: هذا هو المصرى الذى قال المستر رافرتى إنه لا يعرف كيف يحارب، هذا هو من أبسل رجال الدنيا، ها هو ذا يحرر بلاده ويطرد الإسرائيليين ويكنسهم كنسًا، فما الذى حدث؟ أقصد ما الذى جعل المصرى يتكشف عن هذه البسالة.

□□□

الذى حدث هو أن المصرى استرد حريته وصار يتصرف تصرف رجل مستقل حر يدافع عن شرفه، لقد أدرك أن وطنه شرفه وأن واجب الرجل هو الدفاع عن شرفه. هكذا كان المصرى القديم الذى فتح بلاد الشام وأثبت أنه خير جندى على الأرض. ثم جاءت الكارثة وغزا الفرس مصر سنة ٥٢٥ قبل الميلاد. والفرس لم يغزوا مصر لأنهم جنود أحسن بل لأنهم كانوا قبائل متوحشة تفترس الناس. وهضبة إيران التى تمتد من العراق إلى الهند تسكنها مجموعات من القبائل البشعة التى لا تعرف غير الافتراس، وهؤلاء غزوا مصر وافترسوا حضارتها، وبعد الفرس جاء اليونان بقيادة الإسكندر، والإسكندر كان رجلا مثقفًا متحضرًا ولكنه كان مقاتلاً بشعًا، وقد غزا إيران وحطم قبائلها وغزا مصر وخلصها من بشاعة قبائل إيران، وعندما مات خلفه على مصر بطليموس الذى أنشأ أسرة البطالسة أو البطالمة لم يكن فيهم إلا بطليموس الأول و الثانى، ولكنهم كانوا يعتمدون على قوات عسكرية يونانية وشامية ولم يفكروا قط فى إعادة إنشاء الجيش المصرى القديم الذى حطمه الغزو الفارسى، و حدث ذات مرة أن بطليموس الرابع هاجمه أعداؤه فاستغاث ببقايا من جند مصر وانتصر بهم فى موقعة رفح،

وبعد النصر خاف من المصريين فلن يعد إلى الاعتماد عليهم، والبطالة كانوا شعبا ضعيفا جدا، وكانوا فاسدين خلقيا، وقد تحاملهم المصريون واحتقرهم، وقد بانت سفالتهم عندما تولت السلطان منهم كليوباترا الثالثة عشرة، ومع سمعتها التاريخية فإننا ينبغى أن نقول إنها كانت داعرة. وقد عبث بها يوليوس قيصر وانتهت حياتها بالانتحار ثم جاء الرومان، ولابد أن نقول إن الرومان لم يكونو شجعانا كما يظن الناس. حقا إن أجيالهم الأولى كانت مقاتلة قوية ولكن منذ قامت الإمبراطورية على يد أغسطس لم يعد هناك جند رومانى يحمى الإمبراطورية فاعتمد الرومان على الجند المرتزق وحكموا إمبراطوريتهم بذلك الجند. ونحن فى مصر لم نعرف واليا رومانيا واحدا محترما.

والرومان دخلوا المسيحية، ولهذا يعظمهم أهل الغرب وانقسمت إمبراطورية الرومان بين اللبيزنطيين المنسوبين إلى بيزنطة التى سميت القسطنطينية. وروما التى أصبحت فى الوقت نفسه مركزًا للمسيحية الكاثولكية وعلى رأسها البابوية. والبابوية كرهت الإسلام ونذرت نفسها لحربه. وقد كرهت العقيدة القبطية مع أن الأقباط هم المسيحيون الحقيقيون.

□□□

وعندما جاء الإسلام وجدت فيه مصر أملها الذى كانت تحلم به لأن الإسلام دين إلهى بأصله ومصدره، وإنسانى بغاياته. وهو يعامل البشر معاملة كريمة ويجعل الإنسان وجها لوجه مع الله سبحانه وتعالى، ورسول الله محمد صلى الله عليه وسلم نموذج إنسانى رفيع ومعلم كامل وقد أحبه المصريون كما آمنوا به، ونصف المصريين يسمون محمدًا.

وتشربت مصر الإسلام ودخل فيه معظم شعبها، والرجل المصرى بعث رجلاً كاملاً شهمًا على يد الإسلام ولم يتنبه أحد إلى هذا التغيير الحاسم الذى شمل شعب مصر، ودول الخلافة صارت تعتمد على الجند المرتزق من

شعوب القوقاز خاصة وسموهم الأتـراك وهـؤلاء الأتـراك كـانوا حقـراء فعـلاً ولم يحبهم أحد من أهل دولة الإسلام. ومصر استقلت عن الخلافة على يـد أحمد بن طولون ثم محمد بن طغج الإخشيد ثم الفاطميين. وقد بـالغ بعـض المؤرخين المعاصرين فى تقدير الفاطميين ولكنـهم لا يسـتحقون هـذا التكريـم الكبير.

وعندما غزا الصليبيون بلاد الشام بتوجيـه مـن البابويـة بـدا بوضـوح أن الدولة العباسية وأتراكها قد انتهى أمرهم، وظللنا نناجزهم فى ضعف حتى تكون فى مصر شعب إسلامى مقاتل واحتاجت إلى قائد. وهذا القـائد كـان صلاح الدين الكردى، وصلاح الديـن تزعـم المصريـين وكسـب نصـر حطـين وكسر ظهر الصليبيين بالجنود المصريين وأنشأ الدولة الأيوبية، ولكن الدولة الأيوبية لم تنجب إلا رجلا واحدا هو صلاح الدين، وجاء مـن بعـده ملـوك ضعاف تافهون لم يحبهم شعب مصر.. وقد استعان هـؤلاء بالمـاليك الذيـن كانوا جبناء جهلاء فى مجموعهم وكان السلطان المملوكى إذا عزل وتعـرض للقتل بكى كالنساء، ثم جاء الأتراك والأتراك كانوا فعـلاً مقـاتلين بواسـل، ولكن لقرنين من الزمان فقط، وبعد ذلك صاروا متسولين.

وشعب مصر سئم أولئك الأتـراك واحتقرهـم وصـبر عليـهم حتـى اختـار واحدا منهم وهو محمد على وجعله واليًا، ومحمد على رغم ذكائه لم يحب المصريين لأنه لم يفهمهم، وقـد ظـل أجنبيـا طـوال عمـره، وكذلـك أولاده، والوحيد الذى أصبح مصريًا هو فاروق، ولكن فاروق تولى بعد خـراب الدنيـا وعجز عن حكم مصر، ومن سوء الحظ أنه وقع فى يد أحمد محمد حسـنين المصرى الأنانى الذى حارب مصطفى النحاس ومكرم عبيد ومات فى حادثة سيارة.

وفى أيام فاروق تكونت جماعة الضباط الأحرار التى قامت بالثورة وتـولى رياسة الجمهورية محمد نجيب ثم عبد الناصر ثم السادات، والسادات كان

مصريًا صرفًا صادقًا فاعتمد على المصريين وعمل معهم، وبفضلهم انتصر على الإسرائيليين، ومن أحسن صفاته أنه كان يحب مصر حبًا صادقًا، وحبه لمصر جعله يختار للنيابة عنه واحدًا من أعاظم المصريين هو محمد حسنى مبارك.

المهم هنا أن محمد حسنى مبارك الذى كان قائد سلاح الطيران أيام السادات هو الذى قاد معركة النصر على إسرائيل، والمصرى شعر بقيمة نفسه مع السادات ومبارك، وبعد النصر على إسرائيل خطا المصرى خطوات حاسمة ليصبح أكبر قوة حضارية عسكرية فى عالم العرب. والمصريون ينقسمون قسمين: متعلمين وأميين، والمتعلمون قوة عظيمة فعلاً، وهم الذين يقودون البلاد اليوم، وهم الذين قادوا نصر أكتوبر وعادوا بشعب مصر إلى زعامته فى المنطقة التى فقدناها بالغزو الفارسى سنة ٥٢٥ قبل الميلاد، ونصر أكتوبر نصر مصرى خالص خالد وهو نصر حاسم فى تاريخ مصر. وما كان من الممكن أن يكون خالدًا إلا إذا كان قادته مصريين خلصاء.

(١٠)
السياسة لا تعرف إلا القوة والسلطان
ولا مكان فيها للمثل العليا*

على رغمى أكتب هذه المرة عن السياسة العالمية وأنا بطبعى لا أكتب فى السياسة لأننى لا أحبها ولا أستريح إلى رجالها. لأن أولئك الرجال من أشد البشر أنانية ورجل السياسة مهما كانت أخطاؤه فهو يصر دائما أنه على الحق وأن خصومه على خطأ. ومن هنا فإن كلام رجال السياسة مثير للغضب وإقناعهم بغير الذى فى دماغهم مستحيل. ثم أنهم لا يرضون بالمعقول ولا يتنازلون عن الرياسات التى تجعل خيرات الدنيا فى أيديهم. وأول رجل سياسة تحدثت إليه كان محمد محمود باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين وعدو الوفد اللدود، وأنا لم أكن وفديا ولا قصدت إلى الدفاع عن الوفد، ولكنى ذهبت للحديث مع محمد محمود مندوبًا عن مجلة المصور، وكانت وزارة محمد محمود قد سقطت وأصبح الرجل فى الطريق، وكان غرضه الأساسى أن يعود إلى رياسة الوزارة ولم يكن هذا يهمنى وإنما الذى أهمنى ودفعنى إلى الحديث معه هو أننى أردت أن أعرف لماذا يسمى نفسه هو وأتباعه بالأحرار الدستوريين.

ومن المعروف أنه لم يكن هو الذى اختار ذلك الاسم لحزبه وإنما ورثه عن عدلى باشا وثروت باشا.والمعروف أن هذه الطائفة من رجال السياسة التى خرجت من الوفد وخاصمت سعدا وانضمت إلى القصر والإنجليز كانت قد ابتكرت لنفسها هذا الاسم وقالت إنهم أحرار - عن الوفد -

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٩ يناير ١٩٩٢م .

ودستوريين لأن الوفديين كانوا يقولون أنهم الشعب وإنهم يحاربون الإنجليز والسراى فهم ناس لهم مهمة ورسالة وليسوا بحاجة إلى اسم، بل إن الوفديين سموا أنفسهم سعديين لأن سعد زغلول كان يمثل المصريين وكل من انضم إلى سعد فقد أصبح سعديًا ووطنيًا ومحاربًا فى سبيل مصر وبعد وفاة سعد أصبح مصطفى النحاس رئيس حزب الوفد ويمثل المصريين جميعا. ومصطفى النحاس كان رجلاً ساذجًا طيبًا وطيبنه جعلته يعتقد أن احتلاله لمركز سعد زغلول معناه أنه أصبح زعيم مصر، والمصريين، وعلى الرغم من سذاجته وعبطه كان رجلاً طيبًا جدًا ولم يكن من الممكن أن تغضب منه، بل إنك كنت تخرج من مقابلته والحديث معه وأنت تضحك، فى حين أنك لم تكن تستطيع الكلام مع محمد محمود لأنه كان متكبرًا جدا فهو باشا وابن محمود سليمان باشا من أغنى أغنياء الصعيد ومن أثقلهم على النفس أما الذى أثقل مركز النحاس وخلق له الأعداء فكان اتخاذه مكرم عبيد سكرتيرًا للوفد، وكان مكرم عبيد رجلاً بالغ الذكاء عظيم البلاغة وكان يمد سلطانه على الوفد ويحتقر الأحرار الدستوريين وكل أحزاب القصر كالشعب والاتحاد. والعظيم فى مكرم عبيد أنه كان مؤمنا بالوفد ومؤمنا بنفسه، ولهذا فإن أعداء النحاس كانوا لا يكرهونه لأنهم يعرفون أنه مؤمن بمصر. أما مكرم عبيد فكان يؤمن بنفسه إلى جانب إيمانه بمصر، ومن هنا فإن أعداءه كانوا يكرهونه ويخافونه وعندما اختلف مع النحاس انضم أعضاء الوفد كلهم إلى النحاس باشا ولكنهم أصروا على كراهية مكرم، وأنا شخصيًا لم أكن وفديًا ولم أحب النحاس أو مكرم، ولكنى أحببت سعد زغلول حتى بعد وفاته لأنه كان يمثل مصر ولم أشعر أبدا بأن حبى لمصر يتطلب منى الإيمان بالوفد أو الحزبية ولهذا فإننى لم أكن حزبيا أبدًا وعندما درست تاريخ إنجلترا آمنت بالرجل الإنجليزى العادى ولكنى لم أؤمن بجلادستون أو بلمرستون بل كرهت هذين، لأن الحزبية كانت تأكلهما وتدفعهما إلى اقتراف الجرائم ضد الهند وضد مصر وضد فرنسا بل ضد أمريكا.

وفى أيامنا هذه ظهر نوع من الحزبية لم نعرفه فى الماضى وهى حزبية جوربا تشوف الشيوعى الذى هدم الشيوعية الظالمة المستبدة لأنه رأى أن مصلحة روسيا تستدعى إخراجها من الشيوعية الأستالينية لأن الذى وضع الشيوعية وشرع لها وأدخل الروسيا كلها فيها كان لينين فقد كان رجلا مفكرًا وروسيا مخلصًا ومع أن جرائم القتل السياسية فى روسيا بدأت فى أيامه إلا أنه لم يكن يقضى بإعدام أحد لأنه كان يكرهه أو يخاف على نفسه منه كما كان استالين يعمل، بل لأنه كان يحب روسيا ويخاف عليها وعلى أى الأحوال فإن رياسة لينين لروسيا لم تزد على خمس سنوات ولم يكن سليم الصحة إلا سنتين، أما بقية رياسته فكان مريضا، وفى أثناء مرضه اشتد الصراع بين رجاله وانتهى هذا الصراع بنصر استالين وقتل استولوفسكى فاصبح رئيس روسيا بعد لينين بعد صراع مرير مع خصومه ولم ينتصر عليهم إلا بالخيانة والقتل والغدر ومن أيام انتصاره ارتبط الإجرام بالشيوعية الروسية ولم يقتصر الإجرام على الأشخاص بل شمل الشعوب.

وقد حاول الكثير من رؤساء روسيا بعد استالين أن يخففوا من قسوة الاتحاد السوفيتى، ونحن نذكر أن خورشوف أراد أن يدخل تعديلاً على النظام السوفيتى ويخلص روسيا من القسوة والظلم ويخلص المواطن الروسى من الحرمان فأسقطوه من الحكومة وطردوه وأصروا لتظل الشيوعية مرتبطة بالقسوة والظلم واشتد ذلك بسبب العداء بين الشرق والغرب. وغرب أوروبا ومعه أمريكا بذلوا أقصى ما استطاعوا ليسوئوا سمعة روسيا أو الاتحاد السوفييتى والشيوعية التى ارتبطت به لأن المسألة لم تعد مسألة مبادئ أو صالح النظام الروسى العام، بل مسألة فيها طائفة من البشر سيطرت على الأوكرنيين وروسيا البيضاء، وروسيا وضعت يدها على قواتها العسكرية واستخدمت هذه القوات فى السيطرة على اثنتى عشرة جمهورية أدخلت بالقوة فى الاتحاد السوفيتى وأخضعت بالقوة أية جمهورية من الجمهوريات الداخلية فى الاتحاد.

حاولت الاستقلال عنه كما فعلت فى المجر التى استخدمت روسيا القوة فى إخضاعها وقتلتمن أهلها الألوف، واخضعت جميع سكان الاتحاد السوفيتى للفقر والحرمان والظلم البشع، وعندما جاء ميخائيل جورباتشوف وصعد فى سلم الوظائف الرئيسية فى الاتحاد السوفيتى أحس بثقل الجوع والحرمان الذى يقاس منه المواطن السوفييتى وأنه من الممكن جدا أن يثور الشعب على ذلك النظام الظالم خاصة أن الاتحاد السوفيتى وقف موقف العداء من العرب وأمريكا، وقد استكثر الاتحاد السوفيتى من الأسلحة وخاصة الصواريخ النووية ووقف موقف الاستعداد الدائم للحرب، مما جعل أمريكا تزيد فى نفقات الحرب وضخامة الأسلحة وأرصدت أمريكا فى غرب أوربا أسلحة خطرة واستعدت لحرب الاتحاد السوفيتى وهذا الاستعداد الأمريكى للحرب مع ما تبعه من الأسلحة الصاروخية البشعة من الممكن جدا أن يهزم روسيا. خاصة أن الشعوب الخاضعة لها كانت كارهة لها ومستعدة لكل شيء لكى تتخلص من الظلم والجوع والحرمان. هو أن يخفف من ضغطه العسكرى على الشعوب الخاضعة له. وهذا بدوره يقتضى إلغاء الشيوعية الضاغطة على الشعب الروسى فى صورة نظام عنيف قاس، فإذا تخلص الاتحاد السوفيتى من الشيوعية وانتقل إلى نظام مدنى رأسمالى أصبح فى استطاعته أن يدخل فى اتحاد مع غرب أوربا وخلص الشعوب السوفيتية من الظلم والحرمان والجوع أى أن جوربا تشوف فكر في أن يقود ثورة بيضاء فى روسيا، وسار بالفعل فى ذلك. ولم يكن ذلك سهلاً بل كان محاطًا بالأخطار، وكان جوربا تشوف رجلاً ذكيًا شجاعًا عرف كيف يسير فى هذا الطريق، وقاد بذلك أعظم حركة إصلاح فى النظام الشيوعى الضخم، ولو أن جوربا تشوف كان وزيرًا من النوع التقليدى المعروف لأدت حركته إلى ثورة دموية لأنه ما كان ليتصرف بالطريقة الإنسانية التى تصرف بها، لأن الاتحاد السوفيتى. تركيبة غريبة. من خمس عشرة جمهورية، ولكن الجمهوريات القوية ذات السلطان والقوة فيها أربع هى : أوكرنيا وعاصمتها كييف وروسيا وعاصمتها موسكو وروسيا البيضاء

وعاصمتها ينك وقازاكستان وعاصمتها الما – أما وهذه الجمهوريات الأربع كانت تسيطر على بقية الجمهوريات فى الاتحاد السوفيتى الذى تألف سنة ١٩٢٢م.. واتخذ موسكو قاعدة له وحكم الدول الكبرى من الكريملين.. وكان جورباتشوف يستطيع أن يحتفظ بالكيان الأساسى للاتحاد ويستمر فى رياسة الدولة الكبرى خاصة وهو يسيطر على الجيش ويتولى القيادة العليا بصفته رئيس الدولة ولكنه رجل مثالى ورجل مبادئ وكان يعرف تماما أن الطريق الذى يسير فيه سيؤدى إلى فقدانه تلك السلطة المركزية الكبرى ولكنه فضل إكمال الثورة بالأسلوب السلمى.

وفى أمريكا عقد جورباتشوف مؤتمرات صحفية عالمية وتكلم بهدوء وصدق وإيمان وأصبح الشخصية السياسية الدولية الأولى فى الدنيا، وزاره بوش فى موسكو وتحدث إليه وأعلن تأييده لمبادئ الحرية والديمقراطية والاقتصاد الذى يقوم على الملكية الشخصية وحرية الناس فى التصرف فى أموالهم فى حدود القانون وكل المبادئ الأخرى التى كان جورباتشوف يبنيهما بإيمان وحسن نية، وتصورنا نحن أن النظام الجديد الذى يبنيه جورباتشوف سيؤدى إلى اختفاء الشيوعية كسلطة عليا تتدخل فى حياة الناس وتحدد لهم طريق التصرف، وهذا النظام الروسى الاستبدادى القديم كان له أنصاره الذين لا يؤمنون قط بالحرية والديمقراطية والاقتصاد الرأسمالى لأنهم كانوا يحتلون مراكز كبرى فى الاتحاد السوفيتى ويخافون أن ينحل هذا الاتحاد فيضيعوا وتضيع وظائفهم وامتيازاتهم الكثيرة، ففاجأ نفر منهم جورباتشوف بثورة خرجت من الظلام وقبضا عليه من أسرته وأعلن رجال الثورة نهايته والاحتفاظ بالنظام الشيوعى القديم وهنا ظهر بوريس يلتسين وهو روسى صقلبى أو اسكلافى. وكان جورباتشوف قد عينه نائبًا له فى رياسة جمهورية روسيا وهى مركز الاتحاد السوفييتى وأعظم قوة فيه. ولما كان يلتسين نائب الرئيس فى روسيا . فقد كان نائبه أيضًا فى القيادة العليا للقوات المسلحة، وقد تصرف بورس يلتسين بشجاعة

وذكاء أعلن أنه يؤيد جوربا تشوف، واعتمد على نفر من قادة القوات المسلحة ورفض الطاعة للثوار وطالبهم بالإفراج عن جوربا تشوف، وكان الشعب الروسى كله ورجال الجمهوريات قد أيدوا جوبا تشوف فأنكروا الطائفة الثائرة ورفضوا الطاعة لهم وطالبوا رجال تلك الثورة بالإفراج عن جوربا تشوف وآله، ولم يجد الثوار مفرًا من الطاعة فأفرجوا عن جورباتشوف وأرسل يلتسين قوة أنقذته وعادت به إلى رياسته فى الكريملين.

ولكن تلك الفئة الشريرة التى قامت بالثورة ألحقت بجوربا تشوف أعظم الضرر فقد ثبت أن نظامه الإنسانى الديمقراطى ضعيف، ولو كان جورباتشوف ظالما مستبدًا لما جرؤ أحد على الثورة عليه وأخذه أسيرا بهذه السهولة، فلما عاد إلى السلطان كان مركزه قد اهتز وفقد الكثير من سلطانه الذى كان يتصرف على أساسه، وربما لم يكن جوربا تشوف قد استطاع العودة إلى سلطانه لو لم يكن هناك بورس يلتسين، فأن ذلك الرجل الذى كان حاكما لروسيا وضع يده على سلطات كبرى أهمها الجيش.

وكان بطبعه وزيرًا تقليديًا يتمسك بالسلطان والقوة المادية ويتشبث بسلطانه ويجتهد فى المزيد منها فاتجه إلى الاعتماد على رياسته لروسيا واتصل سرا برئيسى روسيا البيضاء والأكرانيين، واتفق معهم على تكوين اتحاد كومنولث يحل محل الاتحاد السوفيتى، فلما أعلن ذلك الاتحاد ورئيسه يلتسين وقال رجاله إنهم يحلون محل الاتحاد السوفيتى الذى كان جوربا تشوف يعمل على إلغائه بسلام وهدوء أصبح جوربا تشوف نفسه بدون وظيفة بل لم يعد له مكان عندما أعلن يلتسين أنه يحتل الكريملين بصفته رئيس الكومنولث الذى حل محل الاتحاد السوفيتى.

وقد أنكر جوربا تشوف تصرف يلتسين وقال إنه لا يعارض استقلال أى من الجمهوريات ولا ينادى باتحاد الجمهوريات السوفيتية القديم، وإنه

كان يسير نحو خلق نظام روسى جديد يحل محل الاتحاد السوفيتى ولكن بنظام وترتيب ودون قسوة وإذا كان ولابد من أن يختفى الاتحاد السوفيتى فلا يكون ذلك بإعلان وفاته وحلول اتحاد الكومنولث مكانه كما فعل يلتسين وشركاؤه، ولم يعترف بما فعله يلتسين وقال إنه سيتمسك بسلطاته السياسة والقانونية وقد أعلن ذلك فى حديث له مع مندوب مجلة تايم، ولم يهتم كثيرا عندما قال له المندوب الصحفى إن ذلك أصبح مستحيلا، فما دام الاتحاد السوفيتى قد حلت محله الجمهوريات الأربع التى يتألف منها الكومنولث فأين هى الدولة التى يقول جوربا تشوف إنه يرأسها، وكان يلتسين قد أعلن أنه يضم موسكو إلى دولته الروسية يضع يده على الكريملين فكان تمسك جوربا تشوف بسلطته يعنى الحرب مع يلتسين ونظامه خاصة أن الروس كلهم، وكل الشعوب السلافية أو الصلقبية ظلت تتمسك بجوربا تشوف وتعلن إعجابها به ولا تكاد تعترف بالسلطات الكبرى التى زعم يلتسين أن يملكها بين يديه ذلك أن يلتسين وزير من وزراء الماضى ويتمسك بالسلطات فى يده ولا يريد أن يدع لجروباتشوف مكانا فى الدولة. وإذا كانت الشعوب الروسية لا تزال تعترف بجوربا تشوف إلا أن العالم مع إعجابه وحبه لجوربا تشوف لا يجد بدا من الاعتراف بدولة الكومنولث وذهب يلتسين إلى إيطاليا وحصل من دولتها على الاعتراف به وبدولة الكومنولث واتصل باتحاد غرب أوروبا وقال إنه هو رجل الدولة الروسية الأول وأنه هو الذى أنقذ جوربا تشوف من الهلاك وأعاده إلى رياسة الاتحاد السوفيتى، والآن وقد اختفى هذا الاتحاد فلم يعد لجوربا تشوف مكانة ولا وظيفة. وقد ساء هذا الكلام رجال غرب أوروبا ولكنهم لم يستطيعوا إنكاره، فإن العلاقات الدولية لها منطق وحقائق، وهذا الرجل الماثل أمامهم يمثل الجانب الأكبر من لاتحاد السوفيتى القديم. بل إن جمهوريات روسيا وحدها، وهى التى يرأسها يلتسين ربما كانت ثانية أوسع جمهوريات الدنيا بعد الولايات المتحدة . وكل دول الدنيا لها مصالح فى هذه الدولة الشاسعة، ومع أنها اليوم تعانى من الفقر والجوع وسوء

الإدارة التى ورثتها عن الاتحاد السوفيتى إلا أنها غنية بالموارد الطبيعية من معادن ومزارع وإذا قدم لها اتحاد غرب أوروبا والولايات المتحدة المعونات فستقف على قدميها وتصبح من أغنى جمهوريات الدنيا، وعدد سكان روسيا التى تمتد من نهر الفولجا إلى المحيط الهادى (وتدخل فيها سيبيريا الهائلة الحجم) يصل إلى ٩٥ مليونا وإنتاجها الزراعى من الممكن أن يصل إلى ٧٤٪ من الإنتاج الزراعى للاتحاد السوفيتى وثروتها المعدنية من البترول والمعادن تعتبر أيضًا من أوفر ثروات أوروبا. ثم إن كل الذى عمله يلتسين كان ينادى به جورباتشوف ويسير فى تحقيقه ولكن بطريقة إنسانية.

وكان أولى بيلتسين أن يذكر أن جورباتشوف هو الذى أظهره، هو إلى الوجود لولا جورباتشوف لما كان ليلتسين وجود، ومن هنا فهو غير محق فى كلامه فى حق جورباتشوف ولا يجوز له أن يتصور أنه هو الذى أنقذ جورباتشوف من الموت لأن الذين اختطفوا الرجل شعروا بعد قيامهم بتلك الجريمة أن الشعب الروسى لن يؤيدهم وأن رئيس روسيا فعلاً هو جورباتشوف، ولهذا فقد استسلموا وتركوه يعود إلى موسكو.

وقد فات يلتسين أن يذكر أن الاتحاد السوفيتى كان يتكون أساسًا من أربع جمهوريات كبرى ثلاث منها صقلبية وهى أوكرانيا وروسيا البيضاء وجمهورية غير سلافية هى قازاكستان وهى غير سلافية بل غير مسيحية فهى إسلامية ورئيسها نور سلطان نزاربابيف من أعظم رجال الاتحاد السوفيتى وتتبعه بقية جمهوريات وسط آسيا الإسلامية وتركمانستان وعاصمتها عشق اباد وأوزبكستان وعاصمتها طشقند وقرغيزيا وقاعدتها فرونزى وهذا الرجل لايريد أن ينضم إلى اتحاد الكومنولث الجديد لأنه فى الحقيقة اتحاد دول صقلبية ورجال قازاكستان وبقية جمهوريات وسط آسيا الإسلامية لا تحب الصقلبية ولا تريد الخضوع لها وإذا كانوا قد أحبوا جورباتشوف إلا أنهم لا يحبون يلتسين ولا يريدون الخضوع له.

(١١)
ذكريات لن ننساها أبدًا
حتى يتم تحرير الوطن العربى*

هل أنتهت سنة ١٩٩١م ؟ انتهت على التقويم أو الأجندة ولكنها لم تنته فى الحياة، فهناك ملايين الناس ولدوا فيها فهى عندهم أول الحياة لا آخرها، وطول أعمار هؤلاء الناس سيذكرونها.. بعضهم بالخير إذا كانت حياتهم خيرا، وبعضهم لن يكون عنجه لسنة ١٩٩١م هذه الصورة الجميلة، ومع ذلك ومع أن الناس دائمًا يشكون من الحياة إلا أنهم يحبونها ويتمسكون بها، ومهما كانت صفحتها سوداء فهى عندهم أحسن من الموت، لأن الحياة نعرفها وها هى ذى أمامنا، أيا كانت، ولكن الموت ما هو إلا العدم والضياع دون شىء، لهذا فإن كل الذين ولدوا سنة ١٩٩١م سيظلون يتذكرونها بالخير فى الغالب، وفى الغالب تتذكر امرأته سنة ميلاده إذا كان إنسانًا خيرًا. وقد كان لى وأنا شاب جار خطاط، فكان هذا الرجل قد كتب لوحة جميلة باسمه بخط الثلث وجعل تحتها لوحة عليها اسم بلده (دهشا) وإلى جوارها تاريخ ميلاده. وأنا لا أذكر من هذه اللافتة إلا سنة ١٩٠٨م وهى سنة ميلاده، وقد كتب لى لوحة باسمى وعيد ميلادى وأعطاها لى، ولم اسعد بها، وسألنى عن السبب، فقلت لا يعجبنى فى هذه اللوحة إلا خطك فأنت إنسان حبيب إلى قلبى ، أما ما عدا ذلك فماذا نجد فيه ؟ فقال : أنت ! وجودك فى الحياة لا يسعدك ؟ قلت : قطعا يسعدنى، ولكنى لا أحب أن أحبك أكثر من اللزوم حتى لا أخاف عليك، وأنا لا أحب الحياة مع الخوف، على أية حال فأنا سعيد معك فى هذه

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٦ فبراير ١٩٩٢م .

الحياة، ولا أحب أن تموت قبلى حتى لا تخلو الحياة بى، وأظل وحدى. فقال لى: لا تخف علىّ من الموت، لن أموت قبلك، قلت له ومن يدريك؟ نحن هنا فى هذه الدنيا على متن أمواج تتحرك دائمًا. ولا تتحرك بدوننا.

فقال: على أية حال يا أخى ها نحن أولا معا من الآن فلنستمتع بالحياة مادامت موصولة بيننا فما رأيك ؟ فقلت له: على رأيك!

□□□

وفى كل مرة يخطر ببالى أن أفعل شيئا لمناسبة رسول الله صلى الله عليه وسلم أجد نفسى أقول: وهل رسول الله يحتاج إلى ما - أو منْ يصنع شيئا لذكراه؟ لا والله ما رسول الله برسالته التى أتانا بها من الله إلا خالد، فهو يخلد على البال فى كل لحظة، وصورته المادية فى غاية الكمال والجمال، ولم يعرف إنسان كيف يرسم صورة لرسول الله مع أن كل تفاصيل خلقه عندنا، فهو إنسان بالغ الجمال، وجهه صاف يملأ من يراه سعادة، وهذه العبارة قالها ناس بسطاء أميون أول ما رأوا رسول الله، فعيناه قويتان نافذتان، وأنفه صغير جميل، وفمه مكتمل الخلق، وأسنانه بيضاء كالفضة وعلى فكرة نحن لم نسمع قط أن رسول الله شكا من أسنانه مرة، وربما كان ذلك نتيجة العناية المتصلة بأسنانه ولثته، فإن أول شىء كان يصنعه عندما يفتح عينه فى الصباح هو أن يغسل أسنانه فكان يذهب إلى بعيد حيث لا يراه إنسان ويتخلص من باقى طعامه ويغتسل صيفا وشتاء بالماء البارد ، وينشف جسده، ويلبس ملابس نظيفة بيضاء كالشمع، ويصلى ما شاء الله أن يصلى حتى إذا فرغ غسل ثوبه الذى قلعه وأجاد غسله وعاد به إلى بيته، فأعطى أهله الثوب الذى غُسل، ويسال عما إذا كان هناك طعام ليفطر، ويقدمون له أى شىء فى الغالب بقايا العشاء أو قطعتين من الخبز والجبن، ورسول الله يأكل بشهية عظيمة دون أن يطلب المزيد، ثم يطلب أن يصبوا على يديه ماء ويأخذ شيئًا يشبه الصابون ويغسل يديه وفمه، ثم

ينشف نفسه، ويذهب إلى الجامع حيث يكون إخوانه المسلمون ينتظرونه، فإذا دخل الجامع صعد على المنبر وصلى بالناس، فإذا انتهى من الصلاة وجه الناس إليه الأسئلة فى شئون الدين وشئون الحياة، لأن رسول الله كان يرى أن الإسلام هو الحياة. وما من مرة ألقى إجابة ألا أسعد بها السائل وغطى ركنا من أركان الدين.

ويتصرف الناس أما رسول الله فكانت لديه دائما مشاوير تهم الجماعة، فهو لابد أن يزور مرضى الجماعة، ويتمنى لهم الشفاء، فإذا كانوا كبار السن صلى بأولادهم ودعا لهم، ثم مضى إلى غيرهم فيفعل مثل هذا، وفى بعض الأحيان إن وجد الناس محتاجين إلى مساعدة مالية بسبب المرض فيعطيهم ما يستطيع، ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوفر ما يصله من المال لكى ينفقه على أصحابه، وقد عبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ذلك بقوله: لم نعرف فى أعمارنا أكرم من رسول الله، فقد كان كريمًا جدًا وما زار مريضًا ووجده فى حاجة إلى المال إلا أعطاه، وكنا لا نسأله من أين المال، لأننا نعرف أنه كان مدخرًا وما وصله درهم إلا اقتصده لكى ينفقه على المسلمين فى ساعة حاجة حتى إنه عليه السلام كان يعطى المرضى من أصحاب الأموال، هذه لكم من الله سبحانه، لأنه تقى، ومهما يكن مال الإنسان فهو عند الله فقير وخاصة إلى جانب الله سبحانه، وكان يقول: إن الشيطان يعرف كيف يحول المال إلى شر بين الناس، ومن واجبكم أن تجعلوه خيرا، ولا يظن أحد منك أن المال يجعله أفضل من جاره، فإن المؤمن الحق لا يغتر بالمال، ولا يرى أحكم نفسه بماله فوق الناس، لأن المال يظل أمانة فى يدى صاحبه، وفضله فى أنفاقه على الناس، وهو يفضله هذا يدخل الجنة.

وقد سألنى الطلاب أكثر من مرة أى عملة كانت جارية فى جزيرة العرب أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكنت أقول كل العملات

الدرهم الإيرانى والدينار الرومانى وكل شىء من الذهب أو الفضة، وكنت أقول: إن الإسلام أتى لكى يقلل من قيمة كل العملة وكل الذهب والفضة، لأن الصلاة والزكاة والصيام والحج هى عملة الإسلام ، ولعلك سمعت عن ناس من أهل أفريقية وآسيا فقراء معدمين، ولكنهم حجوا، وقد عملوا وحصلوا على مال أثناء الذهاب، وسعدوا وأكلوا وشربوا وعادوا إلى أوطانهم أغنى مما أتوا، وتلك هى فضيلة الإسلام الأولى.

وقد ذهبت إلى روسيا لأدرس مرة أيام كانت شيوعية، وحضرت الدروس فى الشيوعية فى جامعة فرونزى لمدة ثلاثة شهور، وكنت أرى الأستاذ يدخل علينا منفوخًا شامخًا يتحدث من طرف أنفه ويقول: إن الدولة تتفضل علينا بطعام الغداء إكراما لنا على حضور الدروس، ولابد لنا لهذا من أن نعمل ونستذكر وإلا فلا طعام ولا سكن، وقد كنت أعرف أن هذا الأستاذ زوج أرملة جميلة كانت قبلا زوجا لوكيل الحزب فى الناحية، وقد أعجب المرأة بعد وفاة زوجها وأصبح عشيقها ثم تزوجها وعاش معها فى قصرها، وأصبح موسرا بعد أن كان معظم أيامه يعيش على العيش الجاف، وربما شىء من الجبن، وها هو ذا الآن يتأمر علينا ويأتى إلى الكلية فى سيارة فقلت له يوما: سيدى الأستاذ أرجو ألا تغضب منى فأنا رجل ضيق الصدر ولا أطيق من رجل مثلك أن يعاملنا معاملة الخدم، وقد سمعتك تقول: إن الدولة تطعمنا، فأحب أن أعرف من الذى يطعمنا، الواضح أمامى أننا نحن الذين نخدم الدولة، فكل من تراهم هنا يخدمون الدولة، الوحيد الذى لا يخدمها هو أنت الذى تزوجت أرملة موسرة وسكنت قصرها وركبت سيارتها، وصدقنى أيها الأستاذ نحن خجلانون منك، ولا نحب أن نكون فى مكانك! فقال لى: لقد لاحظت من مدة أنك تلميذ سيىء، وأنك لن تفلح فى شىء بعد الخروج من المعهد، وأنا من رأيى أن مثلك لا يستحق الحضور أو الدراسة فلا تعد إلى درسى بعد الآن، وسأرى

مع زملائى الأساتذة كيف نقطع رجلك من هنا، فأنت تلميذ مشاغب ، وأنا لا أحب التلميذ المشاغب، وخرجت من المعهد هذا اليوم ولم أعد إليه، وقلت لرئيس البعثة: دعنى والله فأنا لا أجد خيرا فى هذه الدراسة، فقال: معلهش، تحضر قلت سيطردنى الأستاذ من الفصل، قال: حسنا ليطردك من الفصل، وأنت بعد ذلك تستطيع ألا تحضر، وأجد كلاما أقوله للوزارة، والواقع أن ذلك الأستاذ لم يكن يريد أن يطردنى، لأنه كان يريد أن يزور مصر ويتفرج على آثارها مدعوا من الحكومة المصرية، فذهبت إليه وقلت له: لا بأس عليك أيها الأستاذ ولا تخف منى، وإذا كنت تريد أن تزور مصر أنت وزوجتك فأنا أدعوك إلى سكنى فى بيتى وأطعمك طعامًا جميلا ، وتأكد أنه لا يوجد فى مصر من يؤمن بكلامك هذا. ورغم كل شىء فإن عامة الناس عندنا يعيشون أحسن مما عندكم دون شيوعية او معاهد والأمر لله! وحضرا الدروس الشيوعية بعد ذلك صامتًا. وتعجبت كيف يعيش ناس بهذا النظام الذى يقوم على الظلم.

والآن ترى ما رأى هذا الأستاذ اليوم بعد أن أزال جورباتشوف الشيوعية، ووضع الاتحاد السوفيتى بين العالم الحر الرأسمالى، وبدلاً من الجمهوريات الشيوعية المستعمرة السابقة وضع اتحاد الكومنولث يتألف من اثنى عشرة جمهورية وقال لها: دبرى نفسك الآن كيف تأكلين وكيف تشربين.

والحقيقة أننى أعتقد أن ما صنعه جورباتشوف هو أحسن حل لهؤلاء الروس، فإن السوفييت كما رأيتهم كانوا يعيشون حياة تعيسة متبعين نظريات كارل ماركس الذى كان يقول إن المال عدو البشر، فهو الذى يوجد التعساء والمسرفين، لأن الحقيقة أن المال لا ذنب له، وقد رأينا رسول الله عليه السلام لا يكاد يهتم بالمال، لأنه كان يرى أن الناس يتعس بعضهم بعضا، ولم يكن يهتم بالمال إلا ليساعد المحتاجين من أصحابه، ولهذا فلم

ير أنه لابد أن يصك عملة يتعامل بها الناس فى عالم الإسلام، لأن العملة فى عالم الإسلام هى الفضائل، وكل ما يقرب من الله سبحانه، فإذا تعلم الإنسان كيف يسعد بالفضائل والخيرات وجد نفسه لا يحتاج إلى مال، وعاش سعيدًا بالعمل الفاضل وحده؛ ومن الغريب انك ترى البلاد التى فتحها الإسلام تعيش سعيدة بدون مال، بل بدون إذلال النفس للمال، ولم تعرف التعاسة إلا فى العصر الأموى ما بعده، ومن حسن الحظ أن المصريين عاشوا تاريخهم كله دون أن يحتاجوا إلا إلى أقل المال، لأن الإسلام أغناهم عما عداه، والمسلم حقا لا يحتاج إلى أن يتذكر رسول الله عليه السلام لكى يشعر بأعظم السعادة.

وأنا عندما أتذكر رسول الله عليه السلام فإننى أتذكر أخاه عيسى عليه السلام نبى المسيحية. لقد أراد الله سبحانه أن يرسل للبشر رسولاً خلق بصورة تختلف عن خلق البشر، كى يكون ذلك دافعا لهم إلى الإيمان بالله الواحد بعد أن اقتصرت رسالة موسى على اليهود، وبطبيعة الحال لم يرسل الله موسى عليه السلام بالتوراة لعدد محدود من البشر. بل للبشر أجمعين، وأرسل معه أخاه هارون لكى يتعاونا على فرعون، لأن فرعون الذى كان أيام موسى كان ملكًا غير عادل، ونحن نعرف أن الفراعنة ملوك عادلون، وأنهم لم يحتاجوا إلى من يهديهم فى الماضى، ولكن فرعون موسى أتى فى أيام العمالقة أو الهكسوس، وكانوا قوما آسيويين فاسدين، وقد تصدى لهم ملوك الفيوم وآسيا الوسطى وجمعوا صفوفهم وطردوهم بزعامة تحتمس الثالث، ولكن يهود مصر انضموا إلى الهكسوس، وقد أرسل الله سبحانه إليهم رسوليه موسى وهارون لكى يهدوهم ويعينوهم على فرعون، ولم يكن الفراعنة آلهة فاسدين، بل منهم إخناتون، وهو الفرعون الذى عبد الله الواحد، ودعا المصريين، لولا أن الكهنة المصريين تخلوا عنه ودعوا إلى عودة ألوهية آمون، وهو إله الشمس، ولقد كره الفراعنة ذلك، ولكنهم وافقوا مع ذلك على أن يعود آمون إلها لمصر، وبالفعل بعد موت إخناتون

ثار الكهنة على خليفته توت عنخ آمون الذى خلف أباه، وكان اسمه توت عنخ آتون، وأرغموه على تبديل اسمه إلى توت عنخ آمون، وقد فعل، ولكنه كان ضعيف الصحة، ويبدو أنه كان مريضًا برئتيه فمرض ومات، والكهنة أسرعوا بإعداد قبره، وقد أحسنوا إعداده ووضعوا فيه من الأدوات وأسباب الحياة ما لا يقل عما وضع مع أى فرعون كبير وأغلق هذا القبر دون أن يدرى بموضعه أحد من صغار الكهنة الذين كانوا يفشون أسرار القبور إلى اللصوص ليسرقوها فظل قبر توت عنخ آمون سرًا لا يعلم به أحد. وقد عرف المصريون القدماء ذلك وظلوا يتساءلون اين هو، وقرأ الأثريون المحدثون ذلك ومضوا يبحثون عن قبر توت عنخ آمون حتى عثر عليه السير هوارد كارتر واللورد كارنا فون سنة ١٩٢٢م فكان ذلك أعظم كشف أثرى فى التاريخ، وأنت إذا زرت ذلك القبر دهشت، فهو غرفتان واسعتان جدًا حافلتان بكل أشكال الآثار.

وقد دهشت الدنيا لذلك عند تمام هذا الكشف، وكانت مصر إذ ذاك فى أشد عصور الاستعمار الإنجليزى، وقد ارتفعت مكانة مصر فى الدنيا نتيجة لهذا الكشف. وكان سعد زغلول الزعيم المصرى العظيم إذ ذاك رئيس مجلس الوزراء فى مصر، ومعه شخصيات مصرية عظيمة مثل مصطفى النحاس ومكرم عبيد وحسن حسيب وحمد الباسل. فصاحت الدنيا كلها: أهذا بلد يستعمر؟! وازدادت همة المصريين فى النهوض والدراسة وطلب المعالى، ودخلت مصر فى عصر جديد، ولم ينكر تلك العظمة المصرية القديمة إلا السلطان أحمد فؤاد الذى جعله الإنجليز الملك فؤاد، وأراد هذا الرجل أن يبنى مجده من جديد على أساس أن تربعه على عرش مصر يجعله ملكا محترما، وكانت جماعة فرنسية برئاسة هانوتو قد كتبت تاريخ فرنسا فسعى إليه أحمد فؤاد ورجا هانوت أن يكتب تاريخًا من أقدم الأزمنة إلى العصر الحديث، وكان غرض أحمد فؤاد من ذلك أن يجمع بين نفسه وبين ملوك الفراعنة ومجد مصر القديم سببًا، وقد قبلنا نحن ذلك

آخر الأمر، لأن تاريخ الأمة المصرية لهانوتو تاريخ جيد جدًا لمصر. ومن ذلك كله نرى كيف إن الفراعنة ساهموا بنصيب كبير فى نهضة مصر الحديثة وانتصارها.

أما اليهود فلم يساهموا فى نهضة مصر، لقد اختاروا أن يبارحوها عندما ثقل عليها الهكسوس، وأرسل الله إليهم نبيه موسى وأخاه النبى هارون عليهما السلام، وبذلا غاية ما استطاعوا قبل أن يهاجروا من مصر بأموالهم وذهبهم، وأجرى الله معجزته على يد موسى فعبروا البحر بين الأمواج، ولكنهم عندما دخلوا سيناء انقلبوا على موسى عليه السلام. غرتهم أموالهم وذهبهم، فمالوا إلى عبادة الأصنام وصنعوا لأنفسهم عجلا من ذهب وعبدوه رغم تحذير الأنبياء، ثم خرجوا إلى فلسطين وكانت مستعمرة رومانية فاختلفوا مع الرومان.

وقضى الرومان على مملكتهم، ونفوا من استطاعوا نفيه منهم إلى العراق، أى أن مملكتهم فى فلسطين لم تدم أكثر من ثمانين سنة، وهذه هى الدولة اليهودية التى يطالب اليهود اليوم بتجديدها بالمال الذى جمعوه فى أوربا وأمريكا، والغريب أنهم يصرون اليوم على اضطهاد الفلسطينيين الذين سبق أن أكرموهم وأحسنوا إليهم، ولكن هكذا ترى أمر اليهود فى التاريخ. لقد أحسن إليهم الإنجليز، بل هم الذين أقاموا لهم نواة الدولة اليهودية فى فلسطين، ولكنهم انقلبوا على الإنجليز وشتموهم.

ونحن لا نأسف لما أصاب الإنجليز، فإن الإنجليز خونة فى هذه القضية، وبدلا من أن يعتنوا بشعب فلسطين الذى حصلوا على الوصاية عليه من عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى، بدلاً من ذلك نجدهم يرسلون يهوديًا هو سمويل هربرت ليكون حاكمًا على فلسطين، وهذا اليهودى اتفق مع يهود الدنيا على خلق وطن يهودى فى فلسطين، وبدأوا يقيمون هذه الدولة - ومن سوء الحظ أننا نحن العرب لم نكن موفقين فى

حرب اليهود، لأننا كنا إذ ذاك فى ظلال الاستعمار الإنجليزى فى الواقع، أما فى الظاهر فكنا ممالك، وكان قائد قواتنا العسكرية عربيًا غير مخلص للقضية العربية هو عبد الله ملك الأردن، وهذا الرجل قاد القوات العربية قيادة سيئة وانتهت حرب ١٩٤٨م بالنهاية التى أرادها اليهود والإنجليز: قيام دولة يهودية على أرض فلسطين. وقد انتهز اليهود الفرصة وجعلوا أرضهم فى فلسطين معسكرًا رهيبًا. وعندما جاء جمال عبد الناصر لم يحاول ان يعرف حقيقة ذلك العدو الذى أنشب أظفاره فى أرض فلسطين، ولم يزل كذلك حتى قامت حرب فلسطين الثانية سنة ١٩٥٦م. واحتل الإنجليز والفرنسيون واليهود شبه جزيرة سيناء، وقد غضبت أمريكا لذلك، لأنها لم تكن تشاء أن يحتل الإنجليز والفرنسيون واليهود ارض فلسطين ويسيطروا على قناة السويس، فأخرجتهم الثلاثة، وتحررت سيناء، ولكن اليهود تبينوا من تصرف عبد الناصر أنه غير كفء لمواجهتهم عسكريًا فى حين أنه هو لم تكن لديه فكرة عن قوة اليهود وعندما احتل عبد الناصر تيران وكانت أرضًا مصرية تم الاتفاق على عدم احتلال مصر عسكريًا لها، ولكن عبد الناصر احتلها، وكان لا يخشى شرًا من اليهود، فإذا به يفاجأ بانفجار صهيونى انتصر على كل العرب سنة ١٩٦٧م ويحتل سيناء والجولان من أرض سوريا وبقية فلسطين. وقد فوجئ عبد الناصر بذلك، ولم يعرف كيف يتصرف، الآن الواقع أنه لم تكن لديه قوة عسكرية مستعدة لمثل تلك المعركة أما هو فكان فى الحقيقة خطيبًا، ولكن المصيبة هنا حرمته حتى من الخطابة ومع أن الرجل وجد من يساعده مثل الملك فيصل العظيم إلا أن نفسه انكسرت، ولم يلبث أن مات.

عندما اجتمع مؤتمر عربى فى القاهرة لترتيب مسالة تحرير فلسطين، وكان ذلك فى سبتمبر ١٩٦٨م، وخلفه أنور السادات، وكان رجلاً عبقريًا حقًا، فقد قرر من يوم تولى أن يستعيد أرض مصر، وكانت فكرته أن يتعاون مع بقية العرب للرد على إسرائيل. وكان هذا هو الرد الوحيد الممكن، وعندما أكمل السادات استعداده أخرج من مصر الحامية الروسية، لكى

يستطيع التصرف، وبالفعل قامت حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣م وحررت مصر أرضها بعد أن تخلت عنها سوريا وفلسطين ولبنان، ونحن نحمد الله على تحرير أرضنا ونرجو أن يعيننا الله على تحرير بقية أرض العرب، ولابد أن نحررها بإذن الله.

ذكريات:

ذكريات تخطر على بالى كلما حل التاريخ لأى من احتفالات العرب، وستظل تخطر على بالى حتى تتحرر أرض العرب من ذلك السرطان الإسرائيلى الشرير.

(١٢)
نحن فى حاجة إلى هذه الرياسة وتلك الصراحة*

أعجبتنى جدا كلمة الرئيس مبارك يوم الاثنين ٢٦ رمضان ١٤١٢هـ بمناسبة ليلة القدر بقاعة الإمام محمد عبده بجامعة الأزهر بالقاهرة، وأنا رجل أحب البلاغة واستمتع بها، وأتمنى أن يوفقنى الله إلى ان أوصف بالبلاغة، ولكن البلاغة مطلب عسير، وليس هناك شىء معين يمكن اعتباره البلاغة، فإن البلاغة أشياء كثيرة جدًا، فلكل موقف من مواقف الحياة بلاغة فى التعبير عنه.

والبلاغة فى مخاطبة الجماهير من أصعب مطالبها، لأن الذى يخاطب الجماهير لابد أن يوفق فى الجمع بين العالم المطلق الذى تعيش فيه الجماهير بمشاكلها ومتاعبها، والعالم الخيالى البعيد الذى يعيش فيه الخطيب ويريد أن ينقل غليه الجماهير بإحساسها وكيانها، ويفتح لها الأبواب لتخطو على مهل إلى ذلك العالم الخيالى، وتصبح من سكانه، ولا ترتد منه إلى الوراء بعد ذلك. وجماهير الشعب فى عالمنا المصرى وبقية عوالم العرب تعيش متأخرة تعانى وتقاسى، والرئيس مبارك هو قائد الشعب المصرى، وأمله العظيم هو أن يدفع شعب مصر داخل عالمه الذهنى البعيد، وقد بدأ خطابه بدعوة جمهور شعب مصر إلى أن يبدأ مسيرته للنهوض فى ضوء القرآن الكريم، ويسير فى ضوئه الباهر، لأن الله سبحانه لم يرسل إلينا القرآن لنقرأه فحسب، بل لكى نعيشه ، ونمضى بكل العزم الذى أودعه الله فيه، لكى ندخل عالمه العظيم، وقال الرئيس عن الفترة الراهنة من حياة أمتنا فترة عسيرة، فالأمم القوية دخلت فى تحولات دولية

* نشرت هذه المقالة فى ١٩ أبريل ١٩٩٢م .

خطيرة للمحافظة على مستواها الرفيع والاستزادة منه، ونحن إلى يومنا هذا نجرى وراء ذلك العالم القوى المتميز ولكننا لم ندخله بعد، لأننا لا نعرف كيف، ولكن الرئيس مبارك يعرف ويمسك بالمفتاح بين أصابعه ويمد يده به إلينا لكى نأخذه ونفتح الباب وندخل، ولكن هذا ليس يسيرًا، وقد قال الرئيس مبارك إن عالم اليوم يتطلب منا العراك والجهد والتفانى فى طلب العلم، لأن مجرد طلب العلم فى المعاهد ليس بالشىء العظيم فى ذاته. بل لابد من التجربة باليد، لأن العلم فى عصرنا عسير، وألوف الشباب فى عصرنا يحصلون على الدبلوم النظرى من الجامعات والمعاهد ويظلمون فى بيوتهم يطلبون الوظائف، وهناك نفر من الدعاة السطحيين يطالبون الدولة بأن تلحق كل الحاصلين على الدبلومات بوظائف مناسبة، ويلومونها على ترك أولئك الشبان دون وظائف، وأين تجد الحكومة الوظائف التى يطالب بها أولئك الشبان؟ فإن العلم فى عصرنا هذا عمل وإتقان. وقد أشار الرئيس مبارك إلى (أن أمتنا الإسلامية ليست اليوم فى المستوى العلمى الذى يليق بأمة قادت العالم فى مجال العلم فى الماضى لعدة قرون. وهذا حق، ونحن ندهش اليوم إذ نتأمل ماضى مصر العظيم، ونرى كيف توصل أجدادنا المصريون القدماء إلى أسرار علمية لم يصل غليها أهل الغرب إلا من حين قريب، لأن المصرى القديم كان رجلا يعمل ويجرب طول الوقت، ولا يرضى أبدًا بالوقوف ساكتًا محرومًا أمام مطالب هذه الدنيا، وقد أكد الرئيس حسنى مبارك ألمه لهذا الموقف عندما قال فى خطابه هذا (إنه من غير المقبول لأى غيور على أمتنا ألا تتجاوز هذه الأمة اليوم مرحلة التراجع العلمى، وأن تظل بلاد العالم أمية وجهلاً، ولا ينفعنا فى عصرنا هذا أن نحمل الشهادة، فلابد أن تتحول هذه الشهادة إلى عمل تتقنه اليد.

وقد ذهبت إلى ألمانيا من أسابيع لأدرس صناعة الورق، فأنا أرى بلادنا من زمن طويل غنية جدا بالقش بشتى أنواعه، مثل قش الأرز، وقش

القمح، وقش القطن، وقد رأيت الناس فى أسبانيا يصنعون الورق من كل صنف من أصناف القش، فقلت فى نفسى: إذا كان الناس هكذا فى أسبانيا فلابد أنهم أمهر وأقدر فى ألمانيا، وقد كنت حضرت هنا فى مصر فى أحد المؤتمرات جدالاً فى صناعة الورق بين المتخصصين، وقد أغضبتنى المناقشة لأننى رأيت أساتذة الجامعات عندنا لا يدعون إلى التجربة باليد لصناعة الورق، وفى ألمانيا رحبت بى طائفة من العلماء وأعجبوا بالقش الذى عرضته عليهم، وقال لى واحد منهم: أنا آتيكم فى مصر لأرى هذا القش فى المزارع، وأحصى كمياته وأجرب صناعة الورق منه وأتى هذا الأستاذ الذى كان فى الحقيقة معلما يعمل بيده، وتجول على شواطئ البحيرات المصرية يتأمل القش المصرى ويعجب به، وعندما وصل إلى بحيرة أدكو ورأى مصانع راكتا للورق أخذ يجوس بين أكوام القش ومصانع الورق. ثم نظر إلىّ وقال: لقد أنشأتم هذا المصنع سنة ١٩٨٨م والورق الذى صنعتموه ممتاز. فلماذا توقفتم عن السير إلى الأمام بهذه الصناعة؟ قلت له: يقولون عندنا إن هذا هو أعظم ما يمكن إنتاجه من الورق فى مصر. لأن كميات القش عندنا محدودة.

قال الرجل : هذا كلام لا يمكن أن يقال، وقد كان الناس عندنا يقولون إننا لا نستطيع أن ننتج فى ألمانيا إلا كميات قليلة من الورق خوفًا على الغابات، وكان هذا يقال فى أوائل هذا القرن، والخوف على الغابات عندنا كان – ولا يزال شديدًا – وها أنت ذا ترى أننا نهضنا بزراعة الغابات فى ألمانيا واستمرت صناعة الورق فى بلادنا، وكل الزراعات والصناعات الكبرى فى العالم لايمكن السير فيها إلا بدراسة استراتيجيتها ، فهل درستم استراتيجية البحيرات المصرية؟ لا أظن، لأنكم لو درستم استراتيجية بحيراتكم لوجدتم أن البحيرات المصرية تستطيع أن تقدم لمصر ولعلماء الأراضى فى العالم تكنولوجيا عظيمة لاستغلالها، فأنتم لديكم ثروة هائلة من البحيرات والمستنقعات، هى فى ذاتها ثروة،

وهذا ما قاله الرئيس مبارك فى خطابه الـذى أتحـدث عنـه الآن: لابـد أن تتجاوز أمتنا مرحلة التراجع العلمى (والعملى) التى تعيشها اليوم ، وكيف تظل بلاد إسلامية من أكثر بلاد العالم أمية، فـى حـين أن بـلادا إسـلامية أخرى تقنع بالعيش فـى حالـة التبعيـة العلميـة أو الماليـة للأمـم المتقدمـة، وهناك بلاد عربية إسـلامية كثـيرة رزقـها الله ثـروة بترولية كـبرى، فـهى تكتفى بأن، تشترى ما تريد بهذا البترول، وهذا لا يصـح ولا يليـق، ولابـد أن تشترى هذه الدول الصناعة بالمال. . بأن تربى شبابها على العلم والعمل والتجربة بالبد، لأن البترول فى ذاته لابد أن يفرغ فى يوم من الأيـام، لأن الغربى الذى يعاوننا ويقرضنا المال يجتهد فى خفـض سـعر البـترول ورفـع أثمان بضاعته حتى نظل دائما فى التبعية له. ومن أجمل مـا قـال الرئيـس مبارك فى خطابه هذا.. ذلك لا يليق بنا لأننا نستطيع أن تخطـو خطـوات واسعة فى السيطرة على علم العصر وتكنولوجيتـه) وذلـك لتعـود أمتنـا فـى أقـرب وقـت إلى عصـر التفـوق العلمـى للمصريـين والمسـلمين وتسـترد أمتنـا مكانتها التى كانت تحتلها فى عهود العلماء الرواد الذين أصبحـوا – بمـا أبدعوا للإنسانية – من الخالدين.

وأنا عندما أردد هنا خطاب السيد الرئيس بمناسـبة ليلـة القـدر لا أقـوم بعمل زخرفى أو أزيد من قدر الرئيس. فإنه ليـس فـى حاجـة إلى كلامـى، ةقد وصل إلى مستوى قادة العالم بموهبة عظيمة فيه، فالسيد الرئيـس يـرى الأشياء رؤيا حقيقية وسليمة بفضل قدرته علـى رؤيـة الحقـائق واسـتطاعته التحدث بصدق وعمق وبساطة فى كل مناسـبة، ومـا مـن زعيـم مـن زعمـاء العالم تحدث إلى مبارك إلا أثنى عليه، وقال إنه استفاد مـن حديثـه معـه، وفى خطابه هذا بالذات استمعنا إلى عبارات أحسسـت وأنـا أسمعـها أننـى مع حكيم من حكمـاء عصرنـا ، وأن كـل عبـارة فـى هـذا الخطـاب تعتـبر توجيها سليما لنا فى عصرنا هذا المضطرب.. فاستمع مثلاً إلى قولـه إن مـن مراجعة النفس فى أمانـة، ومـن نقـد الـذات فـى شـجاعة أن نعـترف دون

حساسية (أو تردد) بأن أمتنا الإسلامية – وإن كانت لا تزال بخير والحمد لله فإنها فى الوقت الحاضر تعانى من بعض العقبات التى تقف فى طريق نهضتها وأنها تواجه من داخلها بعض السلبيات التى تكاد تنحرف بها عن أهدافها الكريمة التى تسعى جاهدة للوصول إليها، وهذه العقبات وتلك السلبيات تحتاج إلى تضافر القوى ومضاعفة الجهود لكى نخلص منها أمتنا ونبرئ منها ساحتنا، وأن من الأمانة مع النفس أيضًا، ومن شجاعة نقد الذات كذلك أن نعترف بأن هذه السلبليات إنما أصابت الأمة الإسلامية بسبب بعد كثير من أبنائها عن جوهر القرآن الحق، وعن تعاليم الإسلام الصحيحة، ويلفت نظر كل مسلم غيور على أمته وحاضرها ومستقبلها إلى بعض تلك السلبيات الصارخة التى أوشكت أخيرًا أن تمثل ظواهر مرضية.

وهذا كلام لا يقوله إلا رجل مدرك للحقائق وصريح وحاسم وقادر على مواجهتها، ومن حسن حظنا أن الرئيس مبارك من الرجال الذين يدخلون التجارب ويدخلون فى علاقات مع الناس ، ويفيدون من التجارب ومن العلاقات بالناس، وقد دخل مشكلة العدوان على الكويت دخولا شهمًا حافلاً بالشجاعة وسلامة الرؤية وقام بدور أثنى عليه أهل العالم جميعا، وقد قام بهذا الدور إكرامًا للعروبة والإسلام، وبعد أن اشترك اشتراكًا حقيقيًا ظاهرًا فى تحرير الكويت من العراق عاد إلى مصر وظل صامتًا ، ومصر هى التى تحملت نفقات هذا العمل الكبير، ولم يطالب أحد الكويت بشىء لأن معاملة إخواننا البلاد العربية واجب رئيسى من واجباتنا، وها نحن أولاء اليوم نواجه المشكلة الليبية، وقد صارحت إنجلترا وفرنسا وأمريكا بلاد العالم باتهامها ليبيا بالاشتراك فى تدبير حادثتى تفجير طائرتين فوق اسكوتلاندا ونيجيريا، وأنكرت ذلك ليبيا، ولكن تصرفها يختلف عما نراه نحن المصريين، فما معنى حرق سفارة فنزويلا لأن سفيرها فى واشنطن هو رئيس مجلس الأمن فى الفترة الحالية، وما دخل فنزويلا فى تصرفات رئيس مجلس الأمن، ومن الذى قال للجماهير إن سفير

فنزويلا هو رئيس مجلس الأمن الآن ، ولابد أن سفارة فنزويلا فى طرابلس ليبيا شقة صغيرة يمر بها الإنسان دون أن ينبه لها، وهاهى ذى ليبيا تعتذر عن ذلك، وتعتذر للولايات المتحدة ولإنجلترا ولفرنسا فى نفس الوقت عن حرق السفارات، ولكن فيم تنفع الاعتذارات بعد احتراق السفارات وضياع الأوراق، ومن هنا فلابد من الحذر عند التدخل فى مثل هذه المشاكل، وهذا هو ما يفعله السيد الرئيس مبارك الآن خاصة ومصر الآن عادت راعية للجامعة العربية ، وأمانتها العامة عندنا وأمينها العام مصرى، والله يعلم أننى ما كنت أؤيد عودة الجامعة العربية إلى مصر، فإن مصر لا تفيد من وجود الجامعة فيها إلا فائدة قليلة، وقد حضرت تصفية الجامعة عندما نقلوها إلى تونس، فقد كانت الجامعة تقوم إذ ذاك بعمل ثقافى وأشركونى فيه، وقد شهدت التحويل عن قرب، ورأيت أن المصريين الذين كانوا يعملون فيها إذ ذاك لا يزيدون عن المائة إلا بقليل، نصفهم فراشون والنصف الآخر موظفون.. كانوا قد عينوا فى الجامعة بوساطات.. ولهذا فأنا لم أحزن على ذهاب الجامعة إذ ذاك إلى تونس من انتقال بعض المصريين إلى بلاد عربية للحاق بوظائفهم التى نقلت إليها الإدارات التى كانوا يعملون فيها، بل إن منظمة الثقافة العربية الداخلة فى الجامعة دعتنى إلى دوراتها مرتين فلم أرحب بالدعوة ولا ذهبت ونرجو أن يمر الأمر بسلام هذه المرة.

وقد أشار الرئيس مبارك إلى ذهول الناس عندنا عن بعض الحقائق الأساسية الخاصة بالإسلام فقال محذرا المسلمين من الخروج على سلوكيات الإسلام.. إن بعض المسلمين يقومون بالاعتداء على المخالفين لهم فى الرأى، بل يصل بهم الأمر أحيانا إلى إزهاق أرواح من لا صلة لهم أصلا بالآراء المتنازع عليها كبعض المواطنين البسطاء المسالمين، وبعض رجال الشرطة الذين يحرسون أمن الوطن ويسهرون على حماية المواطنين ولا ينحازون إلى فكر معين، ولا يتعصبون لرأى خاص؛ فكل تفكيرهم منصب على أمن الوطن وسلامته، وكل رأيهم وهمهم هو أن يعيش أبناء هذا

الوطن مطمئنين على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم وكل حقوقهم، وهذا الكلام الحكيم أشبه بأن يكون رثاء للضابط المصرى الشهم الذى استشهد فى الفيوم عدوانًا عليه.. وعقابًا له على حرصه على حماية أبناء هذا الوطن.. فما ذنبه ولماذا يعتدى عليه؟!

والله سبحانه وتعالى أن قلوبنا جميعا قد حفلت بالحزن عليه، لأنه كان فعلا مواطنا عظيما وبطلا من أبطال هذا الوطن، والأوطان لا تعيش بسلام إلا بفضل مثل هذا المواطن العظيم، ومصر قد اشتهرت طوال تاريخها بشهامة رجال البوليس فيها ووطنيتهم، وأذكر أننى عندما كنت فى المدرسة الابتدائية فى بنها اشتركت فى مظاهرة صبيانية، وهجم علينا رجال البوليس وأصابتنى ضربة عصا على كتفى فوقعت على الأرض وتجمعت جانب الحائط، فأتى الشرطى الذى ضربنى وأقامنى على قدمى وأخذنى إلى بيته حيث قامت امرأته بالعناية بى، وربطت لى كتفى، وقام زوجها بإقتيادى إلى دارى حيث رقدت إلى الصباح أعانى من ألم الضربة التى أصابتنى، هذا ولابد أن أقول إن الدنيا تغيرت تغيرًا عظيمًا اليوم عما كانت عليه أيام كنت فى المدارس الابتدائية والثانوية بل الجامعة، ففى ايامنا كانت الآلة الكاتبة تقدمًا كبيرا جدًا، وأنا عندما تعلمت استعمال الآلة الكاتبة تقدمت فى جيلى تقدمًا بعيدًا، ولم يعد أحد من زملائى يفكر فى التقدم علىّ، وكنت استخرج من الكتب ومن كلام الأساتذة ملخصات قيمة اكتبها نسخا وأوزعها على من أحب من زملائى. وأذكر أننى كنت أحمل واحدة من هذه النسخ إلى زميل طيب لى كان يسكن فى شارع صغير من شوارع حى باب الشعرية، وكنت أحب هذا الزميل وأحرص دائمًا على أن يسير إلى جانبى فى الدراسة خطوة خطوة، فقد كان أبوه يعمل فى مصلحة البريد، وكنت وأنا فى الثانية الثانوية أرسل خطابات أكتبها بخط يدى بالإنجليزية إلى بعض الشركات الإنجليزية فى لندن اشترى منها أشياء من الصناعة البريطانية، وقد تعلمت المواظبة واتقان الخطابات من هذه الشركات، أما فى أيامنا هذه فقد أصبحت الآلة الكاتبة شيئًا متأخرا

جدا ، وأظن أن معظم من حولى يكتبونها وقد تعلمت كتابة الآلة الكاتبة الأفرنجية بجهد شديد ، ودهشت ذات مرة إذ جاءنى خطاب من إحدى هذه الشركات يقول : إذا كانت هذه كتابتك فنحن نرجوك أن تتصل بمكتبنا فى شارع المناخ رقم ٢٢ بالقاهرة فربما وجدت عندهم عملا لك لا بأس به ، فأخذت الخطاب وذهبت إلى ذلك المكتب فى شارع المناخ وهو اليوم شارع ثروت ، فاستقبلونى استقبالاً طيبًا وأعطونى عملاً كتابيًا ، وقد أفدت منه فائدة حسنة إلى جانب الراتب الشهرى وكان قدره ثمانية جنيهات فى الشهر، ومع أن والدى كان يعطينى مصروفًا شهريًا قدر – خمسة جنيهات إلا أننى رحبت ترحيبًا كبيرا بهذه الجنيهات الثمانية، وكنت إذ ذاك فى السنة الأولى الثانوية، فكنت أفرغ من الدراسة حوالى الظهر فأذهب إلى ذلك المكتب، وكان يعمل فيه شاب سورى فيما أظن، ومع أنه ما كان ينبغى أن يخاف منى، لأنه كان موظفًا قديمًا فى هذه الشركة ولكنه تخوف منى كثيرًا، وضايقنى مضايقة شديدة، وقد اجتهدت فى الاقتراب منه وطمأنته، ولكنه لم يطمئن ابدا، لأن الغيرة كانت جزءا من أخلاق عصره، وكنا إذ ذاك تحت الاحتلال البريطانى وكان وجود إنجلترا فى بلادنا يضايقنا جدا، إلا ذلك الرجل السورى فقد كان الرزق أهم شىء فى الوجود عنده، وقد وجدته دائما بعيدا عن قلبى لأنه لم يكن يكره الإنجليز، وقد تعلمنا حب مصر والمصريين فى ذلك العصر، وأنا من ذلك العصر الذى تعود على حب المصريين والإحساس بأنهم شعب فاضل حسن الصورة المادية والمعنوية، فشعب مصر شعب طيب كريم، وما من إنسان وفد علينا فى بلادنا وعاصرنا إلا أحبنا. وشعر أننا شعب لطيف طيب، وهذه الطيبة كانت تنفعنا إذ ذاك وتعيننا على العيش.

والرئيس مبارك كان يتحدث فى خطابه الذى قرأت عليك بعض فقراته إلى هذا الشعب المصرى الطيب فهو فى ذاته زعيم مصرى طيب بليغ ،ومن أهم مظاهر طيبته أنه يفضل دائما أن يتحدث إلى من يريد حديثا مباشرا صريحا، وأنت تجده فى رحلة قومية دائمة، وفى هذه الأيام التى أكتب

لك فيها هذا المقال يقوم الرئيس برحلة إلى إيطاليا والبرتغال وتونس، وهذه كلها شعوب بينية أى تتوسط بين الأمم، ومع أن البرتغال من أفقر بلاد أوربا إلا أنها من أنجحها، وعلاقتها مع أسبانيا لم تكن دائما علاقة طيبة، وكانت أسبانيا فى العصور الوسطى لا تحبنا بسبب حرب الأندلس التى لم نحسن القيام بها وخسرناها، وقد عشت كثيرًا جدا فى أسبانيا وأحببت شعبها وأعجبت بفتحه المكسيك وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ، وأنا من المصريين القلائل الذين زاروا الأمريكتين: الوسطى والجنوبية وعرفوا شعوبهما، وقد أحببتها كلها لأنها تشبه شعبنا المصرى تماما، وأنا أشعر براحة عظيمة عندما أجد نفسى فى كولومبيا مثلاً، فهذا بلد قريب جدا من بلدنا مصر، وشعبها يشبه الشعب المصرى ، فإن أساسه من الأمريكيين الأصلاء الذين يعرفون بالهنود الحمر، ومن طريف ما يلاحظ أن شعوب أوروبا الغربية مثل إنجلترا وفرنسا عندما دخلت العالم الأمريكى بدأت بالقضاء على سكانها الأصليين الذين كانوا فى غاية الطيبة، لأن هؤلاء المستعمرين فى أعماق نفوسهم ظلمة مستبدون، ولهذا فإنك تجد الولايات المتحدة شعبا أوروبيا شكلاً وموضوعًا، والمكسيك تحاول أن تكون اليوم شعبا أوربيا وتطارد الهنود الحمر. وهذا خطأ وعندما كنت فى البرازيل قمت بزيارات طويلة لقبائل الهنود الحمر فيها وأعجبت بها وأحببتها، ومن أسف أن شعب البرازيل أخذ روح العدوان من شعب البرتغال، واتجه من زمان بعيد إلى القضاء على هنوده الحمر، وقد أنكرت عليه ذلك وكتبت فى صحف فنزويلا والبرازيل والمكسيك أدافع عن الهنود الحمر، وأدعو إلى حسن معاملتهم والمحافظة عليهم، لأنهم يشبهون شعبنا فى طيبة القلب وسلامة الأحاسيس، وهم يحتاجون إلى زعامة كريمة مثل زعامة الرئيس مبارك، فهذه زعامة كريمة صريحة تخاطب قلوب الشعوب وتقودها فى عالم الخير.

(١٣)
لن ينتصر اليهود علينا ولن ينشئوا وطنهم اليهودى فى عالمنا العربى*

فى أيامنا هذه يكثر عدوان اليهود علينا. والعدوان لا يقتصر على إقليم غزة وبقية أرض فلسطين التى يحتلها اليهود من سنة ١٩٦٧م ، ولكنه يمتد إلى أرض لبنان ، ففى كل يوم نقرأ عن إلقاء اليهود القنابل على مدينة صور وما حولها وإقليم التفاح وكل مكان فى لبنان ينزل به رجال حزب الله ، ومن الواضح أن ذلك كله يرجع إلى استضعاف اليهود للعرب وجرأتهم عليهم ، وهذا لا يجوز ، فإن العرب مشهورون بالشجاعة والقوة منذ حملوا راية الإسلام وفتحوا الدنيا وأنشأوا عالم الإسلام الواسع الذى يمتد من بلاد الهند إلى المحيط الأطلسى وفتحهم للأندلس الذى كان عملا عسكريًا عظيمًا لا يكاد يصدق ، بل إن اللبنانيين الخونة الذين يحالفون اليهود اليوم ويحتلون باسمهم شريطا فى جنوبى لبنان يسمى الشريط المحتل ، هؤلاء اللبنانيون عار علينا ولا يجوز لهم أن يسموا أنفسهم عربا لأنهم يخدمون الإسرائيليين ويحتلون جزءا من بلادهم لبنان باسم اليهود ، وإخوانهم اللبنانيون يدعونهم إلى ترك خدمة إسرائيل وإعلان استقلال الشريط المحتل وضمه إلى لبنان الذى استعاد استقلاله وشرع أهله العظماء فى بناء وطنهم ، ونحن – كل العرب – نخجل من ذلك الشريط المحتل لأنه غير معقول ، والعرب لا يجوز لهم الخضوع ليهود محتلين بل لا يجوز لهم أن يتركوا اليهود يغزون إقليم التفاح أو إقليم البرتقال من أرض لبنان ، فكلنا نعرف أن اليهود أضعف من العرب بكثير ولا يجوز أن يفكروا فيما يدور برءوسهم اليوم من إنشاء وطن يهودى كبير فى قلب الوطن العربى.

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢١ يونيو ١٩٩٢م .

وأنا لا أتردد اليوم فى القول بأن ذلك الوطن اليهودى الضخم لا يمكن أن يقوم فى قلب الوطن العربى ، لأننا – نحن مؤرخى الإسلام – نعرف مدى قوة العرب وإمكاناتهم فى بناء التاريخ ، فإن عرب القرن الأول من تاريخ الإسلام فتحوا الدنيا فى ذلك العصر فى أقل من نصف قرن ، والفرس الذين كانوا إذ ذاك يفخرون بأنهم أقوى دولة فى التاريخ تدهوروا أمام العرب الفاتحين ومضت بقيتهم هاربة من العراق إلى إيران لتهزم انهزاما نهائيا على يد سعد بن أبى وقاص فى نهاوند فى المحرم سنة ١٩ هجرية – يناير ٦٤٠ ميلادية. أما الإمبراطورية الرومانية فقد كانت هزائمها أشمل ، فبعد أن اجتاح المسلمون جنوبى فلسطين تجمعت جيوشهم فى أجنادين جنوب غربى بين القدس ومن أجنادين هزم المسلمون جيوش الروم بقيادة خالد بن الوليد فى جمادى الأولى سنة ١٣ هـ / ٣٠ يوليو ٦٣٤ م. وفى ٥ رجب سنة ١٥ هـ / ١٢ أغسطس ٦٣٦ م انتصر المسلمون على الروم انتصارا ساحقا فى اليرموك وأصبحت بلاد الشام كلها إسلامية ، ومن بلاد الشام سار العرب إلى مصر وفتحوها ثم فتحوا بلاد المغرب كلها وتوجوا هذه الفتوح العظيمة بفتح الأندلس وأقاموا فيها دولتهم الكبرى التى تعتبر جوهرة سياسية وحضارية سنة ١٣٨ هـ / مايو سنة ٧٥٦ م وأمة يكون هذا مسيرها فى التاريخ لا يمكن أن تنهزم أمام جماعة من اليهود تجمعت فى فلسطين بفضل الإنجليز وجمعت سلاحا مخيفا بأموال تجمعت من الجاليات الإسرائيلية فى الدنيا كلها ، وبفضل هذا السلاح حصلت على معاهدة تعطيها جزءا من أرض فلسطين. ولكنها اليوم ، وبعد أن رأت اختلاف العرب بعضهم مع بعض واعتمادا على أمريكا تتكلم فى التهام فلسطين والشام كلها وربما فكرت فى العودة إلى الصراع مع مصر لكى تحقق حلما سخيفا فكر فيه طماعون من اليهود على رأسهم هيرور الذى حاول خداع السلطان العثمانى وإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين فرفض الخليفة العثمانى. وقال إن الفلسطينيين يحاربون – أيامه – فى سبيل الدولة العثمانية ، فكيف يأذن هو لليهود بدخول فلسطين ، ولكن إنجلترا

التي ورثت فلسطين من الدولة العثمانية سمحت لليهود بدخول فلسطين وبدأت بذلك كارثة في تاريخها لأن أول مندوب سام إنجليزى على فلسطين وهو صمويل هربرت كان يهوديًا ، وقد مرت القضية الفلسطينية من ذلك الحين بعصور حزينة نحن نرفضها ونؤكد للدنيا كلها أننا سنستعيد فلسطين كاملة ، وفي يوم من أيام لن يكون هناك في أرض العرب شيء يسمى إسرائيل ، وإذا كان عرب اليوم عاجزين عن مواجهة هذه الكارثة فلابد أن يكون هناك في السنوات القادمة أجيال جديدة من العرب تحسن تمثيل الوطن العربى وتبعد عنه الأخطار.

وأنا أقول ذلك ، ومن حولى عرب يريدون الاتفاق مع الإسرائيليين بأى ثمن ، ونحن الذين نعرف قدر العرب نرفض ذلك ونقول: حذار! فإن الوطن العربى لا يمكن أن تتصرف في أرضه هذه الدولة التى أنشأها اليهود بالمال ، ونحن اليوم عندنا المال ، ونستطيع أن نجمع من السلاح ما يلزمنا من القوة ما نحن بحاجة إليه لتحطيم إسرائيل وكل أنصارها ، ونحن الذين قضينا حياتنا مع التاريخ نعرف كما قلت قدر العرب ونؤكد هذا الذى قلته لأن الله سبحانه وتعالى عندما اختار أن يكون آخر أنبيائه من العرب يعرف أن أحدا لا يستطيع هزيمة العرب والإسلام. وقد وهب الله سبحانه العرب من القوة ما مكن لهم من فتح الدنيا ونشر الإسلام ، وهو سبحانه قادر على أن يؤيدهم اليوم ليعيدوا بناء دولة الإسلام على رقبة إسرائيل.

ونحن كلنا نعرف أن الكرة الأرضية كلها الآن في خطر ، وإن شعوب العالم الثالث وأكثر أفرادها جهلاء يعملون كل ما لا يتصوره العقل للقضاء على خيرات الكرة الأرضية. والسبب الأكبر في ذلك هو نمو السكان. فلسنا نحن وحدنا في مصر تعانى من ذلك الخطر بل إن كل بلاد أفريقيا وآسيا وأمريكا الوسطى والجنوبية يزداد سكانها اليوم بصورة لم يكن أحد يتوقعها. فإن الأوبئة والأمراض الكثيرة كانت تساعد على توازن إعداد السكان أما الآن وقد تقدم الطب وقضى على الأوبئة وأمراض الموت فإن

البشر على الأرض يزدادون بنسبة عالية جدًا. وفى مقال طريف جدا نشره أنيس منصور فى جريدة الأهرام (١٩٩٢/٦/٢) نقرأ: وأخطر ما يواجهنا هو زيادة عدد السكان ففى الخمسين سنة القادمة سوف يزيد سكان الأرض من ٥,٥٠٠,٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ إنسان ثم إن استهلاك الإنسان لخيرات الأرض يتضاعف بصورة خطرة على مصير الإنسانية ففى مصر مثلاً يفطر الإنسان برغيف خبز لا يزيد وزنه على مائة جرام ومعه نحو خمسين جراما من الفول بالزيت والجبن ، أما فى إنجلترا أو فرنسا مثلا فإنهم يأكلون الخبز بالزبد ولابد فى الإفطار من بيضتين مقليتين فى الغالب أما فى معظم بلاد أفريقيا فأنت لا تعرف ماذا يأكل الناس والأغلب أنهم يلتهمون كل ما يجدون دون تقسيم إلى إفطار أو غداء أو عشاء. وقد زرت روديسيا من عام وشهرين لحضور مؤتمر والمؤتمر نفسه لم يكن له أى لزوم فإن بلاد أفريقيا تعقد المؤتمرات ليتاجر بعضها مع بعض وبعد المؤتمر أخذت الطائرة إلى الترانسفال وقضيت يومين فى بريتوريا ومنها إلى بيرا فى موزمبيق ومن هناك إلى الخرطوم ثم إلى مصر ولا أصور لك ماذا كنا نأكل فى فنادق النجوم الخمسة التى كانوا ينزلوننا فيها إنه شىء فوق الفخامة وأنا الذى لا آكل نصف الطعام الذى يقدم لى هنا كنت أترك المائدة وعليها أكل يكفى ثلاثة أشخاص وكنت فى كل بلد من هذه أزور الأحياء الشعبية وأتمشى فيها وأتعجب من الجوع وسوء الحال ، وقد ذهبت إلى منزل صديق من سالزبورى ساعة العشاء ولم آكل شيئًا لأن الطعام الذى قدم لى كان لا يؤكد بل أنت لا تدرى ما هو ولكن كل بلد من بلاد أفريقيا وإن كان صغيرًا لابد أن يكون فيه مركز عظيم وفخم لكل مذهب من مذاهب المسيحية لأن أوروبا وأمريكا تبذلان أقصى ما تستطيعان لتحويل أفريقيا إلى قارة مسيحية وها أنت ذا نرى ماذا يفعلونه فى السودان حيث تقف الدول الأوروبية وأمريكا إلى جانب الثورة التى يقودها جون جارانج على حكومة الخرطوم ونحن نسميها ثورة الجنوب السودانى ولكنها فى الواقع تمثل حوالى نصف السودان وهذا هو الذى جناه السودان من الاحتلال الإنجليزى

البغيض ونحن المسلمين لا نبذل أى مجهود لنشر الإسلام هناك لأن عقيدتنا الإسلامية تقول إن المسلم لا يدخل أحدًا فى الإسلام لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يدخل الناس فى دينه وعملنا نحن البشر لا يزيد على الدعاية وفتح الأبواب للكفار ليدخلوا. ولا أصور لك سوء الحال فى تشاد التى حاربها أخونا الليبى سنوات طويلة لكى ينتزع منها حزاما من الأرض فى الشمال وكان يزعم أن هذا الجزء من تشاد غنى بالمعادن.

وهو لم ينتصر على تشاد لأن فرنسا كانت ومازالت تدافع عن تشاد ولها إلى يومنا هذا قوة عسكرية فى فورت لامى أو نجامينا لامى عاصمة تشاد على بحيرة تشاد وقد زأرنا فى مصر رئيس جمهورية تشاد ورأينا إنه رجل محترم وصديق عظيم وقد شكا لنا من القذافى وما كان يفعله بتشاد وقد أحسنت مصر استقباله والكلام معه والرجل أعلن أنه تشادى أفريقى وأنه يفتح أبواب بلاده لمن يريدون الدعاية للإسلام فيها وبطبيعة الحال توقفت ليبيا الآن عن الحرب مع تشاد لأنها هى نفسها مهددة من أمريكا ودول أوروبا بإنزال العقاب عليها على إسقاط طائرة أمريكية فوق لوكربى فى اسكتلندا وقتل حوالى ٣٠٠ مسافر بريء وأسقط رجال ليبيون كذلك طائرة فرنسية فى سماء النيجر وقتل نحو مائتى مسافر مسكين ونحن المسلمين لابد أن نوقف مثل هذا الهجوم ونركز جهودنا على نشر الإسلام ومعاونته فى بلادنا لكى نستطيع الثبات فى عالم العدوان الذى نعيش فيه اليوم.

ولا شك أنك سمعت عن مؤتمر «قمة الأرض» ينعقد الآن فى ريودى جانيرو بالبرازيل والدنيا كلها تجتمع هناك لكى ترى ماذا تفعل لكى تحمى الأرض من الإنسان فقد ثبت الآن أن الإنسان أبشع الحيوانات التى تعيش على الأرض وكنا فى الماضى نستعيذ بالله من السباع والنمور والفيلة ونسمى هذه كلها حيوانات مفترسة ولكننا نرى الآن أن الحيوان المفترس حقا هو الإنسان: فالإنسان الأوروبى والأمريكى الذى نسميه بالإنسان المتقدم المتحضر يهلك الأرض بتطوره الصناعى المخيف الذى يهلك الغابات

فى بلاده بالغازات التى تتصاعد من مصانعه وتلك الغازات تتصاعد لتمزق طبقة الأوزون التى تحمى الأحياء من أشعة الشمس الخطيرة فإن تلك الأشعة إذا وصلت إلى الأرض فيمتصها غاز ثانى أوكسيد الكربون فترتفع درجة حرارة الأرض ويكون الجفاف الذى يؤدى إلى الجوع وموت الملايين وهاهم أولاء فى أوروبا وأمريكا بعد أن قضوا على أكبر جانب من الغابات فى بلادهم يعملون اليوم على إعادة زرع الغابات التى قضوا عليها والمحافظة على بقايا الغابات التى نجت من الموت ونحن نعرف أن الغابات مناطق خير وحياة فكل شجرة يعيش فيها وعليها عشرات النباتات والحيوانات والطيور وقد كنت وأنا فى سويسرا أقضى ساعات فى الغابات وأتعجب من ضخامة الحياة التى يمكن أن تقوم فيها ولكنى عندما دخلت بلاد أمريكا الجنوبية وزرت غابات شاسعة مثل غابات دورادو شرقى مصب نهر الأمزون دهشت من جمال الحياة هناك فإن سكان تلك الغابات هنود أمريكيون وقد تعودوا على الحياة فى الغابات وهم لا يعرفون العدوان على الغابات فلما جاء الأوروبيون واحتلوا البرازيل شرعوا فى تعقب الهنود الحمر فى داخل البلاد والعدوان عليهم حتى ترددت الصيحات بضرورة المحافظة على الهنود الحمر من الإبادة فعدت إلى البرازيل سنة ١٩٦٨م وهناك وجدت أن عدوان البشر لا يهدد الهنود وحدهم بل يهدد الأرض كلها وتبينت أن البرازيليين الذين كانوا يقومون بحركة القضاء على الهنود الحمر يعملون فى خدمة شعوب أقوى منهم وأكبر تقدما وأشد وحشية مثل الولايات المتحدة.

فإن سكانها يمثلون ٥٪ من سكان الأرض ولكنها تسيطر على ٢٥٪ من مصادر الخير أو القوة على الأرض. فإنها تملك ٢٥٪ من الكهرباء ومصادرها على الأرض وتستخدم هذه النسبة العالية من الكهرباء ووسائل الحرارة وتستغل ٣٪ من هذه الثروة الصناعية لصالح شعبها الأمريكى وتستخدم ٢٢٪ منها فى السيطرة على أجناس الأرض وثرواتهم. وإذا كنا نلوم البرازيليين على العدوان على الهنود الحمر فلا ينبغى أن ننسى أن

الأمريكيين وراء البرازيليين ، أى أنهم أكبر المسئولين عن الشر الذى يصيب الأرض والبشر ، وإذا كنا الآن نشكو من أن الكرة الأرضية تزداد حرارتها كل سنة بنسبة خطرة على الحياة ، وأن استخدام الأمريكيين ووراءهم سكان الأرض جميعا للبنزين المشبع بالرصاص هو السبب الأكبر فى القضاء على الأوزون الذى يحمى الإنسان من حرارة الشمس ، وكان الأمريكيون يعارضون أول الأمر فى عقد هذا المؤتمر فى ريودى جانيرو حتى لا يتضح عدوانها على الأرض ومن فيها ولكن الرئيس بوش تبين أن هذا المؤتمر سينفع أمريكا أكثر مما يضرها فى آخر الأمر ولهذا فقد أعلن الرئيس بوش أن أمريكا ستحضر هذا المؤتمر سواء حضر بنفسه أو ندب أمريكيين لحضوره ودخل الأمريكيون دائرة البحث عن وثائق وبالفعل جمعت بنيويورك وحدها ٢٤ مليون صفحة الوثائق وقام بهذا العمل موريس سترونج وهو كندى وهو سكرتير عام هذا المؤتمر الخطير. والناس اليوم قبيل المؤتمر يؤكدون أن قمة الأرض ستكون من أخطر ما جمع من مؤتمرات دولية إلى اليوم وأنه سيكون له أثر بعيد فى تاريخ الكرة الأرضية.

إن اللّه سبحانه كان يعرف أن الشيطان عدو الإنسان ، وأن تلك العداوة ستكون محورا من محاور حياة الإنسان على الأرض وما كان أمر الله لابليس بأن يسجد لآدم إلا وسيلة ليعرف الإنسان قدره وموقف الشيطان منه فقد جاء فى سورة يوسف: ﴿قال يا بنى لا تقصص رؤياك على أخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ (٥/١٢) ثم إن الله يعرف أن الإنسان مشحون بالعيوب ، فهو ظلوم كفار ﴿الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾ (إبراهيم ١٤ ٣٢ ٣٣ – ٣٤) ثم أن الله سبحانه يقول عن الإنسان فى سورة الإسراء ١٧ آية ١١ ﴿ويدع

الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا﴾ ﴿وهذا أيسر ما ورد من عيوب الإنسان فى القرآن الكريم فهو كفور مبين﴾ (سورة الزخرف ١٥/٤٣) وهو هلوع (المعارج ٧٠ / ٩١) بل نقرأ فى سورة عبس (٨٠ / ١٧) ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ بل هو يكفر بربه الكريم فنقرأ فى سورة الانفطار (٦ /٨٢) ﴿يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾ ونحن نعرف بالذات أن الله سبحانه يعرف هذه العيوب كلها فى الإنسان ولهذا أرسل هذا العدد العظيم من الأنبياء والكتب السماوية وآخرهم محمد صلوات الله وسلامه عليه حامل القرآن إلى البشر ، والقرآن والسنة النبوية هما خير دليل للإنسان على الخير كله والحياة السليمة. وها نحن أولاء نرى كيف أن عيوب الإنسان وسبل علاجها هى غاية هذا المؤتمر الذى استدعى جهدا بشريا ضخما جدا ليكون حقيقة ، بل أن الكثيرين من المفكرين يخافون أن يتحول هذا المؤتمر إلى كارثة دبلوماسية خطيرة ومثارا لنزاع خطير بين الشعوب الصناعية التى تتمتع بثمانين فى المائة من خيرات الأرض والشعوب الفقيرة التى تمثل ٨٠ فى المائة من البشر وتجاهد لتحرير نفسها من استبداد الأمم الغنية القوية.

ولقد سبق مؤتمر الأرض هذا مؤتمر أرض أول عقد من عشرين سنة فى استوكهولم فى السويد وهذا المؤتمر هو أساس مؤتمر اليوم. فإن الناس عندما اجتمعوا فى استوكهولم تبينوا أننا فى حاجة إلى معلومات كثيرة عن الأرض والناس ولهذا فقد تأسست عشرات الجمعيات التى أرسلت مئات الناس لجمع المعلومات والوثائق عن الإنسان والأرض والإنسان وفى أيام مؤتمر الأرض الأول كان العداء شديدا بين الشرق والغرب أما مؤتمر اليوم فإن الصراع فيه سيكون بين الكتل الثلاث القوية وهى غرب أوروبا والولايات المتحدة واليابان مجتمعة من ناحية ومعظم شعوب أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية من ناحية أخرى أى بين الأغنياء والفقراء.

وإذا نحن تأملنا الحضارة الإنسانية من فجر التاريخ إلى اليوم وجدنا أن الصراع كان مستمرا دائما بين الأقوياء والضعاف بين الأغنياء والفقراء ، وفى عصرنا هذا لا نجد الفرق كبيرا بين من نستطيع أن نسميهم أغنياء ومن نسميهم فقراء ، حقًا إن الولايات المتحدة وغرب أوروبا واليابان أقوى وأغنى من بقية الإنسانية ولكننا لا نرى أن الدول الغنية القوية غنية بالفعل، والحقيقة كل دول الدنيا غنية وفقيرة فى آن واحد ، حقًا أن إنجلترا وفرنسا نهبتا الدنيا خلال القرن التاسع عشر ولكنهما اليوم ليستا أغنى ولا أقوى من غيرهما ، وإذا أنت كنت فى لندن ومعك جنيه إنجليزى فأنت بالكاد تستطيع أن تفطر به وهذا هو حالك إذا كنت فى القاهرة ومعك جنيه مصرى فأنت تستطيع الإفطار به ومعنى ذلك أن إنجلترا إذا رجعت إلى الحق ليست أغنى من مصر بل ليست هناك فى النهاية بلاد غنية ولا فقيرة وإنما دول يتصارع بعضها مع بعض ولا أحد منهم فى النهاية يسود الأرض أو يقود الآخرين. واليهود الذين يحلمون بأن ينشئوا لأنفسهم دولة قوية فى أرضنا ويعتدون علينا كل يوم لن يوفقوا إلى شىء فى النهاية والمهم. إننا نحن العرب لابد أن نشعر أننا إذا تجمعنا فلن تستطيع إسرائيل فى النهاية أن تتغلب علينا خاصة وأنها فى اجتهادها لتبنى وطنا يهوديا فى الوطن العربى لن توفق فى ذلك أبدًا ومرحبًا بالصراع معهم لكى نقضى عليهم فى النهاية لتحرير وطننا العربى. □

(١٤)

يعنى إيه الشيوعية ماتت !*

الذى قال هذه العبارة هو بوريس يلتسين وهو رئيس روسى عريق ، وأصله شيوعى وأبوه شيوعى ، وجده كمان شيوعى ، ولكنه الآن ليس شيوعيا ليه يا سيدى؟ لأن ميخائيل جورباتشوف سحب بساط الشيوعية من تحت رجليه ، فإن جورباتشوف كان أيضًا شيوعيًا ولكن بحكم الوظيفة، أى أنه دخل فى وظيفة قيادية فى الحزب الشيوعى فأصبح محسوبًا شيوعيًا ، ولكنه فى هدوء وبذكاء كشف للناس حقيقة أن هذه الشيوعية لعبة دبرها لينين لكى يسود بها الدنيا ، والفكرة تقول إن مال الدنيا كله ملك عمال البشر أجمعين ، ولابد من حكومة تشرف على التقسيم ، والإشراف على الدنيا بعد ذلك ، وعين لينين نفسه رئيس هذه الدولة الشيوعية ونهض فى كل بلد من بلاد الدنيا جماعة يريدون الاستبداد بها وبأهلها وثرواتها ، فأعلنوا نظامًا شيوعيًا فى البلد ، ودعوا الناس لتأييده ، وأقاموا إذا استطاعوا نظامًا استبداديًا للحكم ، لا يعرف الرحمة أو الإنسانية ، وقتلوا أى مخلوق يعارضهم ، ونهبوا ماله أو وضعوه فى السجن ، وكان هذا شائعًا فى الدنيا كلها خلال السنوات من سبتمبر ١٩١٧م إلى سبتمبر ١٩٨٩م فى الدنيا كلها.

ونحن جميعا نعرف كيف كان الناس يقتلون أو يدسون فى السجون وتصادر أموالهم باسم الشيوعية ، وإذا كانت الإنسانية قد شقيت قيراطا من أى نظام استبدادى آخر فى ماضيها فقد شقيت أضعاف ذلك على أيدى الشيوعيين فى كل مكان ، هكذا أصبحت الدنيا على أيدى الشيوعيين سجنا كبيرا خلال السبعين سنة الماضية ، كل ذلك من وراء نظرية مغلوطة

---

* نشرت هذه المقالة فى ٥ يوليو ١٩٩٢م .

دسها فى تاريخ الإنسانية رجل جبار يسمى كارل ماركس ، ثم أخذ الفكرة منه لينين وأدخلها فى روسيا وأنشأ فيها نظامًا شيوعيًا أخذ حجم روسيا ، فقد كان فيه ١٥ جمهورية ، وظل يحكمها خمس سنوات ، ثم خلفه فى الحكم جبار آخر يسمى ستالين حكم نحو أربعين سنة ، وأذل الدنيا وقال إنه ألغى الأديان وأدخلنا جهنم. ألوف بعد ألوف ماتت على يدى ستالين فى الجمهوريات الخمسة عشرة وفى كل بلاد الدنيا.

والآن نقرأ فى الصفحة الأولى من الأهرام بتاريخ ٢٨ يونيو ١٩٩٢م «وأكد يلتسين – فى كلمته أمام الكونجرس الأمريكى وتعد الأولى من نوعها التى يلقيها رئيس روسى – إن الشيوعية ماتت ولن تعود من جديد ، وقال إنه لا يجب السماح للتاريخ بأن يعيد نفسه من جديد ، وقال إنه لن يتراجع عن الإصلاحات الجارية حاليا فى روسيا ، ودعا إلى تقديم المساعدات للإسراع بتطبيق هذه الإصلاحات مشيرًا إلى أن ذلك فى مصلحة الولايات المتحدة نفسها ، وقال كلامًا كثيرًا فى هذا المعنى.

ونسأل: يعنى إيه؟

كنتم تضحكون علينا وتقولون إن الشيوعية دين ، ثم تجيئون اليوم وتقولون: لا.. هى ليست دينا ، ولا حتى شيئًا له قيمة ، بل هى شىء مضر ونحن الآن ننادى الدنيا بأن تنصرف عنها ، وها نحن أولاء قد انصرفنا عنها ، وذهبنا نتسول من عدوتنا السابقة الولايات المتحدة ، وهى غنية لأنها رأسمالية ، ونحن الآن نتسول من الرأسمالية والرأسمالية الأمريكية ترحب الآن بروسيا بعد أن أصبحت عميلة تابعة لها ، وقد انضمت روسيا فى صورتها الجديدة – أى فى غير صورة الاتحاد السوفيتى السابق – إلى عضوية البنك الدولى ، هذا يتيح لها فرصة الحصول على مليارات من الدولارات للانطلاق على طريق الإصلاح الاقتصادى والتحول إلى نظام السوق الحرة.

وقال لويس بريستون مدير البنك الدولى فى بيان رسمى إن هذا التطور يعد تطورا تاريخيا يتيح الفرصة أمام البنك الدولى وأمام روسيا لأن تشتركا معا فى عملية فريدة لإدماج هذا الجزء الكبير من العالم فى آليات الاقتصاد العالمى.

ويجرى البحث حاليا فى إمكانية تزويد روسيا بقرض تبلغ قيمته ٥٠٠ مليون دولار لاستخدامه فى استيراد حاجياتها الملحة ، وأصبح فى إمكانية البنك الدولى أن يمضى فى تزويد روسيا ببعض القروض حتى فى حالة ما إذا تعثر الاتفاق بين روسيا وصندوق البنك الدولى حول برنامج إصلاح الاقتصاد فى روسيا ، وقد جاء هذا التطور الهام فى العلاقات بين روسيا والمؤسسات المالية الغربية فى الوقت الذى واصل فيه الرئيس الروسى بوريس يلتسين مباحثاته فى الولايات المتحدة بنجاح ملحوظ ، وخاصة فى واشنطون بعد أن نجح أمس الأول فى التوصل إلى الاتفاق التاريخى للحد من التسلح النووى فى لقاء القمة مع الرئيس بوش ، ولماذا لا يسعد الرئيس بوش عندما يجد رئيس روسيا المتكبرة القوية يتسول بين يديه؟ وهو أقصد يلتسين يعد نفسه موفقاً فى هذا التسول ، وقد عاد إلى بلده لكى يتلقى تهانى انتصاره الروسى ، ومن الآن أقول لك إن روسيا أو الكومان ويلث لن تنجح فى الدور الجديد ، فإن الدنيا فتحت عينيها ولن يبقى فى ذاكرتنا اليوم من روسيا إلا الحقارة والظلم والخوف والسأم.

وأظن يا عزيزى القارئ أنك لم تعرف الغلب الذى عانيناه نحن فى حياتنا من الشيوعية ، فقد كان رجالها جماعات من الوحوش وأعداء الإنسانية ، تجمع بعضهم على بعض لنهب البشر ، ومهمتهم الأولى كانت القضاء على الفكر ، لكى يتصرفوا بعد ذلك فى الدنيا كما يريدون ، وما من مرة أمسكت بالقلم لأكتب إلا قلت فى نفسى حذار من الشيوعيين ، فهؤلاء الأوغاد قد ربطوا أنفسهم بنظام الحكم ، وأفهموا الحكام أنهم يحمونهم من

النظام الرأسمالى الذى يسيطر على الدنيا وما فيها ، وأذكر أننى عندما بدأت أكتب فى هذه المجلة – أكتوبر – أتانى إنسان عجيب فى غاية الشياكة ، وقال إنه لن يأخذ من وقتى إلا دقائق.. قلت وماذا أتيت تقول؟ قال أقدر أقعد؟ قلت أقعد ، ولكن لابد أن أعرف فيم تريد أن تتكلم ، لأننى أحترم نفسى وأحترم قرائى ، ولا أحب أن تكون لى صداقة مع أحد من أعداء هذه الأمة ، وكنا إذ ذاك فى عهد السادات ، والإسرائيليون يحتلون سيناء ، وقناة السويس معطلة ، الأحوال كلها مش تمام ، وقال: لا أنا سأحدثك عن شىء يعجبك ، أنا مندوب الهيئة الشيوعية العليا فى مصر ، وأظنك تعرف أننا القوة التى تسيطر على الحكم فى بلدكم! قلت: لا.. لا أعرف أن الشيوعية هى القوة التى تسيطر على مصر. قال: سبحان الله ولا تعرف أننا نسيطر على إسرائيل! قلت: لا لا أعرف أنكم القوة التى تسيطر على إسرائيل فإسرائيل دولة يهودية لا يسيطر عليها إلا اليهود ، بل هم يزعمون أنهم يسيطرون على أمريكا ، والآن قل لى ماذا تريد منى لأننى رجل مشغول ، قال مشغول؟ هل يمكن أن تكون مشغولا عنى أنا مندوب الشيوعية؟ قلت وبعدين يا سيدنا إلا تريد أن تتكلم إننى أستطيع أن آخذ أوراقى وأذهب إلى غرفة أخرى.. قال حسنا اهدأ الآن سأتكلم أتيت أقول لك شيئًا بسيطًا ، وهو أن تجتهد فى ألا تكتب شيئا يمس الشيوعية ، وإذا استطعت أن تكتب مع الشيوعية كان هذا أحسن لك، فأنت كاتب كبير مقروء ، ويهمنا – لصالحك – أن تكون معنا ، ونحن نستطيع أن نفعل لك ما نستطيع ، نستطيع أن نشترى لك سيارة مثلا ، وإذا كنت مخلصا لنا حقًا نستطيع أن نقدم لك شقة ، فنحن نظام عالمى ، وثروة الدنيا كلها بين أيدينا ، وسكت كأنما أراد أن يعطينى وقتًا أتفهم فيه كلامه ، ولكنى قلت له: قل ما تريد أن تقوله يا أخى فأنا لست فى حاجة إلى شىء مما ذكرت ، فقال كأنك لا تعرف حقيقة الشيوعية؟ قلت أعرف عنها ما رأيته وما بلغنى ، ولن أتكلم معك عنها ، فإن هذا الكلام الخاص مع الشيوعيين هو الذى يضرنى فأنا رجل مصرى مسلم حر،

وهذا هو رأسمالى ، ولهذا فلا يمكن أن أكون شيوعيًا ، قال: وتستطيع أن تكون رأسماليا؟ قلت ولا رأسماليا ، قلت لك إننى رجل مصرى وطنى مسلم حر ، هل هذا لا يكفيك؟ قال: يكفينى فأنت فعلا رجل مصرى وطنى حر، وهل يضيرك أن تكون مع ذلك شيوعيا؟ قلت نعم يضيرنى ، وأنا لم أدخل فى الشيوعية لأننى عرفت أسرارها ، قال لا بأس فإننا نحن الشيوعيين الأصلاء نسيطر على الدنيا ، لأن الشيوعية أعظم نظام فكرى ابتدعته الإنسانية ، فنحن نملك الاتحاد السوفيتى ، وهو خمس عشرة جمهورية مساحتها ثلث مساحة الدنيا ، وثروتها نصف ثروة الدنيا ، وإذا انتظرت قليلاً فستقرأ بيانا من الرئيس السادات يقول إن مصر مع الاتحاد السوفيتى والشيوعية ، قلت كفاية تخويف يا إنسان ، أنت لا تعرف السادات، قال وهل تعرفه أنت قلت كما يعرفه أى مواطن عادى فى مصر، فأنا مصرى عادى ، والرئيس السادات رئيسى وليس من الضرورى لذلك أن أكون صديقه أو أجلس معه.. أنا مواطن مصرى عادى. قال ولكن السادات لن يحرر سيناء من إسرائيل.

قلت: لا سيدى. السادات سيقود مصر فى التحرر من إسرائيل ، قال: لن يستطيع تحرير سيناء من إسرائيل إلا إذا وافقنا نحن الشيوعيين ، قلت: هل قلت كل ما عندك؟ هل تمضى الآن؟ قال: لا أمل فيك ، أنت ولا مؤاخذة ، أغبى بكثير مما تصورت ، كفاية عليك أنك مسلم.

قلت: وماذا فى ذلك؟

قال: الإسلام دين غبى ، وقد تبرأنا منه.

– ومن أنتم؟

– تسألنى ، بعد كل هذا الحديث معك؟ نحن الشيوعيون.

قلت: أتقول إنكم تبرأتم من الإسلام؟

قال: نعم! ولكنك لم تسألنى لماذا؟

قلت: لا أسألك ، فإن الإسلام عندى حقيقة الحقائق ، وتبرؤكم منه دليل على أنكم لا تعرفون عنه شيئا.

والآن قد انتهى الكلام بينى وبينك ، أرجو أن تمضى!

ولا تريد أن تأخذ شيئًا من العشرة الآلاف جنيه التى آتيك بها الآن.

قلت: لا ، لا أريد ، وإذا أنت تركت المبلغ عندى الآن فسآخذه إلى الرئيس السادات رئيس الدولة وأنا معجب به . فنهض واقفًا وقال: ستعانى كثيرا من هذا العداء للشيوعية.. سنكسر قلمك ، وقد كسرنا ألوف الأقلام فى الدنيا: ولكنى أعطيك هذا القاموس الشيوعى ، إنه إنجليزى إنجليزى ، وتجد فيه شرحا لكل المصطلحات الشيوعية. إنه قاموس عظيم يباع فى الأسواق بثلاثين جنيها ، ونحن نعطيك إياه لأننا واثقون من أنك ستعلن يوما قريبا أنك شيوعى! قلت: هذا مستحيل يا أخ فإن الشيوعية خرافة ، وأنا درست تاريخها جيدًا ، وأعرف كارل ماركس ولينين وستالين أحسن منك ، وسوف ترى شيوعيتك محطمة تدوسونها أنتم بأقدامكم ، وستتحطم ويظل الإسلام عزيزًا قويًا ، لأن الإسلام دين من عند الله ، أما الشيوعية فسخافة من ذهن رجل ألمانى يسمى كارل ماركس أخذها عنه رجل روسى يسمى لينين.

والوقع أن الشيوعية – نظريًا – قديمة جدًا ، فهناك شيوعية قديمة ، وشيوعية نصرانية ، وإسلامية ، وشيوعية روسية بأسماء مختلفة ، فإنها أساسا تقوم على إلغاء الملكية الفردية وجعل الملكية أمرًا عامًا بيد العمال. لأنهم قالوا إن رأس المال لا يتكون إلا من عمل العمال، أى لا أحد يملك مالا أو بيتا أو صنعة ، فكل هذه ينبغى أن تكون ملكية الدولة ، والدولة توزع الأرباح على الناس ، لكن هذا كله نظام نظرى ، فكيف سنجعل

الناس كلهم يعملون بكل اجتهاد ، ثم تستولى الدولة على أرباحهم وتقسمها بالعدالة على الجميع؟ ثم إننا إذا فرضنا أن كل رءوس الأموال ستذهب إلى الدولة ، فمن يضمن توزيع الأرباح على الناس بالعدالة. والحقيقة أنه فى كل البلاد التى كانت فيها حكومة لم يكن من الممكن أن تنتصر الشيوعية ، ولكن فى روسيا عندما انهزمت روسيا أمام ألمانيا أرادت ألمانيا أن تجعل هزيمة روسيا كاملة ، فانتهزت فرصة الفراغ السياسى فى روسيا ومحاولة حزب العمال الروسى السيطرة على الحكومة برياسة ج.ف. بلخانوف وب. ب. أكسلرود ونقلت نفرا من أتباع كارل ماركس إلى روسيا.. من ألمانيا إلى روسيا فى قطار مقفل على رأسهم فلاديمير أيلش أوليانوف الملقب بلقب لينين ، وأقاموا النظام الشيوعى الذى عرف بالإسكارى نسبة إلى جريدتهم المسماة أسكرا ومعناها الشعلة ، وكان كارل ماركس قد ورث الفكرة الشيوعية عن المفكرين الألمان الذين نمت على أيديهم الفكرة الشيوعية فى ألمانيا من سنة ١٨٨٣م. وكانت روسيا قد انهزمت أمام اليابان وقد نادى الشيوعيون بسيادة العمال على كل شىء وأقاموا نظاما عماليا ، ولكن هذا كله كان نظاما نظريا لأن العمال عمال ، ومن سيحمل العمال إلى مراكز الحكم وكيف؟

المهم أنهم أقاموا نظامًا عماليًا ، واستخدموا الجيش فى إقامة هذا النظام، ولينين الذى تولى رياسة الدولة الروسية فى أكتوبر ١٩١٧م رسم نظامه على إقامة نظام حكومى مستبد. والنظام الجديد أصبح حكومة استبدادية ظالمة حكمت كل روسيا وتوابعها بالقوة. وكانت له أسس سياسية منها ألا يكون هناك نظام برلمانى ، لأن البرلمان عند لينين ينبغى أن يكون عماليا.

حقًا إن الشيوعية كانت طوال تاريخها أسطورة كاذبة ، نظريًا من الممكن إقامة نظام سياسى يسوده ويشرف عليه العاملون ، وليس العمال

فقط ، بل كل من يعمل ، ولكن الأمر يحتاج إلى رئيس إدارى وإنسانى قومى ينظم حكومة العمال على أساس عادل ، ولكن هذا هو الذى فشل الروس فى إقامته.. فقد أقاموا نظامًا ظالمًا سيئًا جدًا تسيطر عليه فئة من رجال كارل ماركس ، والغريب أن عشرات المنظمين والمفكرين أشتركوا فى إقامة هذا النظام ، بل إن أولئك المفكرين قسموا الفكر العمالى إلى أقسام ، ووضعوا له نظمًا غريبة ، ولكن النتيجة كانت نظامًا ظالمًا هو الذى أقامه لينين وتلاميذه، وأقاموا على أساسه الدولة الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى ، وهذا النظام لم يكن فى حقيقته عماليًا ، وهل يمكن أن يقال إن لينين أو استالين أو أى رئيس من رؤساء روسيا كانوا عمالاً؟ بل إن الأمر بلغ أن ابتكروا اسم السوفيتى أى الاتحادى لكيلاً يقول أحد الشيوعية ، أو يستعمل الناس صفة الشيوعى. وكما رأيت فى حديث المندوب الشيوعى الذى أتى ليكلمنى ، فقد كان يرى أن نظامه الشيوعى خير من النظام الإسلامى ، وهذا التعيس قال إنهم ألغوا الإسلام ، وبطبيعة الحال لقد ألغوا المسيحية وكل الأديان ، كأنهم تصوروا أن تفكيرهم يفوق ما يأتى من السماء ، والنتيجة ما رأيت ، وها نحن أولاء نرى أن الاتحاد السوفيتى الذى تولى أمره ميخائيل جورباتشوف كان مفلسًا برغم كل ما سرق ، وروسيا اليوم وتوابعها دول متسولة ، وليس فى هذا النظام كله دول لها أساس إلا الدول الإسلامية فى وسط آسيا وغرب آسيا وأهمها قازاكستان وعاصمتها ألما آتا ، وهذه الجمهوريات الإسلامية تقول للدنيا كلها إن الإسلام الذى دخلت به الاتحاد السوفيتى هو الذى بقى بعد أن زالت الشيوعية وذهبت فى داهية.

لم أر أحدًا من الشيوعيين المصريين منذ قامت حركة جورباتشوف ، وأشك فى أننى سأرى ، ولو أننى رأيت واحدًا منهم لقلت له: تعال يا أخى وعد إلى الإسلام أو إلى المسيحية إلى أى دين سماوى آخر ، ودعك من خرافة الشيوعية ، فإن أصحابها الروس لو وجدوا فيها أى فائدة لتمسكوا بها ، لأنها سبيل إلى السلطة وقد رأوا فعلا أنها تؤدى إلى السلطة

والإفلاس ، لأن مال الدولة لا يمكن أن يقسم بالطريقة التى كان الشيوعيون يسيرون بها فى روسيا ، وإذا كان هناك أمل فى إصلاح نظامهم لأصلحوه، ولكنهم فى الحقيقة لم يجدوا فى النهاية بدا من أن يعلنوا أنهم مفلسون ، وقد كانت هنا عبقرية جورباتشوف. فقد رأى أن الشيوعية لا خير فيها ، وقد ابتكر طريقة محترمة لإعلان ذلك على الدنيا ، ومصالحة ما يسمى بالنظام الرأسمالى ، وعندما نجح فى ذلك لم يسره أن يستمر فى التسول ، ولم ير بأسًا فى أن يحل محله بورس يلتسين ، ويلتسين لا يهمه شىء لأنه سكير ، وهو معظم اليوم سكران ، وعندما ذهب إلى أمريكا كان كل همه أن يأكل ويشرب ، واعترف بإفلاس نظامه الشيوعى ، ومد يده ليشحذ فى حين أصبح جورباتشوف مفكرا روسيا يطوف الدنيا ليتسول ، وقد ذهب إلى أمريكا وأعطوه ٢٥ ألف دولار فى المحاضرة ، وعاد من أمريكا غنيا ، وأنشأ فى روسيا معهدًا علميًا أصبح هو رئيسه ، وفرحت بذلك زوجته السيدة رئيسة ، فقد أصبحت غنية بعد أن كانت مفلسة. ومن أمريكا ذهب جورباتشوف إلى إسرائيل حيث أعطوه أربع درجات دكتوراه فخرية ، وكذا ألف دولار ، وقد باع درجات الدكتوراه وعاد إلى موسكو رجلاً غنيًا ، وتلك هى نهاية الشيوعية الروسية. لقد كانت نظامًا استبداديًا ظالمًا وكافرًا، وما لم يعرفه الناس هو أنه كان مفلسًا ، أما أين ذهبت النقود ففى جيوب الناس رؤساء النظام الشيوعى ، كل رؤساء روسيا كانوا أغنياء ، أما الشعب من دونهم فقد كان مفلسا صدقنى لا أظن أن أحدًا فى الدنيا حزن على الشيوعية أو السوفيتية ، ولا نريد أن نضيع وقتًا فى الكلام عنها ، فقد كانت شيئًا ظالمًا مؤلمًا ، والحمد لله أنها ذهبت فى داهية. □

(١٥)
لابد من إصلاح أوضاع الأمة الإسلامية وتصحيح صورتها على خريطة العالم*

تكلمت فى الماضى عن مصر وكيف يتحقق استقلالها ولكنى بعد أن فرغت من المقال وجدت أن مصر لا يمكن أن تستقل على النحو الذى شرحته فى مقالى الماضى إلا إذا ارتبط استقلالها باستقلال بقية العالم الإسلامى لأن عالم الإسلام عالم واحد مهما تباعدت بلاده بعضها عن بعض ونحن عندما نفكر فى بنائها اليوم فنحن نفكر أولاً فى بلاد الإسلام الأخرى اليوم لأننا – المسلمين أقصد – فى الواقع يميل الواحد منا إلى الآخر ونحن أقرب فى التفكير مع بعضنا البعض ومهما حدث بيننا من الخلاف فإن الصلح بيننا سهل وأنا أشعر أننا نميل إلى التفاهم فى كل حين ونحن إذا وقع بيننا خلاف فإن الصلح سهل ولهذا فإن مقالى هذا وإن اختلف عن المقال الماضى إن هو فى الواقع إلا استمرار له حتى وإن لم يكن بيننا تبادل تجارى كبير مع الدول الأخرى فإننا ينتج بعضنا لبعض والمنتجون والمستوردون فى البلاد الإسلامية متعاملون بعضهم مع بعض وإن لم يشعروا فإن العلاقات بين بعضهم وبعض متصلة بطبعها وإن لم يكن هناك نظام لذلك والدعاية بين البلاد الإسلامية تأتى بأضعاف ما تأتى به فى البلاد غير الإسلامية لأن البلاد الغربية تعانى من عقد من ناحية البلاد الإسلامية والشرقية بصفة عامة ولابد أولاً من القضاء على هذه العقد. ولعلك تعرف أن العلاقات التجارية بين بلاد الغرب وبلاد الشرق علاقات غير رسمية أى أن الحكومات لا تتدخل فيها وكل المعاملات بين التجار فى بلاد الإسلام بعضها مع بعض يقوم بها أفراد أو شركات غير حكومية فى الغالب بل إن الحكومات الغربية تقوم بجهود كبيرة لإيقاف المعاملات بين بلادها والبلاد

---

* نشرت هذه المقالة فى ١١ أكتوبر ١٩٩٢م .

الإسلامية الشرقية إلا فى حالات التصدير من الغرب إلى الشرق والمستفيد ، فى هذه الحالات هى بلاد الغرب وكما أنهم يهتمون بأن يكونوا هم الكاسبين فإننا أيضًا أقصد المسلمين يهمنا أن نكون نحن الكاسبين وأنت ترى أنهم اليوم يتنازلون عن جزء كبير من الديون التى لهم عندنا لكى نستمر فى الاستدانة ويستمروا فى الكسب وأنا شخصيًا أتصور أننى لا يمكن أن أتعامل مع بلاد الغرب وفى إمكانى أن أتعامل بدلاً من ذلك مع بلاد الشرق. ونحن نعرف بعضنا بعضًا وكل منا يريد أن يكون هو الكسبان. ومن المؤكد أننا أهل الشرق أقصد فى تعاملنا مع إخواننا أهل الشرق يكسب بعضنا من بعض أضعاف ما نكسب من معاملاتنا مع أهل الغرب. وهم إذا أحسوا أنهم يكسبون منا كثيرًا فإنهم يبادرون بتقديم المساعدات والديون إلينا بل إنهم يتنازلون عن الديون لكى نستمر فى التعامل معهم ولا نظن أنهم يتنازلون عن بعض ديونهم عندنا تفضلاً وعطفًا وإنما هم يريدون أن يستمر معنا بعض المال لكى نستمر فى التعامل معهم. ومن غير شك إن كسبهم منا يبلغ أضعاف كسبهم بعضهم من بعض ، وربما كان من الضرورى أن ننشئ اتحادات بعضنا مع بعض كما أنشأوا هم الاتحادات فيما بين بعضهم وبعض ، ومن الواضح أنهم يكسبون منا أضعاف ما يكسب بعضهم مع بعض ، وإذا كانوا لا يكسب بعضهم من بعض فلماذا ينشئون الوحدات بين بعضهم وبعض ، وأظن إنك لاحظت أنهم اليوم يختلف بعضهم مع بعض فى مسائل العملة ، وكانت الدانمرك أول دولة رفضت الاستمرار فى التعامل مع جيرانها من أهل الغرب لأنهم غير مرتاحين إلى جانب العملة فى اتفاقية ماستريخت ، لأن ذلك يعنى خسارة كبيرة لعملتها ، وكانت إنجلترا قبل ذلك ترفض جانب العملة فى اتفاقية ماستريخت خوفا على الجنيه الإنجليزى ، ولولا أن فرنسا وافقت على اتفاقية ماستريخت لسقطت هذه الاتفاقية وخرجت من التاريخ ، ومعنى ذلك أن اتفاقيتهم بعضهم مع بعض لابد أن تقوم على كسب لهم ونحن المصريين أقصد نعرف هؤلاء الناس معرفة جيدة وأظن أننا لم ننس

بعض مكاسبهم منا أيام الاحتلال ، وهذا طبيعى لأن حياتهم كلها تقوم على الكسب ، ولا يمكن أن يحرصوا على التعامل معنا إلا لكى يستمر كسبهم منا.

ومن الأمور المخجلة منهم أيام الاحتلال حرصهم على الكسب منا ، وكانت أجورهم منا عالية جدًا وكان اللورد كيلرن يزعم أن موظفيهم يستحقون تلك المرتبات ، بل زعم بعد أن انتهت خدمته فى مصر أن تلك المرتبات كانت منخفضة ، وعندما جاءنا هذا الرجل من الهند ليعمل مندوبًا ساميًا فى بلادنا سنة ١٩١٧م كان يفكر فى أن تكون رواتبهم – كان ينبغى – أن تكون أضعاف ما تقررت فعلاً ، أريد أن تعرف أن هذه الحقائق تصدق على كل بلاد المستعمرات كل هذه البلاد تكرر اليوم نفس الكلام كل هذه الدول الشرقية يثق بعضها فى بعض ، لأنها عانت من نفس المتاعب وهى تثق فينا بقدر ما نثق فيها ، ونحن الذين حصلنا أخيرًا على مفتاح النجاح نستطيع أن نكون متميزين ونستطيع أن نبيع لهذه البلاد بأسعار متواضعة إذا لزم الأمر ، وكل الذين خاضوا متاعب الاستعمار عندهم أمل فى أن يحصلوا منا على تخفيضات لأنهم لا أمل عندهم فى النجاح فى تلك الصناعات لأنهم لم ينجحوا فيها إلى الآن ، فكل العوامل الأساسية فى نجاحها فيها ليست موجودة عندهم ، ونحن إذا استطعنا أن نكسب هذه إلى صفنا فسنكون فرقة أو جماعة ، وسنستطيع أن نبيع لهذه المجموعة من الدول الشرقية والإسلامية ، لأننا وصلنا إلى إتقان هذه الصناعات ، ووصلنا فى أحيان كثيرة إلى إتقان صناعة المواد اللازمة لها ، وليس من الضرورى أن نكسب من أول الأمر بل أننا مستعدون للتنازل والتخفيضات وسنكون فى الميدان الدولى قوة وبعد أن تستقر أقدامنا فى الميدان ونكسب ثقة هذه الدول نستطيع أن نتصرف فى الأسعار ، وأن نرتفع بها إلى المستوى الذى لا نخسر فيه وإذا نحن أحسنا التصرف أصبحنا قوة دولية والنجاح الأول الحالى سيزداد مع الزمن وسنصبح قوة دولية.

وعالم الغد يختلف تمامًا عن عالم اليوم لأن دول الغرب وأمريكا سترى فينا منافسا لها ، وقد سبق أن قلت لك إن أمريكا ودول الغرب دول غيورة متنافسة ، ويوم ترىَ أننا وصلنا إلى هذا المستوى ، فإنها ستقف منا موقف العدو ، وسيكون بيننا وبينها عداء ، ولا مانع لدينا من ذلكَ لأننا نعرف أن دول الغرب لن تتساهل معنا أبدًا ، ولا يمكن أن ترانا فى مستوى النجاح الصناعى ثم تساعدنا وهأنتذا ترى الخلاف بين بعضها وبعض ، وكان أول بلد غربى وقف موقف الصلابة واحدًا من أصغر بلاد الغرب وهو الدانمرك. فهذا البلد استطاع أن يسقط اتفاقية ماستريخت لحرصه على عملته فهو يرفض أن يلغى عملته ويتعامل بالعملة الأوروبية الجديدة ، وكان هذا هو موقف بريطانيا من أول الأمر ، ومهما بلغنا من القوة فإننا لن نستطيع أن تكون لدينا قوة الدانمرك ، ولابد أن تكون واحدة من مجموعة دول ، لأننا إذا كنا وحدنا فلن نستطيع أن نخوض الميدان ولابد أن نتمسك بهذه الحقيقة من الآن ونتشبث بمكاننا لأن أى خطوة إلى الوراء سيكون فيها ضرر علينا ولا يمكن أن نعيد المحاولة إذا فشلنا لأن أحدًا من دول الغرب أن يتساهل معنا بعد ذلك وأمريكا ستكون أقسى علينا من غيرها وأنت لا تعرف خطر أمريكا الغاضبة المنافسة ، ومعنى ذلك أننا لابد أن نعرف أن أمريكا إذا وجدت صعوبة من ناحيتنا ونحن نعرف أن أمريكا لا يمكن أن تتساهل معنا إذا أحست بالخطر من ناحيتنا لأن هذه الدول الكبيرة القوية لا يمكن أن تتساهل معنا أو مع غيرنا ولهذا فمن رأيى أن نرسم خطتنا على أن نكون كبارا من الآن ، لأن العالم اليوم لا يعرف الدول الصغيرة ولا وجود لها فى حياتنا نحن اليوم ، ولابد أن يكون عندنا حجم وقوة لكى نخوض معركة الدول القوية ، ونحن فى أفريقيا مثلاً دولة على الحدود الآن ولا يجوز لنا أن نرفع الأسعار وقد أنفقنا مالاً كثيرًا لكى نصل إلى ذلك المستوى ، ومن حسن حظنا أننا ننتج إنتاجا جيدًا وقد عرفنا كيف ننتج وكيف نبيع ما ننتج وإنتاجًا اليوم كبير وكثير ، ولا يجوز لنا التساهل فى ذلك الإنتاج لأن هناك اليوم تزاحماً على إنتاجنا ونحن نستطيع اليوم

أن تزيد الإنتاج وأن نزيده إتقانًا ولم يعد أحد يقبل منا الإنتاج القليل أو القليل القيمة ، وقد وجدت لنا بيعا كبيرًا فى ألمانيا بل إننا نستطيع أن ننتج بضائع جديدة.

ونحن نعرف الآن أين ننتج الإنتاج الضخم فى بلادنا وأين نوزعه ، وقد طلبوا منا فى إيطاليا بضائع جديدة ، ونحن نستطيع أن ننتجها ولابد أن نسير إلى الإمام ، وكنت فى ألمانيا عندما طلبوا منا أنواعا متقنة وممتازة من البضائع ، وقد تعجبت عندما قال مواطننا المصرى أنه سيفكر فى هذا الإنتاج الجديد ، وأنا قلت له: فيم ستفكر؟ فقال وفى وجهة حيرة فيم سأنتج ما أبيع؟ فقلت له: يا عزيزى إن الدنيا لا تقبل منا الآن إلا الموافقة وعلينا أن ننتج ونوقع العقود ونشرع فى الإنتاج ، ونحن مهما فعلنا فلن نستطيع أن نتراجع ، والعالم يضعنا اليوم على قائمة المنتجين فى العالم الثالث ، وبلدنا واسعة والأرض كبيرة ، وعندنا مهندسون فنانون ومنتجون، ولابد أن نتعود اليوم أن ننشئ المصانع وأن نشرع فى العمل ، ونحن نستطيع ذلك ، وحتى إذا لم يكن مكسبنا مكسبًا كبيرًا ، فإننا سنفتح به سوقًا ، وهذه السوق ستعطينا فى المستقبل ما نريد ، والمهم أن تكون لدينا الشجاعة على الإنتاج ، والمسألة هنا تحتاج إلى شجاعة ، ومن المؤكد أننا سنبيع وسنكسب ، والمسألة هنا مسألة شجاعة فكل تجارة فى الدنيا مغامرة ، والمهم ألا نخاف لأن الدنيا لم تعد تقبل منا إلا الإنتاج الجيد ، وينبغى أن تكون لدينا الشجاعة ولا يجوز أن نخاف الخسائر ، كما قلت لك إننا اليوم فى عالم لا يجوز علينا الخوف فيه ولابد أن نكون واثقين من النجاح ، والخوف جريمة ولا يجوز أبدًا أن نتراجع اليوم إلى الوراء.

أريد أن أقول إن هناك موقفًا لابد أن نسير فيه اليوم هنا أننا لا يجوز أن نتصرف ألا تصرف دولة كبيرة وهذا الوضع نفسه يجعلنا فى موقف جديد

فى الدنيا ، وإذا نحن اعتمدنا هنا على البلاد الإسلامية والعربية فإننا لن نعود صغارا أبدًا ، وفى معارك الدول الحرة ، اليوم لا تصلح لنا إلا معارك كبيرة ، فنحن اليوم شعب ناضج يستطيع أن ينتصر فى المعارك الكبيرة اليوم ، ومعارك الصناعة والتجارة كلها معارك كبيرة ، وشعوب مثل شعبنا لا تستطيع إلا أن تسير إلى الإمام ، ومعاركنا الكبيرة والصغيرة معا كبيرة ، والصناعة اليوم ليس فيها كثيرة أو كبيرة ، بل إن معاركها كبيرة ، وليس أمامنا تراجع إلى الوراء ، فإن معاركنا كلها إلى الإمام ولا نستطيع أن نتراجع إلى الوراء أبدا ، وهذا هو الذى أريد أن أقوله اليوم ، ولا ينبغى أن ننسى أن أمة مثل ألمانيا لا تستطيع أن تتراجع أبدًا. ومن الممكن أن تنتج أليس من الممكن أن تنتج ولا تبيع ، فإن المنافسة فى أيامنا ضخمة جدًا ، وبلاد مثل أوروبا وفرنسا وإنجلترا لا يمكن أن تنتج أبدًا أقل من مستواها اليوم ، والحرب فى أوروبا عنيفة جدًا ، وقد أقرضونا فيما سبق مالاً كثيرًا، وخاصة عندما كانوا يستعمرون بلادنا ، وقد استرجعوا منا أضعاف ديونهم ، وقد عاملناهم نحن بإحسان كبير ، والآن.. وبعد ذلك الاستغلال الشكلى يتجهون إلى إلغاء ديوننا لكى نستطيع أن نعيش ونحن لا مانع لدينا من إيقاف الديون أو جزء منها لكى نستطيع الحياة مع أولئك الناس مواطنى العالم الثالث ، ونحن فى مصر رددنا إلى أمريكا وأوربا ديونا كثيرة جدا كانت علينا لهم ، واجتهدنا فى أن نعيش معهم بالحسنى ، وأعتقد أننا نستطيع الآن أن نعيش مع أولئك الناس المسلمين والعرب بالحسنى لأنهم إذا انقلبوا علينا ساءت حياتنا معهم وها نحن أولاء نرى كيف تعيش أوروبا من ناحية مع فرنسا وإنجلترا وألمانيا من ناحية أخرى حياة عداء ، لأن الحياة فى الدنيا أصبحت غالية جدًا ، ونحن نستطيع أن نتنازل عن أسعار بضائعنا إلى هذه البلاد العربية والشرقية بأسعار متواضعة لكى نسترد بعض نقودنا عندهم ، ونحن لا نستطيع أبدًا أن نعيش معهم بالعنف أو بأسعار عالية ، لأننا نستطيع أن نخفض بعض بضائعنا المنخفضة الثمن لكى نستطيع أن نشترى منهم بضائعهم الرخيصة ببعض أسعارنا لكى

نستطيع أن نشترى منهم بضائعهم الغالية فى بعض الأحيان التى يستطيعون أن يرفعوا أسعارها علينا دون أن نخفض هذه الأسعار كثيرًا ، وخاصة أسعار المصنوعات الغالية بعض الشيء حتى يستطيعوا أن يبيعوها لنا بالأسعار التى يريدون ، ولا ننسى هنا أننا اليوم نعيش فى عالم أسعاره غالية جدا ، وأننا سنحتاج إلى وقت طويل لكى نصل معهم إلى أسعار معقولة البضائع التى يعرفون هم أنها غالية علينا وأننا نشتريها رغم ذلك.

والفكرة الأساسية أننا مادمنا قد وضعنا رجلاً خارج العالم الثالث فإننا لن نعود إليه ، لأن العالم الغربى مادام قد أخرجنا من العالم الثالث ، فهو لابد أن يرفع علينا قضية من تلقاء نفسه لأن هذا عالم قوى وعدائى أو ربما كان خير ما نستطيع عمله الآن هو أن نشرع فى بناء العالم الجديد على أساس المودة ، لأن العالم الذى يعيش فيه الغرب عالم عداء وكراهية ونحن لا نستطيع أن نعيش إلى الأبد فى عالم الكراهية. إن الغرب يستطيع العيش فيها لأنه تعود عليه ، أما نحن فلا أظن لأننا ناس خيرون فى قلوبنا ، ونحن أقدر على الحياة فى الخير منا على الحياة فى الشر ، وأهل الغرب قد اعتادوا حياة الشر هذه حتى أنك اليوم لا تدرى من الذى يصدر الأسلحة إلى الشرق الأوسط ، فإن الأسلحة فى ذلك العالم كثيرة جدا ، ولا تقل لى إن هناك لبنانيين أو إسرائيليين يقومون بجلب هذه الأسلحة كلها إلى عالمنا هذا ، فإن الأسلحة فى ذلك الشرق الأوسط كثيرة جدا ، ونحن المصريين الذين أستطعنا بعد غلبة أن نخرج من العالم الثالث لن نستطيع أن نعيش فى دنيا بعيدة عن الشرق الأوسط ، لا نستطيع ذلك إلى الأبد لأن مقادير الأسلحة المصدرة إلى عالم الشرق الأوسط أكثر بمراحل من أن نستطيع نحن مواجهتها إلى مالا نهاية.

وأحسن ما نستطيع عمله هو أن ننشر فى الدنيا كلها قيادتنا الأخلاقية لأننا فعلا ناس أخلاقيون ، ولا يمكن أن يصل بنا الشر إلى المستوى الذى وصل إليه الغرب ، وقد حاولت جهدى أن أعرف المبادئ الأخلاقية التى

تعودنا نحن عليها فى حياتنا ، ولكن لم أستطع ، وفى رأيى أننا نحن اليوم لابد أن ننشئ فى بلادنا إدارة أخلاقية قوية تساعدنا نحن على أن نعيش مصريين وآمنين وسط عالم آمن ، وقد ذهبت إلى القرية مرارًا لكى أدرس تلك القواعد الأخلاقية الأساسية التى نعيش عليها نحن المصريين مع بعضنا البعض ، وأستطيع أن أقول إننا إذا أردنا نشر تلك الأخلاقيات فى الدنيا استطعنا ، ولكن ذلك يحتاج إلى جهد شديد ، وأول ما يلزمنا نحن هنا هو أن نذكر أن هذه أخلاقنا الأصلية ، وأننا فعلاً نستطيع أن ننشرها فى الدنيا فقد استطاع غاندى أن ينشر فى الهند قواعد أخلاقية قريبة جدا من قواعدنا نحن ، بل إن غاندى نفسه أتى إلى مصر أيام سعد زغلول ليرى كيف يعيش المصريون ، وأظن أنه خرج بنتائج طيبة جدًا ، وقد كان عباس محمود العقاد يقول: أما كان خيرا لنا لو أن سعدا اجتهد فى أن يغرس فى نفوسنا أن هذه الأخلاقيات هى أخلاقنا وأننا سنكون أسعد ، والدنيا كلها ستكون أسعد إذا هو لم يكن سياسيًا بالدرجة التى حاول أن يكون عليها ، بل إن العقاد قال إن أهم ما فعله الإنجليز ما حاوله الإنجليز صنعا هو أن يخرجوا المصريين عن طبيعتهم كمصريين ، فلما نجحوا فى ذلك بعض النجاح القليل استطاعوا الاعتماد على ما وصلوا إليه على أنصاف مصريين، وقد نجحوا فى سيادتنا فعلاً ولكن بخطتنا نحن ، عندما طالت أيام الاحتلال كان الملك فؤاد لا يعتمد على المصريين لأنه كان لا يحبهم ، وعندما أجريت فى مصر الانتخابات الأولى لم تكن غالبية الفائزين من الوفديين ، كما زعموا من المصريين الأصلاء أى الناخبين ، وكان اللورد كرومر يجتهد فى إفساد ذمة المصريين ولكنه لم يعتمد فى ذلك على المصريين ، بل كان كل اعتماده على الأتراك والمماليك والشركس ، فهؤلاء لم يكونوا مصريين ولا كانت مصر عزيزة عليهم ، وكل أعمالهم كانت فسادا فى فساد. كلهم من طراز الباشوات والبكوات الذين نعرفهم.

والذى لم يقله العقاد هو أن الذى رد المصريين إلى أخلاقياتهم الأولى هو مصطفى النحاس ، فقد كان الرجل مصريا أصيلا. وقد بدأ لبعض الناس

غنيا وغير سياسى ، ولكنه كان أخلاقيًا ، وسر الإخلاف بينه وبين مكرم عبيد أن مكرم أراد بأى ثمن يتمسك بمركزه وسلطانة ، ولم يكن مكرم أقل أخلاقيا من النحاس ولكنه كان خوافا فقد كان يخشى على مركزه فى حزب الوفد ، وعندما تصرف النحاس بحرية فى أمور الحزب لم يستطع مكرم إلا أن يتكلم ، ومن هنا بدأت الخلافات تتضخم بين الرجلين ، واعتقد أننا - نحن المصريين ينبغى أن ننشئ الآن معهدا للدراسات الأخلاقية المصرية لأن هذه الأخلاقيات هى سلاحنا الأقوى وأنا أكره المصرى اللص مثلا لأننى أعتقد أن السرقة لا يمكن أن تكون مصرية ، وبودى لو درسنا أخلاق السويسريين ، فهؤلاء الناس يعتمدون على أخلاقياتهم مثلاً ، وهم إلى جانب ذلك يستعدون استعدادا عسكريًا رهيبًا حتى يقال إن كل جبالهم مخازن أسلحة ، وهم لا يستكثرون هذه الأسلحة للحرب بل احتياطا من شرور الدنيا ، وأنا شخصيا أرى أننا نحن المصريين أقدر على الحياة فى السلام من قدرتنا على الحياة فى الحرب ، ولا شك فى أننا إذا أردنا ذلك أنشأنا معهدا للأخلاق المصرية ، وفرضنا على طلبتنا دراسة أخلاقياتنا والتمسك بها إلى جانب التسليح ، وعلى أى الأحوال فإن هنا فى هذا المقال وما يماثله أحاول أن أحيى الأخلاق المصرية وأن أجعلها فعلا أساسا لقوتنا لأن مصر فى الحقيقة بلد عظيم بأخلاقياته ونحن إذا كنا قد استطعنا النفاذ إلى عالم الأمان والاطمئنان فإن خير ما نعمله هو أن نجعل الأخلاق أساس قوتنا فى الحرب والسلم. وأنت لو تتصور كراهيتى للمصرى اللص ، ولو استطعت أن أقضى على كل مصرى لص لفعلت ، لأننا اليوم نعيش فى عالم خطر ولن ينقذنا من الخطر إلا الأخلاق ، والأخلاق كما تعرفون أصعب شىء فى الدنيا أليس كذلك؟ □

(١٦)
عالم العرب والإسلام عالم واحد*

بدأت أتتبع أحوال هذه المنطقة العربية من أكثر من خمسين سنة. وأقول إنها اليوم فى أحسن أحوالها، والسبب فى ذلك أن المنطقة يحكمها أهلها منذ قيام ثورة ١٩٥٢م، فحتى هذه الثورة كانت المنطقة تحكم من خارجها، ومن أعظم الخدمات التى قدمتها ثورة ١٩٥٢ م، أنها حررت المنطقة ونقلت حكمها إلى أهلها، وهذه حسنة كبرى للثورة ولعبد الناصر خاصة، فقد كان فى رجال الثورة وعبد الناصر بالذات شهامة مازلنا نفخر بها إلى اليوم، فقد كان تحرير مصر من العثمانيين والانجليز وتحرير السودان من الانجليز بداية لعصر جديد للمنطقة كلها وخاصة بعد قيام المملكة العربية السعودية على يد الملك عبد العزيز، وهو دون شك من عباقرة التاريخ العربى الحديث.

ثم قامت بعد ذلك دول الخليج، وهى إمارات صغيرة الحجم، ولكنها غنية ومستقلة الشخصية، وها نحن ألاوء نتصرف اليوم تصرفًا مستقلاً فى مناطق العالم الإسلامى كلها، وهى مصر والسودان والسعودية ودول الخليج ودول المغرب العربى، وهى جمهورينا تونس والجزائر والمكلة المغربية وموريتانيا ومالى، وإذا نحن أضفنا إليها دول غرب أفريقية الإسلامية مثل السنغال ونيجيريا والكاميرون وتشاد، كذلك وسط آسيا الوسطى الاسلامية التى تحررت أخيرًا من السلطة السوفيتية مثل قازاكستان وأوزبكستان وأفغانستان، ثم بنجلاديش وبلاد جنوب شرقى آسيا، وأهمها أندونيزيا وماليزيا، وجدنا بين أيدينا عالمًا أسلاميًا جميلاً فسيحًا خاصة وأن هذه الدول كلها على أحسن علاقات الاتفاق والتعاون فيما بين بعضها البعض،

* نشرت هذه المقالة فى ٨ نوفمبر ١٩٩٢م .

وهذه من الفضائل الكبرى التى لابد أن نذكرها بالخير لثورة يوليو ١٩٥٢م ولعبد الناصر خاصة، فقد كان عبد الناصر رجلاً شهمً طموحًا شجاعًا، وهو دون شك من أكبر بناة العالمين العربى والإسلامى الحديثين، بل إنه من بناة العالم الحديث كله، وتلك فضيلته الكبرى التى وضعت دول الإسلام فى مقدمة العالم الحديث الذى نعيش فيه، وهأنتذا ترى ملك المغرب وهو رئيس لجنة القدس يقوم بزيارة موفقه للقدس، ويمر بهذه المناسبة بمصر والسعودية وسوريا وبعض دول الخليج، وهو بزيارته تلك يزيد علاقات المودة بين دول العالمين العربى والإسلامى.

وقد كان عدوان صدام حسين على الكويت جريمة كبرى، أنكرتها كل بلاد العالم العربى والإسلامى، كانت مصر الهادئة الموادعة فى مقدمة البلاد التى انضمت إلى أمريكا فى تحرير الكويت، وقد حاربت فعلاً على أرض الكويت، واشتركت فى الحرب النبيلة لتحريرها لأن الكويت بلد غنى عظيم، ولا يمكن قط أن نسكت على عدوان صدام حسين عليه، وها هو ذا يسير فى طريقه اليوم قويًا مستقلاً، والعلاقات بينه وبين مصر على خير حال، بل إنه يشترك فى القيام بمشروعات صناعية وعمرانية فى مصر، وهذا هو التعاون الذى نريده أن يكون فى عالمنا العربى والإسلامى، أما العالم القديم – عالم العثمانيين ومن سبقهم من المماليك – فإنه عالم متأخر ضعيف نرجو ألا يعود.

وأنت ترى أن الدنيا كلها تنظر إلى عالمينا العربى والإسلامى نظرة احترام وتقدير لابد أن ذلك سيستمر فى المستقبل، ونحن المصريين سنبنى عالمنا فى صورة أحسن باستمرار بهذا السبب، وهذا هو الذى أريده أن أوضحه فى هذا الفصل.

ومستقبل هذا العالم الإسلامى القوى يقوم على إيمان المسلمين المحدثين بعالمهم المستقل القوى، وإيمانهم بأن هذه البلاد تقوم على إيمان كل منهم

على حدة بالإسلام والعروبة، وقد جاء الوقت الذى نقوم فيه بدورنا فى بناء الدنيا ولا نخضع لدولة أخرى، كما كنا مثلاً فى الماضى، فقد كنا نخضع للأتراك العثمانيين وقبلهم المماليك، ومن الواضح لنا كلنا الآن أن الأتراك لم يكونوا يهتمون بشئون بلادنا، وإنما كانوا يتركون حكمها لطائفة من صغار المماليك لم يعرفوا صالحها أبدًا، ولا يقصدون من وراء حكمها إلا شيئًا من المال، وهو مال قليل فى جملته، ولكن المماليك أنفسهم كانوا أمراء صغارًا ولم يكونوا يستطيعون أن يقدموا لمصر إلا القليل وبعد زوال أمرهم ولدت بلادنا من جديد.

ونحن نريد اليوم أن نستمر فى هذا الطريق، لأن عالمنا الإسلامى والعربى عالم واسع يستهلك الكثير، ومصر تنتج أكثر من غيرها، لأنها فى عصر البناء والإنشاء من زمن طويل، حتى فى أيام المماليك بل الأيوبيين والفاطميين قبلهم كنا ننشئ ونقود، ومنذ بداية العصر الحديث أقامت مصر محمد على عليها، والحقيقة أن المصريين عرفوا كيف يختارون، لأن هذا الرجل كان ذكيًا ونشيطًا جدًا، وقد عرف كيف يدخل العصر الحديث؟ وكيف يدخل مصر فيه؟ ونحن نثنى على محمد على بالرغم من أنانيته البشعة، ولكنه عرف كيف ينشئ دولة حديثة منظمة، وخدمها بذكاء ولكنه لم يعرف كيف يحب مصر لأنه بطبعه كان عاجزًا عن الحب، إلا فى أسرته، ولكنه بدون المصريين ما كان يستطيع أن يضع أساس مصر الحديثة، وقد عجز عن أن يكون مصريًا، ولو أنه تمصر فعلاً لأفاد من مصر أضعاف ما أفاد، لأن مصر بلد متحضر، وقد عاش تاريخه كله فى بناء الحضارة، ولو أن محمد على لم يوجد فى مصر لما استطاع أن يكون شيئًا، ولما كان استطاع أن ينشئ نظامًا سياسيًا ناجحًا كهذا الذى بناه فى مصر والدولة العثمانية نفسها، لم تستطع أن تصل إلى مستوى مصر الحضارى أو السياسى، ونحن نقول إن محمد على أنشأ مصر الحديثة، ولكننا ننسى أن

مصر هى التى أنشأت محمد على نفسه، ومن سوء حظ الرجل أنه ظل بعيدا عن حب مصر، لأنه هو نفسه كان رجلاً أنانيًا، لو أنه تعامل مع مصر على أساس الحب وتمصر لوصل إلى أضعاف ما وصل إليه، لأن مصر بلد له تجربة حضارية وسياسية طويلة، وقد وجد فيها محمد على كل ما احتاج إليه من أهل المواهب والملكات، وها نحن أولا اليوم نرى أن مصر عندما استقلت بنفسها عرفت كيف تسير فى عالم اليوم بنجاح، ونحن نقول إن محمد على أنشأ مصر الحديثة، ولابد أن نذكر أيضا أن مصر أنشأت محمد على نفسه وسارت معه سيرا موفقا، وقد فضل فى قيادته رجالاً غير مصريين وظن أنهم ينشئون له الدولة الحديثة التى أرادها، ولكن المصريين العاديين هم الذين عاونوا هؤلاء الرجال، وماذا كان يستطيع عباس الأول أن يصنع لو لم يكن فى مصر؟ لقد كان عباس حفيدا لمحمد على فهو ابن طوسون بن محمد على، ومن سوء حظنا أن أباه إبراهيم توفى قبل وفاة أبيه محمد على، فقد كان إبراهيم حاكما قديرًا وجنديًا شهمًا، وكان رجلا موهوبا فى كل ناحية، والأوربيون لا يحبونه لأنه قضى على ثورة اليونان على محمد على. وقد كان قاسيًا، ولكنه كان رجلا ممتازا، ومن سوء الحظ أنه توفى فى نوفمبر ١٨٤٨م قبل وفاة أبيه بسنة فاقاموا مكانه عباسا ابنه حاكمًا على مصر وكان عباس غبيًا، وكان معروفا بذلك، ولكن مصر لم تكن بحاجة إلى حاكم غبى، بل كانت تستطيع السير بنفسها، والشعب المصرى شعب هادئ ثابت بعيد، فهو شعب عتيق، وقد عاش فى الدنيا، وبنى فيها طوال تاريخه الطويل، وقد صار بتاريخه بنفسه من وفاة محمد على إلى اليوم، والكثيرون ينسبون إليه بناء قطاعات واسعة من نهضته الحديثة، وإن كان الكثيرون ينسبون الكثير منها إلى إسماعيل.

وبعد تجارب القرن الثامن عشر أصبحت مصر قادرة على قيادة نفسها، والتعاون بنجاح مع إخوانها العرب، ومن حسن الحظ أن السعودية، وبلاد الخليج، بلاد غنية، وهى الميادين الواسعة التى تعتمد عليها مصر اليوم أساسا فى التصدير، وقد أشرنا إلى تعاونها الناجح مع الكويت ومع قطر، ومن حسن الحظ أن السعودية على أحسن العلاقات مع مصر منذ أيام الملك عبد العزيز، وكان حبه لمصر وتقديره لها من مظاهر عبقريته، وها نحن أولاء اليوم نرى أن السعودية ومصر أصبحتا ميدانًا واسعًا للتعاون، ومصر فى نهضتها الراهنة تتعاون بنجاح مع السعودية، وقد نشرت الصحف تفاصيل النشاط الاقتصادى المصرى مع السعودية والصحف تقول يوم (٣٠ أكتوبر ١٩٩٢م) إن الرئيس حسنى مبارك التقى أمس بوفد رجال الاعمال السعوديين الذين زاروا مصر، وشاركوا فى مؤتمر رجال الأعمال السعوديين، الذى ختم أعماله فى مصر يوم ٢٩ أكتوبر، وقد قرر هذا المؤتمر إقامة لجان لبحث الوسائل التنفيذية لإنشاء المؤسسات والهيئات القادرة على دعم التعاون الطموح بين مصر والمملكة العربية السعودية، ومهما تبحث مصر فهى لن تجد ميدانا أوسع ولا أثبت من السعودية وهى بحاجة إليها لأن صناعة مصر تحتاج إلى ميادين ثابتة وواسعة لتوزيع إنتاجها الصناعى والزراعى، لأن الصناعة لا تستمر فى النجاح إلا إذا كان لها سوق دائم ووابع، وقد تقررت فى هذا المؤتمر مشروعات التعاون المصرية السعودية، ومنها إنشاء شركات عربية سعودية، ومنها إنشاء شركة تعمير برأس مال قدره خمسمائة مليون دولار لإصلاح المبانى التى تهدمت فى الزلزال الذى أصاب مصر أخيرا، وإصلاح المساكن المتصدعة، وقد تبين أن أكثر من نصف المبانى التعليمية فى مصر متصدعة، وفى حاجة إلى إصلاح أو إعادة بناء، ومصر فى حاجة إلى الميدان السعودى الواسع للحصول دون استدانة – على ما يمكن أن يغله عليها السوق السعودى، والصناعة المصرية فى حاجة إلى هذا السوق للحصول على الدولارات اللازمة لمبانيها المتصدعة، وقد قرر المؤتمر إنشاء شركة سعودية مصرية ملاحية بين سفاجا

ومدينتى ضبا وينبع وهذه الشركة تسهل الوصول إلى السعودية ومنطقة الخليج العربى، وقد قرر المؤتمر كذلك إنشاء شركة سياحية لخدمة المواصلات بين مصر والسعودية، وأظن أن القارئ يعرف أن الاتصال بين مصر والسعودية مستمر وواسع المدى لخدمة أهداف دينية وتجارية، ودعا المؤتمر كذلك إلى زيادة عدد الوكالات التجارية بين البلدين، وقد زرت جدة أقمت فيها طويلا، وكنت أسعد دائما برؤية نشاط الاتصالات الواسعة بينهما.

وقد زاد الاتصال الاقتصادى بين مصر والسعودية، وعندما كنت فى دمياط كنت أرى أن شركات الموبيليا المصرية تؤثث بيوت السعوديين، وتكسب منهم الكثير، وتكسب من السعودية الكثير جدًا، فإذا قامت هذه الشركات العربية السعودية الكثير جدًا، فإذا قامت هذه الشركات العربية السعودية كسب البلدان منها كثيرًا، ووجدت الصناعة والتجارة المصرية ميدانا واسعا ومستقرا لصناعتها، ومن حسن الحظ أن الرئيس مبارك يرى أهمية التعاون المصرى السعودى، وقد صرح السيد محمد عبد المنعم رئيس المكتب الصحفى برئاسة الجمهورية بأن وفد رجال الاعمال السعوديين أشاد بجهود الرئيس مبارك، والحكومة المصرية للسرعة التى تمت بها اجراءات الانقاذ والايواء للمتأثرين بأضرار الزلزال، وأكدوا أنه إذا قيست هذه الاجراءات وما اتبع من خطوات عملية لاحتواء أضرار الزلزال، فإن هذه الاجراءات والخطوات تعد نموذجية وقياسية، هذا إلى جانب المكاسب التى جناها ويجنيها المصريون العاملون فى هذه المشروعات كلها ، وهى مكاسب عظيمة ولاشك.

والذى أريد أن أقوله هنا، هو أن العرب والمسلمين ينبغى أن يسروا الآن مسيرة أمة واحدة لكى تضمن النجاح، والغرب نفسه يتصرف اليوم كأنه دولة واحدة، وهو يحقق من وراء ذلك أرباحًا اقتصادية هائلة وقوة سياسية

عالمية، وهذا لا يمنع أنهم يختلفون فيما بين بعضهم البعض وكأنهم فى الأساس أمة واحدة وهذا الاتحاد بينهم هو أساس قوتهم، ونحن تعلمنا منهم هذا الدرس، والفضل فى ذلك يرجع بصورة خاصة إلى الرئيس مبارك الذى يعجبون به فى الغرب، وقد وصفته الصحيفة الفرنسية مارى كلير منديس فرانس بأنه رجل الأحكام الصائبة، وقالت إنه يمتلك خاصية فريدة للقوة الهادئة، ويسير فى أموره بحزم وهدوء وثبات، وقد قالت مارى كلير منديس فرانس هذا الكلام فى كتاب أصدرته أخيرا بعنوان «روح الحرية» روت فيه لقاءها بالرئيس مبارك عندما دعاها الرئيس متيران عام ١٩٨٨م إلى مأدبة غداء أقامها للرئيس مبارك، وقال له إنها تعرف قضايا الشرق الأوسط معرفة جيدة، وهى زوجة الرئيس الفرنسى منديس فرانس الذى ساعد على إنهاء حرب فيتنام، وعارض العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦م وطالب بحقوق الفلسطينيين فى الحصول على وطن، وهم لهم فعلا وطن معترف به دوليا، ولكن الذين ينكرون هذا الوطن ويعتدون على الفلسطينيين هم اليهود ، وقد أتوا إلى الشرق الأوسط لكى ينشئوا دولة كبرى، ولم يكونوا عندما أتوا إلى الشرق الأوسط يعرفونه، ويحسبون أنهم إذا تغلبوا على الفلسطينيين تحققت لهم هذه الدولة، وعندما انتصروا علينا سنة ١٩٦٧م ظنوا أن هذه الدولة تحققت، ولكن مصر فاجأتهم بحرب ١٩٧٣م التى أعدها السادات إعدادا عبقريا وأخرج إسرائيل من سيناء وعقد معها معاهدة ردت لها عقلها، وقد أنكر العرب هذه المعاهدة وهاجموا مصر إذا ذاك، ولكنهم الآن يفهمون الدرس المصرى ويسيرون فى الطريق المصرى المتزن، وهأنتذا ترى الملك حسين يزور مصر لدراسة مستقبل فلسطين ويزورنا الملك الحسن ملك المغرب بعد زيارته للقدس، وهو رئيس لجنتها وإسرائيل لم تعد تحلم بنقل عاصمتها إلى القدس، وكل ما كان اسحاق شامير يحلم به كان هراء ولا يستقيم، لأن إسحاق رابين يرى اليوم أن فلسطين لا تقف وحدها وأنها عضو فى الأسرة العربية القوية، ومصر تسير مع هذا العالم العربى سيرًا عاقلاً حازمًا مدروسًا، وهذا هو الدرس العظيم

الذى لابد أن نتعلمه من الرئيس مبارك، لأن العداوة والحرب لا تفيد أحداً، ولكن الذى يفيد هو التعاون والعمل المشترك، ومهما طال الزمن بهذه المفاوضات العربية الإسرائيلية الجامدة، فهى لابد أن تؤدى فى النهاية إلى قيام دولة فلسطين، وتحديد آمال إسرائيل التى كانت ترجو أيام شامير أنها من الممكن أن تنشئ الدولة الإسرائيلية الكبرى، وتسود المنطقة، والحقيقة أن شيئا فى الدنيا لا يتم إلا بالتدبير العاقل الشجاع، وعالمنا العربى عالم خطيرٍ يطمع فيه كل الناس، ولكنه اليوم يسير فى طريق مبارك سيرًا عاقلاً ناجحًا، وقد دخلنا - كما قالت لك فى مقال ماض - عصر الصناعة ونحن نحتاج إلى سوق ثابت واسع، ونحن نبيع اليوم إلى أوروبا لأن صناعتنا ناجحة، ولكنها لابد أن تتقدم وتزداد جودة، وهى لا تستطيع ذلك إلا إذا اعتمدت على السوق العربى الواسع، ونحن اليوم ننشئ مشروعات صناعية وتجارية مع قطر والكويت والسعودية، والفرصة تزداد اتساعًا أمامنا اليوم، وقد اتسع سوقنا فى السعودية ونستطيع الاعتماد عليه، ويزداد اتساعا كل يوم، هذا إلى جانب تعاوننا الواسع الناجح مع الكويت، وبقية بلاد الخليج وليبيا وبلاد المغرب، وهذا طريق لإنشاء وطن مصرى ناجح يزداد نجاحا كل يوم، والسودان يرتد إلى عقله، ويسعى إلى التعاون معنا، والسودان سوق واسع مفتوح أمامنا، ونحن نريد أن يتسع أمامنا سوق السودان، والحكومة المصرية تضع اليوم الأسس لهذا المستقبل المصرى الزاهر الذى يعتمد على السوق العربى، وأنا أكتب هذه السطور لأقول لأبناء بلدى إن مستقبلنا يزداد اليوم اتساعا وثباتا، ومن الواضح أننا إذا تنبهنا إلى مستقبلنا الصناعى هذا وبذلنا جهدنا كله فى الصناعة والتجارة مع العالمين العربى والإسلامى ظهر لنا مستقبل مصر الزاهر إن شاء الله.

(١٧)

كيف نحافظ لمصر على مركزها العالمى*؟

تتمتع مصر اليوم بمركز ومن واجبنا أن نحافظ لها على هذا المركز الذى هو ثروة عالمية، ترى ما الهدف الرئيسى الذى تقصد إليه وتوجه كل قواتك لتحقيقه؟.

كلنا نجيب عن ذلك بكل بساطة: القوة أى المال والسلطة، والسؤال الضرورى بعد ذلك: وما هى السلطة؟.

وأرجو هنا أن تنسى العصر الذى نعيش فيه اليوم، لأننا منذ خضعنا للاحتلال فى القرن الماضى وبعد أن تخلصنا منه بعد الحرب العالمية الثانية، نعيش فى عصر جديد لم يعرفه الماضون، فإن الاحتلال الأوروبى والخلاص منه بعد الحرب العالمية الثانية أدخل مصر فى عالم منظم على أساس من السلطان الغربى، وهذا السلطان الغربى معناه أن أوروبا الغربية بعد أن احتلت بلادنا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وأطلقت لنا الحرية بعد الحرب العالمية الثانية، عرفت كيف تجمع فى أيديها عناصر القوة وتحتفظ لنفسها بالعناصر الرئيسية فى تلك القوة ثم تمنحنا ما تشاء بعد ذلك من السلطان وتسمى ذلك استقلالاً، وقد احتفظ الغرب الأوروبى لنفسه بأصول القوة، ونحن نعرف تمامًا أن هذا لم يكن فى أول الأمر استقلالا ولكنه خير مما عداه قطعًا، حقًا أنه استقلال سطحى ولكننا تمسكنا به أول الأمر وحاولنا أن نستزيد منه فإن الدنيا دخلت بعد الحرب العالمية الثانية فى عصر من التمييز السياسى لم نعرفه فى الماضى ولكنه عصر استقلال لاشك فيه، إنه استقلال سطحى. ولكننا تمسكنا به على أى حال فهو أيا كانت طبيعته خير من الماضى الذى لا نحبه أبدًا.

---

* نشرت هذه المقالة فى ٨ أغسطس ١٩٩٣م.

والسؤال الآن: وما الذى يجعل هذا الاستقلال سطحيا؟ والجواب أن الغرب عرف كيف يجمع فى يديه العناصر الأساسية للقوة فى هذه الدنيا ، وما دام يحتفظ بالعناصر الأساسية فى القوة فإن ما عدا ذلك لا يهمه وتسميته بالاستقلال لا تهمه أيضًا ولكنها تهمنا نحن، فنحن لا نريد أن نعود إلى الماضى أبدا، ومصر بالذات عرفت كيف تتخلص من الاحتلال ولكنها لحسن الحظ عرفت كيف تحتفظ لنفسها بجانب كبير من أسس ذلك الاستقلال، والمصريون يعرفون ذلك معرفة جيدة، ولكن مصر عرفت كيف تحتفظ لنفسها بجانب كبير من القوة القومية السياسية فى أول الأمر، وهذا الجانب الكبير هو العلم والتنظيم، وقد احتل الإنجليز مصر فى سبتمبر سنة ١٩٨٢م واجتهد اللورد كرومر الممثل البريطانى لمصر فى عصر الاحتلال بزعم أن هدفه الرئيسى أثناء الاحتلال هو خدمة الفلاحين، ووجه كل قواه إلى خدمة الفلاحين وكان ذلك صحيحا ولكنه كان يرمى إلى خدمة الفلاحين وتحويلهم إلى عنصر أساسى لملك مصر، ولكن الفلاح المصرى عرف كيف يحتفظ لنفسه بأسس القوة فى عصرنا وهى العلم والتنظيم، وهذه حسنة من حسنات الفلاح ولابد أن نعترف له بها، فحتى فى عصر الاحتلال العثمانى كانت مصر أكثر حضارة من الدول العثمانية، حقا إن مصر كانت تظهر الخضوع للدولة العثمانية ولكن كل الدنيا كانت تعرف أن مصر كانت أستاذة الدولة العثمانية فى كل ميادين الحضارة.. وإن كانت تظهر الخضوع لهذه الدولة والحقيقية أن مصر عاشت معظم تاريخها على حضارتها ولكنها كانت تعيش فى عصور فوضى سياسية تسيطر فيها دول قوية عسكريًا على غيرها من الدول، ولكن مصر تعلمت خلال تاريخها الطويل كيف تحتفظ بقوتها الحضارية سرًا خالدًا لقوتها، وكانت دائمًا تحتفظ بهذه الحضارة سرًا لتاريخها، فإذا خضعت سياسيًا للدولة العثمانية فإنها كانت المركز الأساسى للحضارة بل كانت الأساس لحضارة الدولة العثمانية، وإن أظهرت خلاف ذلك، وكانت الدولة العثمانية تعرف أن مصر هى مركز الحضارة فى دولتها الشاسعة وكانت ترسل إليها الأمراء

والرؤساء ليتعلموا وكانت مصر لا تبخل على العثمانيين بالعلم والفن، وها نحن أولاء نرى اليوم كيف إن مصر بعد أن استقلت عن الدولة العثمانية وغيرها سياسيا فهى كانت فى واقع الأمر أستاذة من أساتذة العالم حضاريا وإذا كان الرئيس مبارك أستاذًا من أساتذة الدنيا اليوم ورئيسا لعدد من الهيئات العالمية.. فإن السبب فى ذلك أنه مخلص وموهوب وقد عرف كيف يبنى لنفسه مركز عالميًا لأنه مصرى مخلص موهوب بطبعه وفى كل الهيئات التى اشترك فيها فى العالم كله عرف كيف يقود ويسود ويصل إلى الرياسة بطبعه المصرى المخلص بل إنهم اختاروه رئيسا لهيئة الرئاسة الأفريقية مرتين فى أقل من سنتين لأن رئاسته تعتمد على القوة الحضارية التى احتفظ مصر بها لنفسها دائما وجاء الوقت الذى تخلصت فيه مصر من كل السلطات الخارجية ومضت تقود العالم فى ميدانها لأن الرئيس مبارك مصرى صادق مخلص. والدول الأفريقية تجد فى رياسته اطمئنانا واستفادة لأن أفريقيا فى عصر الاستقلال الذى دخلت فيه والذى تعيشه اليوم بعد الحرب العالمية الثانية تحتاج إلى رئاسة مصر واستاذيتها وكل ما يكتب فى الصحف العالمية عن رياسة مبارك يؤكد ذلك، ومن واجبنا نحن المصريين أن تعترف بأن الرئيس مبارك عرف كيف يوجه سياسته فى الهيئات التى اشترك فيها توجيها مصريًا، ومصر اليوم دولة عالمية بفضل مبارك ونحن لابد أن نعترف أننا مدينون بذلك للرئيس السادات الذى اختار مبارك نائبا للجمهورية، والسادات نفسه كان رئيسا مصريا صادقا، وقد عرف كيف يصل بمصر إلى الانتصار على إسرائيل وإنزالها من الرياسة التى كانت تدعيها لنفسها فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م، ولم يكن أحد فى الدنيا يعرف سر السادات بل لم يكن هناك من يعرف سر عبد الناصر ومازلنا إلى اليوم نحتفظ فى أذهاننا بصورة عبد الناصر وشخصيته الرياسية التى تجلى بها على العالم بعد وصوله إلى رياسة مصر بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م، فقد أصبح رئيسًا من رؤساء العالم، وقام فى ذلك بدور عظيم حتى خافته أوروبا

وأمريكا، ومصر هى سر قوة عبد الناصر فقد أيدته وقادته إلى رياسة عالمية، وأنا لا أريد بذلك أن أشير بعبد الناصر وهو جدير بذلك بل بمصر التى صنعته ووصلت به إلى الرياسة العالمية.

ونحن اليوم نرى الرياسة العالمية التى تتمتع بها مصر اليوم ونريد أن نقول إن واجبنا اليوم هو المحافظة على تلك الرياسة العالمية التى تتمتع بها فى ظل مبارك لأن ذلك خير على العالم كله، وهذا سر من أسرار مصر، وكل الدنيا تعترف لمصر بهذه الرياسة، وكان العالم كله يرجو مصر أن تحذر من الأخطار التى تتعرض لها اليوم، وأول هذه الأخطار هو زيادة السكان وواجبنا الأول هو أن نحذر تلك الزيادة السكانية التى يمكن أن تسبب لمصر إضرارا بالغة.

وأحب أن أقف بكلامى هنا لكى أقول لإخوانى المصريين إنهم لا يفهمون مصر، وواجبهم الأول هو فهمها وحمايتها من الأخطار التى يمكن أن تتعرض لها، لأن الدنيا كلها إذا لم تستطع الأضرار بمصر لأن مصر تحتفظ بقوتها فى داخل نفسها.. فإن الضرر أن يصيبها من داخل نفسها، وإن كان ذلك غير مفهوم فى ذاته، فإذا كنا نقول الآن إن مصر تتعرض لخطر جسيم من وراء زيادة السكان، فهل معنى ذلك أن مصر لم تتمتع خلال تاريخها الطويل بزيادة فى السكان تعدل الزيادة السكانية فى عصرنا الحاضر؟.

يبدو أن تلك هى الحقيقة وتاريخ مصر سر كبير، ونحن نعرف أشياء خفية قليلة جدا عن تاريخ مصر الحقيقى، لأن هذا البلد الصغير المساحة كبير جدا من ناحية التاريخ الحضارى، لأن مصر عاشت تاريخا طويلا جدا من الناحية الحضارية، لأن الفلاح المصرى رجل ذكى جدًا. فإن الأرض التى يزرعها سر من أسرار الوجود، فهو يزرع أحسن قطن فى هذه الدنيا، ويقدم للدنيا أحسن قماش، ولكن أحدا فى الدنيا لا يعرف كيف يكون

ذلك، فإن أرض مصر لا تختلف فى شىء كثير عن غيرها فكيف يخرج الفلاح المصرى هذا القطن العجيب؟ لقد حاولت الدنيا كلها أن تقلد زراعة القطن المصرى فى أرضها ولكنها لم توفق مع أن المصرى لم يحاول أبدًا أن يجعل زراعته سرًا على غير المصريين، فإن الفلاح المصرى إنسان عجيب، فهو صامت لا يكاد يتكلم، وقد وفدت على مصر جماعات من فلاحى العالم وحاولت أن تسرق سر القطن المصرى، بل إن الفلاح لم يحاول أن يخفى هذا السر على أحد، بل لقد سرقت أمم كثيرة بذور القطن المصرى وزرعتها فى بلادها فلم توفق فى إنتاج القطن المصرى بل إن الدنيا كلها مازالت إلى يومنا هذا تطالب بالقطن المصرى والقماش المصرى، والسر الحقيقى فى الفلاح المصرى الذى يتميز على كل فلاحى الدنيا، وهذا هو الذى أريد أن أقوله فى هذه المقالة:

إن الفلاح المصرى إنسان عجيب، وفى يده سر عالى، وإذا كنا نريد أن نحتفظ بقوة مصر فلابد أن نحافظ على الزراعة، بل إننا نحن المصريين نعرف أن خير المصريين أولاد الفلاحين، وبناة تاريخ مصر جميعا أولاد فلاحين، وكان على مبارك وزيرًا فلاحًا بل كان أحسن وزراء محمد على، ولكن محمد على لم يحاول أن يعرف سر قوة الفلاح المصرى، ولو عرف هذا السر وحاول أن يصبح فلاحًا لكان أقوى عشرات المرات مما كان، وكان الأجانب الذين يفدون إلى مصر للعمل يعرفون ذلك وكانوا يعاملون محمد على على أنه أجنبى مثلهم، تلك كانت نقطة الضعف فى كيانه، وعندما بدأت قواته فى الانهزام فى بلاد الشام وانسحب إلى مصر طلب إلى المصريين أن يدعوا ودعوا له بالفعل، ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان.

وخسر محمد على الحرب، ولكن الذى فهم الفلاح المصرى كان ابنه إبراهيم، ومن سوء حظ محمد على أن ابنه إبراهيم توفى قبله، ولو أنه عاش وحكم مصر بعد أبيه لكانت مصر قوة تاريخية كبرى، ولكن

الذى جاء بعد محمد على وإبراهيم كان عباس بن طوسون بن محمد على وكان رجلاً غبيًا قاسيًا لا يفهم شيئًا عن سياسة مصر أو سياسة الدنيا، وكان حكمه لمصر نهاية أسرة محمد على لأن عباس لم يضع يده على قوة مصر بل أسلمها للدول الأوروبية التى كانت ترسم له سياسته، وقد أوقف عباس الأول مسيرة التاريخ الحضارى المصرى، وسار خليفته سعيد فى نفس الطريق وإن كان أذكى من عباس بكثير ولكنه لم يكن أحسن من عباس بكثير، فقد أسلم مصر للأجانب وعاش عالة على أوروبا وسيطر عليه فرديناند ديليسبس ابن قنصل فرنسا فى مصر فى أيام محمد على، وقد عرف كيف يأخذ التصريح بشق القناة سنة ١٨٥٤م، وبعد سنتين أى سنة ١٨٥٦م أخذ من سعيد مرسوم الموافقة على شق القناة، ونحن اليوم وبعد تغير أحوال الدنيا لا نكره الأذن بشق القناة ولكننا نتعجب كيف إن فرديناند ديليسبس لم يأخذ التصريح له بشق القناة على أنه ينشئ شركة مصرية ولكنه أنشأ شركة عالمية، وربما كان مضطرًا إلى ذلك فى ظروف ذلك العصر المضطربة، لأن إنجلترا كانت تضغط عليه وتحرص على ألا تكون الشركة فرنسية، فإن التصريح بشق القناة «يقول إن القناة بين السويس وبلوز (الفرما) على البحر الأبيض تكون حرة لجميع سفن العالم التجارية بدون تمييز أو تحفظ مهما كانت الجنسية التى تنتسب إليها السفينة بشرط دفع الضرائب المطلوبة واتباع القوانين، ولا يجوز للشركة أن تمنح أى فرد أو أية شركة امتيازات لا يتمتع بها الجميع، وأن الشركة لها حق التمتع مدة ٩٩ سنة ابتداء من افتتاحها وبعد انتهاء المدة أى سنة ١٩٦٨م تكون القناة ملكا للحكومة المصرية».

وقد تعهد سعيد باشا بأن يكون أربعة أخماس الفعلة (أى العمال) الذين يعملون فى حفر القناة من الفلاحين المصريين، وأن يكون للشركة حق حفر ترعة من النيل إلى القناة وحق امتلاك الأراضى اللازمة على ضفتى القناة

وحق استيراد جميع الأدوات من الخارج بدون تحصيل مكوس عليها، وحددت رسوم المرور فى القناة بمقدار عشرة فرنكات من كل مسافر وعلى كل طن، وأن يخص الحكومة المصرية ١٥٪ من صافى الأرباح . وجدير بالملاحظة أن ديلسبس قضى حوالى أربع سنوات فى دراسة المشروع وتجهيزه واقناع الدول وخاصة إنجلترا وتركيا بفائدته، ومن أجل ذلك قام لينان وموجل وهما مهندسان فرنسيان كانا يعملان إذ ذاك فى خدمة الحكومة المصرية بتقديم تقرير فنى اثبتا فيه إمكان تنفيذ المشروع، وأراد ديليسبس أن يجذب الرأى العالمى نحو مشروعه ويزيل الشكوك من أذهان بعض الناس، فدعا أعظم مهندسى العالم لزيارة مصر ودراسة المشروع من الوجهة العملية وإبداء رأيهم فى التقرير المقدم من لينان وموجل فاجتمعت اللجنة الدولية فى مصر وأقرت المشروع وأكدت نجاحه وفائدته وبذلك تبددت الشكوك التى قامت حول إمكان تنفيذ المشروع، وتشجع ديليسبس وأعلن فى ٥ نوفمبر سنة ١٨٥٨م تأليف الشركة العالمية لقناة السويس فأقبل الناس على الشركة برأس مال قدره مائتا مليون فرنك مقسمة إلى أربعمائة ألف سهم، فأقبل الناس على شراء أسهمها واشترت فرنسا أكثرها (٢٠٧١١١ سهم) وتلتها مصر وبدأ حفر القناة فيما بين بحيرة المنزلة والبحر الأبيض فى ٢٥ أبريل سنة ١٨٥٨م.

وكلنا نأسف على ما حدث فى قناة السويس، وقد تعودنا أن نعبر عن أنفسنا لما حدث فى قناة السويس وتعودنا على البكاء على الألوف من المصريين الذين أنفقوا حياتهم فى حفر القناة لأن أولئك المساكين دفعوا حياتهم لخدمة مصر، وكان من الممكن أن يعاملهم فرديناند ديليسبس معاملة إنسانية، لأنهم مهما كان ماتوا مظلومين وديليسبس كان رجلا ظالما وغير أخلاقى، ولا ندرى ما السر فى تصرفه اللاأخلاقى السيئ مع المصريين؟ ولكنه لم ينظر أبدًا إلى صالح مصر أو صالح المصريين فى عمله فى شق القناة. ولكن ذلك كله انتهى الآن وبقيت قناة السويس التى تساوى

عشرات من أمثال ذلك الرجل. وقد كنت طوال حياتى أتعجب من قوة هذا الرجل ولا أحبه، فلم يكن فى تصرفه فى شق القناة إلا رجلاً أنانيا قاسيا، وقد كرهته فرنسا وتخلت عنه و أدخلته السجن وهو يستحق ذلك كله. وما من مرة زرت الاسماعيلية ودخلت بيته الذى هو متحف الآن إلا نفرت منه نفسى، وقد انتهى ذلك كله الآن وتمتعت مصر بالاستقلال والاحترام فى أيام عبد الناصر والسادات ثم حسنى مبارك الذى أثبت أنه رجل محترم جدا بهذه الأخلاق الكريمة التى وصل بها إلى رياسات عالمية وخدم الدنيا كلها، وقد أحسنت مصر إلى نفسها عندما رشحته للرياسة للمرة الثالثة وهو سيعرف كيف يتصرف على أحسن مستوى خلال تلك الرياسة الثالثة لأن الرجل مصرى كريم وما يعجبنا فى تصرفه هو المصرية الفلاحية العظيمة التى يجرى عليها.

وهذا هو الذى أريد أن أقوله الآن لأن مصر اليوم رياسة من رياسات الدنيا ولابد أن تستمر على ذلك لأن الدنيا كلها فى حاجة إلى مصر، ولاشك فى أن الدنيا كلها تحتاج إلى خلق مبارك المصرى العظيم، فإن الرجل متواضع جدًا، وهذا التواضع مصرى، وكل واحد منا يستطيع أن يلتزم بالخلق المصرى ويصبح صنوا لمبارك وليس هذا بالقليل، ولكنه أساس قوة مصر، ومن رأيى أننا نحن المصريين ينبغى أن نلتزم هذا الخلق لأنه خلق مصرى، وقد يدرس الواحد منا دراسات عظيمة ويصبح طبيبا أو مهندسًا أو محاميًا عظيمًا ولكن أهم شىء فيه هو المصرية الفلاحية الكريمة.

(١٨)
مصر.. وزعامة العالم العربى*

غريب أمر هؤلاء العرب!

ليس هناك سبب منطقى لكى يقعوا فى عداءات بعضهم مع بعض ومع ذلك فأنت لا تجد أسبابا لعدوات بعضهم مع بعض ومع ذلك فلا تكاد تجد بلداً واحداً منها إلا وبينه وبين البلاد العربية الأخرى عدوات.. ويكفى أن نذكر الخلافات الجارية اليوم بين السعودية وقطر، ولو شاءت السعودية لما كان فى الوجود شىء اسمه قطر، ولكن سياسة الملك عبد العزيز آل سعود كانت تقصد دائماً إلى السلام وعندما تكونت المملكة العربية السعودية كانت بلاد الخليج قد تكونت، وكلها باستثناء عُمان.

كانت دولا جديدة انشأها رجال محدثون ولو أراد أن يتحدى وجودها لما ثبت له معظمها، ولكن الرجل بعد أن قامت المملكة العربية السعودية وجد أن هذه الدول لا تؤثر فى وجود السعودية، ثم إن معظم هذه الدول كانت محمية من دول غربية وكانت الولايات المتحدة واقفة إلى جوارها، وكان عبد العزيز آل سعود رجلا عاقلاً جداً، كان لا يريد الدخول فى مشاكل مع الولايات المتحدة مثلا، ثم أنه بعد أن أتم إنشاء السعودية وحصل على الاعتراف الدولى بها أراد أن يحصل على تأييد الغرب وأمريكا فى صالح السعودية، ثم أنه كان رجلاً مفكراً فقال فى نفسه: وما معنى الخلافات مع أمريكا؟ ثم إن دول الخليج إذ ذاك كانت دويلات فقيرة، وكانت ثروتها من البترول أقل بكثير مما صارت إليه. وكان الرجل قد بدأ فى إنشاء السعودية من سن الرابعة عشرة ونجح فى إنشاء دولة عظيمة تشمل معظم شبه الجزيرة وعقد علاقات صداقة مع مصر وزارها مرتين

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٩ سبتمبر ١٩٩٣م.

ووضع دولته السعودية على رأس دول العالم، وقد اهتم بتقوية دولته السعودية خاصة وقد بلغت على يده حجماً وأهمية لم يكونا على بال أحد فوجد الرجل أن العقل يقضى بالسلام مع دول شبه الجزيرة وهذا الرجل – عبد العزيز آل سعود – كان عبقريا فعلاً ونحن مدينون له بالانتظام والرخاء اللذين نتمتع بهما فى الواقع اليوم.

والحقيقة أن عبد العزيز آل سعود وضع للعرب طريقاً حقيقيا للسلام، ولو أن العرب أدركوا طريقه للسلام لكانوا اليوم فى حالة ممتازة من السلام، ولكن مصر فقط هى التى فهمت الملك عبد العزيز وأنشأت معه طريقاً ممتازاً للسلام، وقد أدرك المصريون أنه لا يجوز أن يكون لكل بلد عربى إسلامى أو عربى دولة وقوة إلا العرب. وعندما زار الملك عبد العزيز مصر وضع فيها أساسا للسلام ، ونحن المصريين فهمنا هذا الرجل وأنشأنا معه حلفاً سليماً أعطى السعودية ما تستحق، وفى زيارته لمصر أعطاها ما تستحق، والملك فاروق أدرك أهمية السعودية وزارها زيارة عظيمة القيمة، وتلك حسنة من حسنات الملك فاروق. فقد كان يدرك أهمية آراء وزرائه ويعمل بنصائحهم، والمشكلة الحقيقية فى عصر أن الخلاف كان شديداً بين رؤساء وزرائه، وقد أدرك أن عصر مصر الجديد من الممكن أن يقوم على حسن النية، ومن يوم قامت فيه علاقات الصداقة الحالية مع مصر وهى أساس الاستقرار ثم التقدم فى العالم العربى اليوم، ولاشك أن مصر تتمتع اليوم بمركز ممتاز بسبب السلام الذى تتمتع به، وقد بدأ ببناء مصر الحديثة (والراهنة) جمال عبد الناصر، ولكن عبد الناصر لم يكن رجل سلام، لأنه كان بطبعه رجل كفاح، وقد أراد أن تكون مصر زعيمة وقائدة للعرب ثم العالم الثالث ولكنه لم ينجح فى تحقيق ما أراد، وكانت هزيمته سنة ١٩٦٧م مخجلة، وقد أراد بعدها أن يستقيل وكتب استقالته فعلا، ولكن المصريين رفضوا قبولها وكانت نظريتهم أنه إذا كان لابد أن يستقبل عبد الناصر فنحن، المصريين، نقيله ولن نسمح بأن يقيله اليهود، لأنه قدم

إستقالته بعد هزيمته سنة ١٩٦٧م، وقد رفض المصريون قبول هذه الاستقالة واستمر رئيساً، وكان قد أراد أن يبنى مصر، ولكن الهزيمة كانت قد أطفأت شعلة الزعامة فى نفسه، وحضر الرجل مؤتمر الوحدة العربية فى القاهرة سنة ١٩٧٠م ومات واقفاً على قدميه فى نهاية المؤتمر، ولدينا صورة لعبد الناصر يودع ضيوفه فى مؤتمر القاهرة، وهو فى هذه الصورة ميت، واقف على قدميه ميتا، وكان الموت أحسن ما حدث فقد أخلى المكان للسادات، والسادات كان رجل النصر، وهو صاحب الفضل فى انتصار ١٩٧٣م والله سبحانه يعرف كيف أعد السادات مصر للنصر فقد بدأ بداية مفزعة فقد طرد من مصر ٧٠٠٠ روسى، وكانوا يقبضون على كل شىء بأيديهم، ولكنه طردهم وأمسك بكل شىء بيديه، واستعان بضباط أبطال وأدرك النصر سنة ١٩٧٣م، ومن أحسن ما عمل أنه اختار للوكالة عنه فى الرياسة حسنى مبارك، ومبارك كان قائداً عظيماً، وقد اخترناه نحن ليكون خليفة للسادات، وهذا أحسن ما فعلناه، لأن مبارك كان قائداً عظيماً ثم أصبح رئيساً ممتازاً فهو من صناع النصر، ومصر كلها اختارته للرياسة بإيمان ووقفت إلى جانبه ورسمت له طريق النصر، وهو نفسه كان مستعداً للسير فى هذا الطريق، وهو طريق الاستعداد العسكرى المتاز والحفاظ مع ذلك على السلام، وقد أدرك مبارك أن سِرَّ قوة مصر هو الفلاح، والحقيقة أن الفلاح المصرى شىء عظيم جداً فهو رجل سلام وبناء، والغالبية العظمى من عظماء مصر فلاحون، فسار مبارك فى طريق السلام إلى جانب الاستعداد العسكرى العظيم، وذلك هو الطريق الذى تسير فيه مصر اليوم وأساسه كما ترى هو الفلاح، لأن الفلاح هو المقاتل المصرى وهو بانى الحضارة المصرية منذ أيام الفراعنة، وقد غاب ذلك عن محمد على فظل أجنبياً عن مصر طول حياته وإن كان رئيساً لها، بل نحن الذين بنيناه، وقد أدرك محمد على ذلك عندما رأى انتصار جنوده الفلاحين وتعجب وهو يراهم يشقون طريقهم إلى الأستانة وعندما وصلوا منتصرين إلى بروسّة وأخذوا يستعدون للعبور إلى الآستانة أدرك خطأه وطلب إلى المصريين أن يدعوا له

ودعوا له ولكن ذلك بعد فوات الأوان، ولو أن محمد على أدرك قوة المصريين لكان له تاريخ آخر، ومن سوء الحظ أن إبراهيم مات قبل محمد على، وإبراهيم هو الذى أدرك فضل الفلاح المصرى ورآه يقف منتصراً فى بروسة ومستعداً للعبور إلى الأستانة، وجاء بعد محمد على عباس بن طوسون بن محمد على ولم يكن ذكياً ولا قادراً بل لم يكن مصرياً، ولكن بداية المصرية كانت مع سعيد بن محمد على، وكان سعيد رجلاً طيباً أسلم نفسه لصديقه فرديناند دليسبس صاحب فكرة قناة السويس ومنفذها وكانت انجلترا قد وضعت عينها على مصر وبدأت تسعى للاستيلاء عليها للاطمئنان على طريق الهند، وكانت بريطانيا تقول إنها كانت تريد سلامة مصر، ولكنها فى الحقيقة كانت مصلحتها الخاصة، وقد حققتها بالاستيلاء على مصر فى سبتمبر ١٨٨٢م، والغريب أن انجلترا كانت تزعم أنها تريد المحافظة على طريق الهند، وعندما استولت على مصر سنة ١٨٨٢ اطمأنت على طريق الهند واللورد كرومر أول مندوب سام لإنجلترا زعم أن رسالته الكبرى كانت انقاذ الفلاح، وهى لم تنقذ الفلاح لأن الذى أنقذ الفلاح هو الفلاح نفسه فهو رجل يعمل طول حياته بهدوء وصبر وإتقان.

والفلاح هو سر قوة مصر، وهو ذكى وشغال والغالبية العظمى من قادة المصريين أبناء فلاحين والفلاح المصرى رجل شغال وصامت، وأنا عندما أرى الفلاح يعمل فى الأرض بصبره المعهود أقول فى نفسى: هذه هى قوة مصر، وينبغى أن نعرف أن فأس الفلاح لا تزرع الأرض فقط بل تبنى حضارة فالدنيا كلها مثلا تزرع القطن ولكن فأس الفلاح تزرع القطن المصرى، والقطن المصرى فى ذاته حضارة فنحن نصنع منه قماشاً ممتازاً تنفرد به مصر بين بلاد الدنيا، وكما قلت لك إن معظم عظماء مصر أبناء فلاحين، وقد كان على مبارك فلاحاً ابن فلاح ولم يعرف محمد على قدره إلا فى نهاية حكمه، ولو أدرك ذلك من بداية حكمه وسعى للانتساب إلى الفلاحين لكانت أسرته مصرية ولكانت أنشأت حضارة ونحن لم نكن

لنزيلها، ومحمد على كان عبقريًا ولكنه لم يكن مصريا بل ولا تركيا، ولهذا فلم يصبح مواطنًا مصريًا وظل طال حكمه تاجراً وأصبحت الأسرة التى أنشأها لحكم مصر أسرة تجار، وربما كان المصرى الوحيد فى أسرة محمد على هو فاروق، ذلك من الاسكندرية منفيا إلى إيطاليا ولم آسف عليه، وما كان يستحق الأمير والمسكين الذى اجتهدت ثورة ١٩٥٢م فى عزله عن مصر، وقد حضرت خروجه الاسف، وقد عاش بقية عمره منفيا فى إيطاليا ولم يأسف عليه أحد عندما مات منفيا غريبا. وما أظن أحداً فى الدنيا أسف عليه ولكن موته كان نهاية مصر فى العصور الوسطى، وهى بلد لم يعرف حقيقته أحد لأن الدولة العثمانية كانت دولة بلا شخصية، ومصر بانية الحضارة ولدت باختفاء الدولة العثمانية، ومصر المستقلة ولدت باختفاء الدولة العثمانية ويقولون إن مصر اليوم زعيمة العالم العربى الإسلامى، ولكنى أقول لك إن مصر ليست فى حاجة إلى هذه الزعامة، ولكنها فى حاجة إلى نفسها وهى لا تتزعم غيرها ولكنها تتزعم الفكر الحضارى العربى الإسلامى وهو واحد من أكبر الحضارات العالمية. وقد تبين ذلك فى مؤتمر العطاء الحضارى للإسلام الذى عقد فى يوم السبت ٢٨ أغسطس ١٩٩٣م، فقد ألقى خطاب الافتتاح فيه الرئيس مبارك وألقى الخطاب نيابة عنه الدكتور عاطف صدقى رئيس الوزراء وقال: إن من أولى مهام المؤتمر أن نتوجه إلى شعوب الأمة الإسلامية وحكامها ومؤسساتها إلى الرأى العام العالمى بالدعوة إلى تحكم القيم التى تقررها الأديان والحرية والمساواة مع وضع معايير لحل المشكلات العالمية دون تمييز وبيان، إن المسلمين متسامحون لأن التسامح منهج الإسلام والمسلمون إنسانيون لا يعرفون تعصباً ولا غدراً، لا يقتلون النساء أو الأطفال ولا الشيوخ ولا الأسرى ولا يصادرون الأرض ولا الديار ولا يعتدون على أحد نزولا على أحكام الكتاب والسنة. وقد حضر ذلك المؤتمر نيابة عن الرئيس مبارك الدكتور محمد على محجوب وزير الأوقاف وفضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق شيخ الأزهر ومشاركة أكثر من ٥٠٠ عالم ومفكر إسلامى وداعية من

نحو خمسين دولة عربية وإسلامية بالإضافة إلى ممثلين عن الأقليات الإسلامية والهيئات الإسلامية في العالم. ومصر تتزعم هنا ذلك العالم الإسلامى الواسع الذى هو فى نفس الوقت يمثل جزءا هاماً من حضارة العالم. وأنا أنقل هنا عن البيان الذى أورده الأهرام عن المؤتمر، ومصر تتزعمه دون أن تكون لها حاجة إلى هذه الزعامة، لأن الزعامة لا تتمشى مع الديمقراطية، وتلك هى الرسالة الحضارية التى تقوم بها مصر فى عالم اليوم. وهى رسالة حضارية عظيمة، وما كانت مصر لتستطيع القيام بها لو كانت خاضعة للدولة العثمانية، لأن الدولة العثمانية كانت دولة موت من الناحية الحضارية. كانت دولة عسكرية سياسية ولهذا فقد إنهارت عندما هدم الغرب بنيانها السياسى والعسكرى، وها هى ذى اليوم اليوم تحاول أن تقيم بنيانها كدولة تركية إسلامية. وهذه رسالة مصر اليوم وهى رسالة حضارية ومصر جديرة بها.

وأكد الدكتور محمد على محجوب وزير الأوقاف فى نفس المؤتمر وهو هنا يعبر عن رسالة مصر فى عالم اليوم إننا مطالبون بأن نكشف من جديد من حولنا عن الوجه المشرق للإسلام وما يحمله للدنيا كلها من خير وعدل ورحمة وسلام بعيداً عن تعصب المتعصبين وعدوان المعتدين وظلم الظالمين. وهذه رسالة مصر الحضارية فى عالم اليوم. وقد أراد الدكتور محمد على محجوب أن يزيد رسالة مصر الحضارية فى عالم اليوم وضوحاً فقال : (حان الوقت لكى نواجه المتغيرات العالمية من حولنا بمنطق العصر وحضارة الإسلام وأن ندرك أن مصير أمتنا الإسلامية ومبادئ ديننا لا ينبغى أن تترك للأهواء والأنواء أو المتخلفين وسافكى الدماء)، وعمرو موسى يدرك حقيقة موقف مصر والعرب من مشاكل الدنيا، وماذا ينبغى أن نفعل لنسير فى عالم اليوم بنجاح، وقد نشرت جريدة الأهرام فى الصفحة الأولى من عدد الاثنين ٣ أغسطس الخبر التالى: وصف السيد عمرو موسى وزير الخارجية نتائج اجتماعات مؤتمر بيروت الذى عقدته دول الطوق بأنها

إيجابية، وقال فى مؤتمر صحفى عقب استقبال الرئيس له أمس: لابد أن نستعد للتفاوض لأنه البديل المطروح حاليا على أساس الأرض مقابل السلام، فنحن لا ندخل التفاوض بصفة عامة دون مبادئ محددة فهناك إطار الأرض مقابل السلام «إننا نريد الأرض والحق وفى مقابل هذا نعطى الالتزامات المقابلة، ونتيجة هذا كله السلام».

وقال إن اجتماعات بيروت كانت مخصصة للإعداد للجولة القادمة للمفاوضات ومناقشة الظروف المؤدية إلى هذا (أى إلى تحقيق نظرية الأرض مقابل السلام) وتحليل نتائج الجولة الأخيرة فتقرر بالإجماع جميع الوفود على الاشتراك فى مفاوضات السلام فى واشنطون للعمل على إنجاح هذه المفاوضات. والحقيقة أن مأساة فلسطين من عمل الدولة العثمانية، فهذه الدولة لم تحدد أرض فلسطين، بل تركتها عائمة، وعندما زالت الدولة العثمانية تركت فلسطين فى الهواء بلا صاحب ولا وطنية، وتلك هى النتيجة المؤسفة التى تنبهت لها إسرائيل التى كانت تبحث عن أرض لتقيم فيها دولتها وكان رجالها اليهود قد جمعوا مالا عظيماً واستعانوا بأمريكا على إنشاء هذه الدولة، وأمريكا كانت تعانى من أزمة اليهود الذين تعلقوا برقبتها فساعدتهم، ولم يكن هناك فلسطينيون ليقوموا بحماية الأرض والشعب الفلسطينى الذى يعيش عليها، وعندما تزعم الدولة العربية الكبرى جمال عبد الناصر ابتداء من يوليو ١٩٥٢م غابت عنه هذه الحقيقة، وتلك هى المأساة التى إنتهزتها إسرائيل لإنشاء دولتها على الأرض الفلسطينية وسُميت ما وضعت يدها عليه اسم إسرائيل وهكذا دخلنا كلنا فى مشكلة إسرائيل.

ولا يمكننا أن نلوم الفلسطينيين على شىء فقد سرق اليهود الأرض وأتوا بألوف اليهود وأنشأوا إسرائيل وجعلوا عاصمتها تل أبيب وظنوا أنهم أنشأوا دولتهم لتأخذ كل أرض فلسطين، ولم تكن هناك حكومة فلسطينية

لتقاوم هذا العدوان ولم ينتبه إلى ذلك فى حينه إلا مصر والأردن، وقد ظن العرب إذ ذاك أنهم يستطيعون القضاء على إسرائيل وقادهم فى ذلك الملك عبد الله ملك الأردن ولكنهم انهزموا سنة ١٩٦٧م واحتلت إسرائيل أراضى من مصر والأردن وسوريا، وكان لابد أن يستعيد العرب أراضيهم، وهذا هو الذى دبره بعبقرية أنور السادات فقد انتصر فى حرب ١٩٧٣م واستعاد سيناء فيما عدا طابا، وقد استعدناها فيما بعد، ولكننا عرفنا كيف نكسر أنف إسرائيل ونتزلها من عرش السلاح والقوة ودخلنا فى دور جديد من تاريخنا، وهو الدور الذى نعيشه اليوم وواضح أننا ما كنا لنستطيع ذلك إلا بمعاونة أمريكا، وهذا هو الذى أدركه الرئيس مبارك منذ أصبح رئيس مصر، وهو طريق ممتاز، بل لم يكن هناك طريق آخر لمواجهة إسرائيل وهذا هو ما نفعله اليوم، ولاشك فى إننا سننتصر فى النهاية وننشىء دولة فلسطين وإن لم نستطع إزالة إسرائيل.

والرئيس حسنى مبارك يقود مصر فى هذا الطريق السليم، وهو يقودنا بنجاح ونحن سعداء به ولكن المهمة عسيرة لأن إسرائيل قوية جداً رغم هزيمتها فى حرب ١٩٧٣م. ومن حسن الحظ أن الرجل يدرك أن المسألة ليست مسألة فلسطين فحسب، بل مشكلة العرب كلهم. وفيما يتعلق بمصر نقول إن مبارك يسير فى الطريق الجديد سيرا ناجحا جداً، فقد اهتم بمساعدة العسكريين فى مصر فى إنشاء جيش عظيم وصناعات عسكرية ناجحة، ومصر اليوم من أقوى دول العالم عسكريا ولكن سياستها عسكرية، وفى نفس الوقت نحن نستعين بأمريكا لأن أمريكا فى حاجة إلى مصر، وقد تنبه إلى ذلك الرئيس جورج بوش، وهو من أ نجح رؤساء أمريكا، وهو صاحب فكرة المفاوضات بين العرب وإسرائيل، وواضح أن المفاوضات ستؤدى إلى قيام دولة فلسطينية على رغم إسرائيل.

والقوة العسكرية المصرية مؤسسة عظيمة لأنها ليست مجرد جيش بل صناعة عسكرية ناجحة، ومصانعنا الحربية شىء عظيم الصناعات

العسكرية كثيرة ومصر تقوم بها كلها وتصدر الكثير من مصنوعاتها، والأسلحة المصرية اليوم توجد فى كل نواحى العالم بما فيها أوربا، وإلى جانب الصناعات العسكرية تسير مصر فى طريق السلام سيرًا ناجحاً وإن كنت لا أحب الكلام عما يسميه البعض زعامة مصر، فمصر زعيمة دون أن تطلب الزعامة، وهذا هو طريق مصر السليم ومن حسن الحظ أن مصر اكتشفت هذا الطريق فى الوقت المناسب.

ومصر اليوم تجنى ثمرات صناعاتها العسكرية، فهى إلى جانب نجاحها تفتح أبواب الرزق للألوف، والمصريون صناع مهرة جداً والألوف من الشباب المصرى يجدون طريقهم للعمل والكسب لأن الصناعات العسكرية مفتوحة للألوف من شباب مصر الذين يطلبون العمل، ومعنى ذلك أننا نبنى مصر من جديد ونسير بها فى طريق السلام والرئيس مبارك صاحب فضل فى ذلك، وهو من غير شك من أعظم رؤساء مصر، ومعنى ذلك أن مصر وجدت نفسها بعد متاعب السنين والحمد لله وهذا هو الذى أردت أن أقوله فى هذا المقال لكى يحافظ المصريون جميعًا عليه.

(١٩)
مصر ومحمد على وبيته
تاريخ عجيب*

فى مشوارك فى الحياة أنت ترى من الناس أشكالاً وألوانًا، وهذا فى ذاته عجيبة، لأن الإنسان بصفته إنسانا له شكل محدود معروف: عينان وأنف وفم، وفوق ذلك كله غطاء من الشعر يعطى لشكله الصورة الإنسانية، وهذه الأعضاء كلها تتكامل فيما بينها لتعطينا فى النهاية صورة الإنسان المعروفة، ونحن ربما لا نستطيع أن نصدر على جنسنا الإنسانى الوصف الصحيح، ولكن المخلوقات الأخرى ربما استطاعت إذا منحها الله الرغبة فى ذلك والقدرة عليه، والمخلوقات التى هى أجمل والإنسان ربما استطاعت ذلك، ولكنها لا تستطيع ولا تريد، وأستطيع أن أقول إنها حتى لو منحها الله القدرة عليه، وقد كنت فى صوتى شديد الولع بالقطط، كان شكلها يعجبنى خاصة وهى صغيرة، وعندما تقدمت فى السن وزادت قدرتى على التفكير رأيت سخف الولع بالقطط، لأنها فى ذاتها لا تعرف إلا الولع بجنسها، بل بجزء من جنسها ولا يعنيها الباقى، حتى جاء يوم سرقت فيه قطة، بنت قطة أخرى كانت تعيش هى وأولادها فى رعايتنا، ولا أحدثك ما حدث فى بيتنا، لقد وقعت حرب كبرى بين القطتين، والواقع أن القطة التى سُرقت ابنتها كانت سيئة الحظ فى الأولاد فقد سرقت قطط أخرى أولادها دون أن تدرى، والذى ساعدها على أن تعرف هذه المرة هو أن الأولاد كانوا كلهم ثلاثة، ثم إن القطة الأم رأت القطة اللصة وهى تسرق، وهناك ظهر عليها من الوحشية والضراوة ما لم أكن أتصوره، لقد أنزلت بالسارقة من الوحشية ما جعلنى أتساءل: هذه هى القطط التى نعطف عليها؟ لا والله لا كانت ولابد لنا من التخلص من هذه

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٧ مارس ١٩٩٤م .

الحيوانات المتوحشة فعلا، وطلبت إلى أهلى وأنا أخرج فى الصباح أن يخلصونا منها وينظفوا مكانها، فما عاد عندى وقت للعناية بها، وهى تكلفنى وقتا طويلا، وهى لا تستحق، ولا ترحب منى بهذه العناية، ونحن فى الحقيقة لا نعرف لماذا خلق الله القطط، بل لماذا خلق كل تلك الأحياء ما بين حيوان وطير ونبات، وهو سبحانه يعرف لماذا خلقها، فهو سبحانه الخالق، وهذا كونه، وأنا أولى بوقتى، وبهذا انتهى دور القطط فى تجربتى الإنسانية، ولم نعد نربى قططا أو كلابا فى بيتنا، وزادنى غضبا على القطط أنه كانت لنا حديقة كنا نربى فيها دجاجا، وكان دجاجنا ممتازا فعلا، فكنا نأكل منه أحيانا. فذهبت هذه القطة الأم إلى الحديقة بأولادها وأرادت أن تضعها فى تقفيصة الدجاج، وتسربت إلى داخل التقفيصة وحاولت الاعتداء على الدجاج، وتصادف أننى كنت فى الحديقة إذ ذاك، ورأيتها وهى تحاول الاعتداء على الدجاج، وتصدى لها ديك شهم وضربها ضربا مبرحا وأخرجها وأولادها من بيته، وقد أعجبنى هذا الديك فأحببته، وطلبت إلى أهلى وإلى العاملين عندنا ألا يذبحوه وأن يحسنوا طعامه، وقد أعجبنى شهامته، وقد تبينت أنه فى حرب طول النهار مع القطط وغيرها من الحيوانات التى تتسرب إلى حديقتنا، وقد أطلقنا عليه اسم ماركوس، وصرنا إذا تلاقينا مع معارفنا سألنا معارفنا عن ماركوس وكيف حاله؟ وكنا إذ ذاك فى أسبانيا، وبلغ الأمر أن إحدى الصحف كتبت عن ماركوس، وظن بعض الصحفيين أن ماركوس هذا صديق يعيش معنا، وكنت قد اشتريته من شمال أسبانيا.. وكان غاية فى الجمال، فقد كان نعمة من نعم الدنيا، وكان أسود اللون شديد حمرة الأذنين والعرف، وقد أنجب لنا أجيالا من الدجاج وكان كله خيرا وبركة.

وقد مررنا جميعا بتجارب من هذا النوع، ولكنها دخلت فى باب التربية فى حياتنا، أى أنها لم تأخذ المكان الذى تستحقه؛ لأن معركتنا مع الزمان تأخذ كل وقتنا، ونحن جميعا فى عصرنا هذا نولد معدمين، وندخل المعركة مع الزمان، لأننا كلنا نريد أن نعيش حياة مرتفعة

المستوى، ولهذا فإن معاركنا مع الحياة قاسية جدا، وطويلة جدا، وعندما كنت فى البعثة فى أسبانيا كانت هناك جمعية للحاصلين على الدكتوراه من جامعات أسبانيا للبحث لهم عن وظائف، ولم تكن تبحث لهم عن أى وظائف بل عن وظائف محترمة يفيدون فيها مما درسوا، وتفيد منهم أسبانيا، وقد وجدوا لى أنا وظيفة محترمة جدا كخبير لغوى فى المجمع العلمى الأسبانى، وقد أعجبتنى هذه الوظيفة وأسعدتنى، فقد كان المركز كبيرا، والدخل عظيما، وقد كنا معروفين لدى الأسبان، وكانوا يأخذوننا للعمل معهم فترات قصيرة ولكنهم كانوا يعطوننا رواتب وأتعابا محترمة، وأنا عملت عند كثيرين، منهم سيدة محترمة ولا أدرى الآن ماذا فعل اللّه سبحانه بشأنها، وقد دهشت جدا عندما أبلغتها أن الله أحل الزواج من أربع فى الإسلام ليتحاشى الزنا، ولهذا أيضا سهل الزواج على الرجل، وهو لم يجعل للمرأة حق الزواج أو الطلاق حتى تصبح الحياة ممكنة، وإلا فكيف كنا سنعيش وللرجل والمرأة حق الزواج والطلاق على نفس المستوى، ولم نسمع أبدا عن جماعة أعطت المرأة نفس الحق فى الطلاق والزواج بنفس المستوى، لأن الحياة لا يمكن أن تسير فى الطريق السوى فى هذه الحالة، والمرأة نفسها رغم طول شكواها من الرجال لم تطالب قط بهذه الحقوق، وإذا كنت متزوجا فاسأل زوجتك إن كانت تريد ذلك؟ فستجد أن النساء لا يفكرون فى ذلك، وستجدها لا تريد، لأنها كامرأة لا تريد السلطان، وإنما تريد السعادة، ولكنى أعتقد أن الأحسن والأسعد للرجل ألا نمس كرامته كرجل، ونترك له الحق فى الفصل الزواج، لأن ذلك يدخل فى طبيعته كرجل، ولكنا فى تجربة حياتنا نعرف رجالا متساهلين فى حقوقهم، يتركون لنسائهم الكلمة الفاصلة فى حياتهم الزوجية، ولم يعجب واحد منا بواحد من أولئك الرجال، لأن الاقتصار فى ملكية هذه الحقوق على الرجل أساسى بالنسبة للحياة، وأنت ترى هذا فى مجتمعات الدواجن، فإن الديك أو الذكر هو دائما قائد المجموعة، وهذا لا يمنع من القول بأن هناك زوجات قويات، لأن ذلك ضرورى، وخاصة إذا كان

الرجل ضعيفا ومتساهلا فى حقوقه مع زوجتـه أو زوجاتـه، وهنـاك رجـال يحسبون أن المرأة تريد ذلك، ولكننـا نقـول رغـم إنكارنـا لـه إن هـذا ليـس أحسن للمرأة، فإن المرأة لا تلبث أن تنجـب أطفـالا، وهـى بطبعـها ملزمـة بالعناية بهم وتربيتهم، فإذا كبروا قليلا أصبحوا قرة عينها، ولابد أن يكون فى هؤلاء الأطفال من يعجبها فتعطيه من العناية قدرا يزيد على مـا تعطيـه للأطفال الآخرين، ومثل هذا الطفل تجده عندما ينمو ويدخل فى الصبوة ثم الشباب يصبح ذا سلطان كبير فى البيت وقد يدخـل فـى صـراع مـع أمـه، وهذا سبب من أسباب الاضطرابات فـى البيـت، وهـو يعطينـا مثـالا لسـوء تصرف المرأة فى حياتها الزوجية، إذا كان الزوج ضعيفـا وغـير قـادر علـى قيادة بيته، وأنا لا أعجب بمثل هذا الرجل: لأنه فى العادة يكون ضعيـف الشخصية، وغير راغب فى أن يـأخذ نصيبـه الحـق فـى الحيـاة الزوجيـة وغيرها، وهذا كلام أوجهه لغـيرى مـن الرجـال حتـى لا يسـتمروا فيـه إذا كانوا من هذا الطراز، وأقول لهم إن المرأة لا تحب هذا الطراز من الرجـال، لأن قوة الرجل قوة للمرأة فى نفس الوقت، وكل علاقة ينشئها الرجال لابد أن يدخـل السـلطان فيـــها، ولا يستحســن أن يكــون الرجــل ضعيفـا أو متساهلا، بل إن ذلك لا يدخل فى طبعه، وقوة الرجل فى معظـم الأحـوال تقاس بقدرته على كسب المال والكرم فى إعطائه لأسرته؛ لأن ذلـك يعطـى الفرصة لأمراته لكى تقوى هى وبيتها وتشـترى مـا تريـد لنفسـها ولبيتـها، والقارئ يعرف قطعا أن المجتمع يعرف كل أصناف الناس، ومن هنا فلابد أن يكون الرجل منا والمرأة أيضا عارفا بنواحى القوة والضعف، وينبغى أن تكون له رقابة على نفســه، وأن يكـون قـادرا علـى التصـرف فـى بيتـه تصرف رجل، والطيبة ليس معناها التساهل، وإنمـا معناهـا الحـزم، وهـى طيبة فى التصرف أساسا، وليست فى صلب الموضوع، ونحن المصريـين قـد عرفنا تحت السيادة العثمانية أشياء سيئة كثيرة، ولا أريـد أن أكررهـا هنـا مخافة أن يسأم القارئ فهو يعرفها كلها عن طريق حياته نفسها، والمشـكلة هنا أن للإنسان ذهنا يفكر، والتفكير كما هو نعمة على الإنســان فـهو نقمـة

عليه أيضا، والإنسان يتحمل متاعب الحياة لأنه يريد أن يعيش، لأن الحياة رغم ذلك كله جميلة، والإنسان يستطيع أن يجد فيها ما يستمتع به دائما، وهذا هو قدر الإنسان فالحياة التى يحبها يحبها غيره من الأحياء ويستمتعون بها، ولكنك لا تفكر فيها، إنها تعيش وتريد أن تعيش وتحارب لكى تعيش، كل ذلك دون أن تفكر فى الحياة أو فيما تفرضه عليه، وهناك آدميون كثيرون على هذا الطراز، وربما كان هؤلاء هم السعداء ومن يدرى - أصلا - ما هى السعادة أو ما هى الحياة وكيف يستمتع الإنسان بها، والفلاسفة يرون أنه لا يمكن أن تكون هناك حياة سعيدة ما دام هناك فكر.

وقد خففنا نحن المسلمين من وقع الفكر علينا بأن ربطنا أنفسنا بالله سبحانه وتعالى، وهو يتولى التخفيف عنا إذا كنا مؤمنين به حقا، والإيمان بالله عسير، وهو نعمة من الله يكرم بها من يحب، وقد اختصنا بكتاب منه كريم هو القرآن الكريم، وهو خطاب من الله سبحانه للإنسان، والكتاب فعلا نعمة، وقد علمنا رسول الله ﷺ كيف نستمع به، وكان لابد من ذلك، لأن القرآن نفسه صعب، ولكن الله يخففه على من يستحق، فهو صعب وسهل فى آن معا، وهذه ناحية من نواحى إعجازه، فهو معجزة لمن لا يريد أن يؤمن به، ونحن سعداء بالقرآن الكريم على قدر ما يريد الله سبحانه، وهذه ناحية من نواحى جمال الإسلام.

والمصرى يولد مظلوما، وحمل مصر على كتفيه ثقيل، ومصر بلد صغير بحجمه الجغرافى، ومعظمها صحراء، وهذه الصحراء كانت نقمة، فليس من السهل إذا كنت طموحا أن تعيش فى بلد أرضه المزروعة تمثل ٣٪ من مساحته، ولكن سبحان الله فإن هذه الثلاثة فى المائة مباركة، ومصر تعيش بها دون معاناة طويلة من أمد طويل، ولكننا الآن وقد تعلمنا فى عصرنا كثيرا نرى أن الـ ٩٧٪ الصحراوية نعمة، لأنها صحراء خصبة أى يكفى أن توصل إليها الماء لتخضر وتثمر، فهى نعمة إذن، نعمة مشروطة بالعمل،

وليس فى ذلك شىء، لأن الحياة فى لبابها نعمة مشروطة، وأنت عندما تدعو ربك لينعم عليك فهو سبحانه لن ينعم عليك وأنت نائم، بل لابد لك من أن تعمل، وليس على وجه الأرض إنسان يتمتع دون أن يعمل، وإذا رأيت إنسانا ورث نعمة فأنت لا تنكر ذلك عليه، لأن الذى ورثه عمل لكى يجمع ثروة لورثته، ومع ذلك فالوارث لابد أن يعمل لكى يتمتع بما ورث، والنوم ليس فيه إلا الأحلام.

وأنا أرى بوضوح أننا إذا أردنا أن نستمتع بمصر كلها أن نستزرع كل أراضيها الصحراوية، فإن علينا - نحن المصريين أن نعمل القرن القادم كله، فإن مساحة الصحراء عندنا تبلغ الآن ٤٦٪ من مجموع مساحة أرضها والنيل نهرنا مع عدد من دول القارة الأفريقية، والمصريون يعتقدون أن الله أعطاهم النيل، والله سبحانه لم يعطهم النيل، ولكننا نحن المصريين استولينا على رأس النيل، واحتللنا حوضه حتى الخط الممتد من جنوبى حلايب فى الشرق إلى جبل العوينات فى الغرب، هذا الخط يمر شمالى وادى حلفا مخترقا نهر النيل شمالى وادى حلفا، والسودان بهذا تملك مساحة من بحيرة ناصر وإذا استصلحت مصر كل أراضيها فإنها تصبح بذلك من أقوى بلاد القارة الأفريقية، حقا إن مصر اليوم من أقوى دول تلك القارة ولكن معنويا أو حضاريا، أما إذا استصلحنا كل أراضيها فيصبح لديها حوالى نصف مليون كيلو متر أرضا مزروعة، وهى مساحة عظيمة سيكون على كل مصرى أن يترك هذه الحجة التى يسند كل مصر كسول إليها كسله بالقول بأنه لا يجد ما يعمله، لأنه فى هذه الحالة سيكون لدينا حوالى نصف مليون كيلو متر أرضا زراعية، الكيلومتر فيه فدانان ونصف، والنتيجة ١٢٥٠ مليون فدان أرضا زراعية وهذه مساحة هائلة تحتاج إلى عمل ٧١٥٠ إنسانا، وسيكون عددنا قد نما فى ذلك الوقت إلى ستين مليون مواطن أى أن عددنا سيزيد على المساحة التى يستطيع أن يزرعها الإنسان، وعندما نصل إلى ذلك لن نستطيع التأخر خاصة أن قادتنا

العسكريين اليوم مهتمون جدا بالشئون العسكرية، وجيشنا اليوم إذا لم يكن من أقوى الجيوش من الناحية العسكرية فهو قريب منها جدا، وأرضنا طيبة جدًا أى أن قليلاً من الماء يكفى لتحويل أى جزء إلى جنة، ومستوانا العسكرى فى السلاح اليوم هائل، فما بالك فيما بعد، ومن هنا فإننى أصر هنا على أن ألفت نظر المصرى إلى ما ينتظره فى المستقبل، لأن قادة جيشنا إذا كانوا قد رأوا ضرورة إعداد هذه القوة العسكرية، فهم يعرفون لماذا، وقد أثبتنا ملكاتنا العسكرية فى حرب ١٩٧٣م حيث انتصرنا على إسرائيل وحطمناها عسكريا بسلاح قليل، والفضل فى ذلك لأنور السادات رحمه الله رحمة واسعة، ورجل مثل الفريق محمد حسين طنطاوى يستحق منا كل تحية واكبار والذى أعنيه من وراء هذا الكلام هو أن أقول للقارئ المصرى إن المستقبل الذى ينتظره عظيم، ولكنه مستقبل عمل فى كل ميدان، ولا مفر له من هذا المستقبل بكل مسئولياته، وأمريكا عندما تقول إنها تعتمد على مصر فى هذه المنطقة، وهذا ما تقوله أمريكا نفسها، وهى محقة فى هذا القول، وهى من ناحيتها تعرف قيمة مصر، وهى تقدم لها كل ما تستطيع من معاونة لكى تستطيع مصر أن تقوم بمسئولياتها فى منطقتها، بل فى العالم أجمع، وأنا لا أقول هذا الكلام مجاملة لمصر، فمصر ليست بحاجة إلى كلمة مجاملة منى، فهى بنفسها قائمة بمسئولياتها فى عالم اليوم، والناس لم يكونوا يعرفون قدر مصر بسبب سياسة المماليك البرجية والدولة العثمانية، لأن المماليك البرجية لم يكونوا دولة، وإنما هم مجموعة من العتاولة ورثوا المماليك البحرية ونتائج الأعمال الباهرة التى قام بها الظاهر بيبرس البندقدارى وقلاوون، ثم جاء بعدهم الأتراك العثمانيون، وهم دولة غطت على مصر، ومصر خضعت لها لأنها فى أول أمرها كانت تحارب الغرب الأوروبى وتنتصر عليه، ولكن الدولة العثمانية وهن أمرها وخضعت للغرب هى الأخرى، وفقدت احترامها فى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية والعربية، وجاء وقت كان المصريون لا يعرفون عن الدولة العثمانية إلا أنها دولة استعمار، وكانت تجبى من البلاد الخاضعة لها

ضريبة ثقيلة، ونفض المصريون وغيرهم من شعوب العالم العربى والإسلامى يديه منها، وفى مصر عهدت الدولة العثمانية إلى طراز غريب من الناس ليتولوا أعمالها ويوافوها بالضريبة، والناس مجمعون على أن الدولة العثمانية دولة مستبدة وهى كذلك فعلا، ولكنها أخف من دولة كالرومانية، ومصر فهمت الدولة العثمانية من أول الأمر، وعرفت كيف تدفع لها الضريبة دون أن تؤذى نفسها، وقد قلنا فيما سبق إنها كانت الأستاذة فى الدولة العثمانية، ولا أقول شيئا سيئا فى حق الرجال الذين استعملتهم فى إدارة مصر، وبعثت بأولادهم فى البعثات، لأن الغالبية العظمى منهم تمصرت مع الزمن، وأصبحت من خيار أهل الزعامة والقيادة فى مصر، وقد اختلطت بهؤلاء الزعماء جماعة من الفقهاء مثل الشيخ حسن العطار والشيخ رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك، وكل المصريين من هذا الطراز أى أنهم فلاحون وأبناء فلاحين أصلا، ثم تغيروا بعد ذلك وصاروا من أكبر رجال مصر، وبنوا فى مصر البلد القائد للعالمين: الإسلامى والعربى، والذين يعادون مصر فى العالمين العربى والإسلامى يعرفون أنهم ينطحون صخرة عاتية، ومصر إذا كانت اليوم تقود العالم العربى، فإنها تفعل ذلك بطلعها دون أن تقصد إلى شىء منه فهى بطبعها قاعدة حضارية وطلاب العلم فيها أضعاف ما فى غيرها من بلاد العرب والإسلام وانظر إلى المتقدمين لشغل الوظائف العلمية والتعليمية والحضارية فى كل الميادين والبلاد فستجدهم أضعاف أمثالهم فى أى بلد شرقى آخر وستدهش لأن الشعب المصرى شعب حضارة، وهؤلاء الذين يتقدمون لشغل الوظائف الحضارية من مصر يواصلون عمل آبائهم، فهكذا كانت مصر فى كل زمان: أستاذة حضارة، وأنا أرجو أبنائى الشبان ألا ينسوا ذلك أبدا، فهذا هو الذى بنى مصر: شعبها الفلاح وأولاده، وقد قلت ذلك سابقا، ولا أريد أن أكرره، وقد لاحظت وأنا أعمل فى الكويت أن كل غير المصريين الذين يعملون معى من الفلسطينيين والسوريين والعراقيين يعملون ليكسبوا ويظلوا فى الكويت، ويطالبون هذه الدولة بأن يتعلم أولادهم فيها ويأخذوا

جنسيتها، إلا المصرى، فإنه أخذ جنسيته والتزم بها، ويعود إلى مصر فى النهاية، لأن وجود هؤلاء الرجال وكل عمل كبير قاموا به لمصر، لأن مصر روحه وسر قوته وبدونها هو لا شىء.

ونحن هنا نحسب أننا نكرم مصر ونعطيها حقها، والحقيقة أننا نكرم المواطن ونعطيه حقه، لأن هذا هو سر قوة رجال مثل مصطفى كامل ومحمد فريد، فنحن عندما نتكلم عن هذين العظيمين نرى هذه الحقيقة بوضوح فإننا لم نسأل أبدا إن كان أصلهما مصريا لأننا حتى منتصف القرن الماضى كنا لا ندقق كثيرا فى أصل الرجل، ومادام قد دخل مصر واستقر فيها وتزوج من أهلها فهو مصرى، وأولاده مصريون، لأننا أهل مصر كنا نرى أنفسنا أهلا لكل الدنيا، وكل من نزل بلدنا ودخل فينا فهو مصرى، ومن الذى أعطى محمد على الجنسية المصرية، لقد كان الرجل تركيا من قولة فى غربى تركيا، ونزل بلدنا ضمن الجند الارناؤوط العثمانيين الذين كانوا يأتون بلدنا من الدولة العثمانية، ونحن الذين انتخبناه وريسناه للولاية على مصر، وكان فى إمكاننا أن نرشح للولاية عمر مكرم، وهو مصرى أصيل من أهل الاسكندرية، وفى هذه الحالة كانت الدولة العثمانية ترفض الاعتراف به، فكان ما فعلناه نحن المصريين هو الطريق الوحيد لكى توافق الدولة العثمانية على ولايته على مصر، وقد أقرته الدولة العثمانية على مصر، وسيطر الرجل عليها وأبعد عمر مكرم عن الوظائف، واستبد الرجل بأمر مصر لذكائه وشخصيته، بل هو أصبح الذى يعطى الجنسية المصرية وهو غير مصرى، والذى جعله مصريا هو انتصار القائد الإنجليزى فابيير عليه فى الشام، وقرار الدول الأوروبية بأن تقتصر ولايته على مصر، هذا لم يكن له مفر من أن يكون مصريًا، فقد فقد تركيته عندما حارب العثمانيين، وقد انتصر عليهم بجيشه المصرى، وفى ذلك الحين مات ابنه إبراهيم أكرم أولاده بالمرض، وقد خسرنا نحن المصريين شيئًا كبيرًا جدًا بوفاة إبراهيم، ولم يبق لنا من أسرة محمد على إلا أمثال عباس، ولم تكن له ميزة تميزه حتى الدولة العثمانية لم يكن له فيها حق بعد أن انقلب أبوه على

العثمانيين وحاربهم، وقد رشحته الدولة لإثارة مصر أو خديويتها، فأصبح الرجل حاكم مصر دون أن يكون مصريًا، ولكن أحدًا لم يسأله عن حقه فى الجنسية المصرية، وقد كان الرجل أميرًا صعلوكًا، وقد أساء إلى مصر دون أن يعطيها شيئًا لأنه لم يكن لديه شيء يعطيه، ولم يكن فيمن خلفه من الخديويين رجل جدير بولاية مصر، ولكن هكذا كانت تسير الأمور فى ذلك العصر العثمانى المقلوب النظم، ومصر هى التى أعطت فؤاد جنسيتها دون أن يستحق ذلك.

(٢٠)

مازلنا معرضين للخطر الشيوعى*!

الأخبار كلها تقول اليوم إن مصر أصبحت من دول العالم الرئيسية، فنحن اليوم زعماء منطقة الشرق الأوسط، وذلك بعد أن جاهدنا طويلا لكى نتخلص من الاحتلال الأجنبى، وقد كنا بالفعل نعانى من الاحتلال الأجنبى، وقد حاربنا الإنجليز سنوات طويلة للتخلص من احتلالهم، وكانت إنجلترا قد تمكنت فى عصر الاستعمار من احتلال مصر فى سبتمبر سنة ١٨٨٢م، ولكن مصر حاربت الاحتلال الإنجليزى طويلاً، وجاء وقت كان فى كل ركن من أركان مصر مركز من مراكز الجهاد يضم مصريين شجعانا وظيفتهم الرئيسية هى قتل الإنجليز المحتلين، وخاف الإنجليز من المصريين فأصدروا قرارا فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ بأن الحماية على مصر انتهت، وأن مصر قد أصبحت حكومة مستقلة سلطنة فى أول الأمر ثم تحولت (بالاسم فحسب) إلى مملكة فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢م، وقد كنا فى الماضى نكره الإنجليز، وكنا على حق فى هذه الكراهية، لأن الإنجليز احتلوا مصر بالخداع والكذب والخبث واللؤم، وعندما نقرأ ما كان مصطفى كامل ومحمد فريد وأحمد عرابى ومحمود فهمى ومحمد عبيد وعلى فهمى الديب وعبد العال حلمى وبقية رجال الحركة الوطنية المصرية فى القرن التاسع عشر نلاحظ فعلا أن إنجلترا خدعت المصريين واحتلت مصر دون حق، ولابد على أى حال من دراسة تاريخ مصر فى العصر الحديث وكتابته من جديد وسيقتضى ذلك دراسة الدولة العثمانية لأن مصر تحت سيادة هذه الدولة كانت قد وصلت إلى درجة من الضعف والجهل لا نظن أنها عرفتها فى أى وقت مضى.

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢ يناير ١٩٩٤م .

وليس فى نيتى ولا إمكانى أن أفعل ذلك الآن، لأن الدولة العثمانية كانت دولة معقدة وبعد أن كانت أقوى دولة فى العالم وانتصرت فى كل حروبها مع العالم واحتلت القسطنطينية تجمدت ثم ضعفت وأصبحت من بلاد العالم الجامدة، ثم أخذت تفقد ممتلكاتها ثم انضمت إلى ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى وخرجت منهزمة وتداركها مصطفى كمال أتاتورك وألغى الإمبراطورية وانشأ دولة تركيا فى آسيا الصغرى وجزء من أوروبا..

وقد تأثرت مصر بالدولة العثمانية التى ظلت تتدخل فى شئون مصر حتى الحرب العالمية الأولى التى بدأت سنة ١٩١٤م، ومن الواضح أن الدولة العثمانية لم تقدم لمصر أى نفع لأنها هى نفسها لم يكن لديها ما تقدمه لمصر، فقد كانت قوة عسكرية وسياسية ولكنها لم تكن قوة حضارية، أما مصر فقد كانت دائما قوة حضارية، وقد تحملت متاعب كثيرة من العثمانيين، وقد غزا العثمانيون مصر فى سنة ١٥١٧م، وظلوا يؤذونها حتى قامت الثورة على الامبراطورية سنة ١٩٢٧م، وكان مصطفى كمال أتاتورك يرى أن الدولة العثمانية ليست دولة محترمة، وأن خير ما يعمله هو الغاؤها وقد فعل ذلك بعد الحرب العالمية الأولى، وأنشأ مكانها دولة تركيا التى اقتصرت بعد ذلك على دولة تركيا، التى نعرفها بحدودها اليوم بعد حرب تحرير طويلة حرر فيها تركيا من احتلال اليونان وإيطاليا لأجزاء من أراضى الدولة العثمانية وحرر الأستانة من سيطرة غرب أوروبا، ولكنه نقل عاصمة الدولة التى حررها إلى أنقرة فى قلب الدولة العثمانية فى آسيا الصغرى، وقد خضعت مصر للدولة العثمانية منذ أن غزاها السلطان سليم الثانى سنة ١٥١٧م حتى احتلها الإنجليز فى سبتمبر ١٨٨٢م ولم تنتفع مصر بشىء من الدولة العثمانية ولم تنهزم مصر أمام تركيا، لأنها كانت عند الغزو العثمانى خاضعة للمماليك البرجية، وكانت دولتهم فى مصر ضعيفة ومضطربة، وقد انتصر عليهم السلطان سليم بصورة فيها خيانة، فلم تكن دولة المماليك عدوة للعثمانيين بل كانت صديقة لها، ولكن السلطان

سليم غزاها بعد انتصاره على المماليك فى مرج دابق فى شمال بلاد الشام، ولم يحزن المصريون على دولة المماليك لأنها لم تكن مصرية؛ لأن المماليك البرجية لم يكونوا مصريين بل كانوا شركسا وآرمن، ولم يحبهم المصريون أبدا ولم يرحب المصريون بالاحتلال العثمانى ولا هم رحبوا بالدولة العثمانية، لأنها فى - أيام الغزو - دولة الإسلام الكبرى، ومن الغريب أن العثمانيين بعد غزوا مصر عهدوا فى حكمها إلى المماليك وكانوا اجناسا مختلفة من شركس وأرمن وأكراد وأجناس أخرى وكانوا خاضعين للدولة العثمانية وكانت حكومتهم سيئة ولم يعرفوا قدر مصر أبدا حتى انتزعها منهم الإنجليز فى سبتمبر ١٨٨٢م، وقد انتهى ذلك كله الآن وها أنت ذا ترى أن مصر اليوم دولة مستقلة كاملة السيادة على أرضها وحكومتها حكومة قومية ورئيس دولتنا اليوم الرئيس مبارك وطنى مخلص وصادق وعاقل وحكومته مصرية خالصة، ونحن نحبه لذلك ونؤيده، وقد أيدناه لفترة رياسة ثالثة بكل إخلاص، وحكومة عاطف صدقى حكومة مصرية صادقة مخلصة وكل الوزراء مصريون صادقون وأكفاء، والشعب المصرى هو الذى أشرف على الحكومة وهو يؤيدها وهو على حق فى هذا التأييد لأن أى حكومة تقوم على تأييد شعبها لابد أن تكون حكومة سليمة وقوية، وقد كانت مصر دائما قوية وناجحة، لأن حكوماتها كانت تقوم دائما على التأييد الشعبى، وقد خسرت مصر كثيرا جدًا خلال العصر العثمانى لأن العثمانيين لم يكونوا يؤمنون بالشعوب، وهذا هو أكبر سبب فى ضعف الدولة العثمانية، لأنها كانت إذا فتحت بلدًا بحثت عن جماعة تعهد إليهم فى حكمه مع خضوعه لهم خضوعًا تامًا، ومصر خضعت للدولة العثمانية ولكنها احتفظت بشخصيتها بل إنها اخضعت الدولة العثمانية لأنها دولة حضارة وتاريخ مصر تاريخ حضارى من أقدم العصور، بل إن المصرى أنشأ المبانى الجميلة منذ أيام الفراعنة وسجل عليها تاريخه السياسى والعسكرى والاقتصادى من أقدم العصور، والطريف فى منشآت مصر القديمة أنها فى ذاتها منشآت فنية عظيمة القيمة وهى فى نفس

الوقت كتب سجل عليها المصرى تاريخه ولم ينجح شعب فى ذلك كما نجح المصريون، وقد غزا الفرس مصر سنة ٥٢٥ قبل الميلاد وحطموا الأداة المصرية العسكرية والحربة ولكن الحضارة المصرية عاشت رغم ذلك، لأن مصر بلد حضارى من أقدم عصور تاريخه، ولم تستعد مصر قوتها السياسية والعسكرية القديمة لأن عدد سكان مصر أيام الغزو الفارسى كان حوالى سبعة ملايين وجيشها لم يزد أبدا على خمسين ألفا، وقد غزاها الفرس بجيش ضخم زاد على مائة ألف وحطموا وخربوا كل ما استطاعوا تحطيمه وتخريبه ولكن حضارة مصر ظلت حية وقوية فى مركزها العظيم على رأس الدلتا وفى سخا وغيرها من عواصم الوجه البحرى وعواصم الصعيد حتى طيبة وبلاد النوبة وشمالى السودان، وبعد التخريب الفارسى وانكسار القوة العسكرية المصرية نهضت مصر من جديد لأن شعب مصر شعب حضارى يدعو إلى العجب والإعجاب والفرس الذين أنزلوا بمصر تلك الكارثة زالت دولتهم وهزمهم اليونان ثم الرومان لأنها لم تكن دولة حضارة وهذه عبرة من عبر التاريخ لا ينبغى أن ينساها المصريون لأن قوة مصر فى شعبها وشعبها هو الذى بنى حضارتها وهذه كلها حقائق تاريخية لا ينبغى أن ينساها المصريون، وهذا هو الذى أريد أن أقوله اليوم للمصريين.

فقد خاضت مصر حروبًا قاسية خلال تاريخها الطويل، ولكنها لم تفقد نفسها أبدا وها نحن أولاء نراها اليوم تستعيد قوتها السياسية والعسكرية لأن مصر تعتمد دائمًا على حضارتها، وجيشنا الذى يقوده اليوم ضباط عظام من أمثال الفريق محمد حسين طنطاوى نشأة حضارية بناها ضباط عظام من أيام عبد الناصر والسادات ثم حسنى مبارك اليوم وهؤلاء جميعا وطنيون مخلصون وبفضلهم وصلت مصر إلى المركز العظيم الذى تعيش فيه الآن. فأنت ترى أن مصر اليوم بلد مستقل استقلالاً تامًا وحكومتها قومية سليمة، وأنت ربما كنت صغير العمر ولم تعرف الاستقلال الكاذب الذى كنا نعيش فيه قبل عصر الثورة، فقد كانت مصر مملكة مستقلة حتى فى عصر الاحتلال البريطانى مملكة مستقلة يحكمها ملك من أسرة محمد على

وهو الملك أحمد فؤاد وكان هذا الملك يكذب ويقول فى بيان له إلى شعب مصر عن إعلان إنجلترا استقلال مصر فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢م إن الحماية على مصر انتهت وإن مصر قد أصبحت حكومة مستقلة ذات سيادة.

لقد من الله علينا بأن نجعل استقلال البلاد على أيدينا وأن نبتهل إلى المولى بأخلص الشكر وأجمل الحمد على ذلك ونعلن على ملأ العالم أن مصر اليوم دولة متمتعة بالسيادة والاستقلال ونتخذ بنفسنا لقب صاحب الجلالة ملك مصر ليكون لبلادنا ما يتفق مع استقلالها من مظاهر الشخصية الدولية وأسباب العزة القومية، وها نحن أولاء نشهد اللّه ونشهد أمتنا فى هذه السيادة العظمى، إننا لن نلو جهدا فى السعى بكل ما أوتينا من قوة صدق وعزم لخير بلادنا المحبوبة والعمل على اسعاد شعبنا الكريم إننا ندعو المولى القدير أن يجعل هذا اليوم فاتحة عصر سعيد يعيد لمصر ماضيها المجيد.

وكنا كلنا نعرف أنه كاذب، وهو نفسه يعرف أنه كاذب ولكنه كان لا يستحى ولا يحب المصريين ولا كان المصريون يحبونه، ولكن هذه كانت صورة من صور كذب الحكام الذى عرفته مصر فيما مضى، إنما كان شعب مصر مع زعمائه العظام من أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وحمد الباسل وغيرهم من الزعماء المخلصين الذين يجاهدون حتى حققوا لمصر استقلالها الذى نتمتع به اليوم وأحب أن يعرف القارئ أن مصر كانت دائما مستقلة حتى فى العصر العثمانى وأيام الاحتلال البريطانى، لأن مصر هى شعبها، وشعب مصر كان دائما شعبا مستقلا قائما بنفسه لأنه شعب عزيز تعتمد حياته على حضارته وشعب مصر كان يعرف دائما كيف يعيش مستقلا لأن حياته وتاريخه يعتمد على حضارته وحضارة مصر من أقوى حضارات البشر، ويكفى أن تزور قرية مصرية مهما صغرت لتعرف أنك تتعامل مع ناس متحضرين، والعالم كله يعترف لشعب مصر بقوته الحضارية التى تعتبر من أسس الحضارة البشرية، وها نحن أولاء نرى أن شعب مصر قائد من قواد التاريخ البشرى، فنحن بلد مستقل حقا ونحن مركز من أكبر مراكز

العالم العربى والأفريقى وأرجو الا يغتر المصريون بحضارتهم بل يركزوا اهتمامهم على تقوية حضارة بلادهم، لأن الحضارة كما تزيد تنقص وها نحن أولاً نرى أن مصر بعد أن انتهى عصر الاستعمار قامت على قدميها وكانت تعرف دائما كيف تقوم على قدميها وشباب مصر اليوم يجاهد فى التعلم وعدد شباب مصر يصل إلى ثلث سكان مصر، وكلهم فى المدارس وليس فى الدنيا شعب يزيد إجتهاد شبابه فى التعلم كما نرى فى مصر، وليس ذلك تنفيذًا لسياسة دولة بل إن هذه هى طبيعة شعب مصر المتحضر، والحكومة تقول إن التعليم فى مصر مجانيًا، ولكنه ليس مجانيا إن الحكومة تفتح المدارس وتعين المدرسين ولكن الشعب هو الذى ينفق على التعليم ويصل ما ينفقه أى شاب لكى يتعلم حوالى ثلاثة آلاف جنيه فى الشهر، والشاب المصرى ينفق هذه المبالغ بسعادة واهتمام وصدق لأنه يريد أن يتعلم لأنه بطبعه إنسان متحضر، وفى العصر العثمانى لم تكن الحكومة تنفق مالا على التعليم لأن العثمانيين ليسوا شعبًا متحضرًا كان كل اجتهادهم عسكريًا وحربيًا، ولا أظن أن هناك شعبًا تبلغ فيه نسبة المدارس والمعاهد والجامعات إلى ما يصل إليه شباب مصر الذين يواصلون بإجتهادهم هذا بناء قوة مصر الحضارية وهى أساس وجودها كله.

وهذا موضوع هام جدًا أحب أن أنبه إليه هنا، فأنا واحد من السعداء بمصر المستقلة السعيدة بزعامتها اليوم فى الشرق الأوسط. وهذا المركز الممتاز وصلت إليه مصر بعد جهد مئات السنين بل ألوفها، ومصر من يوم عرفناها بلد بناء حضارى، وهؤلاء الطلبة المصريون يسعون إلى الوصول بدراساتهم إلى كسب الحياة أى الوظائف، ولكن عباقرة تاريخنا كلهم يظهرون من أولئك الطلاب والغالبية العظمى منها أولاد فلاحين لأن الفلاح المصرى أصل من أصول الحضارة المصرية والعالمية وهو الذى يبنى حضارتنا ويواصل تاريخنا الحضارى بجهده وعبقريته الحضارية ولا أنسى أننى وثلاثة من عباقرة تاريخنا الفكرى، كنا نسكن فى شارع الأخشيد بحى الروضة، وكنا نتلاقى فى الصباح ونحن فى الطريق إلى الجامعة لندرس، وكنا نذهب على

أقدامنا. كان إبراهيم الشرقاوى وزكى نجيب محمود ولويس عوض يسكنون فى شارع الأخشيد، وفى نفس الشارع كان يسكن مصطفى وعلى أمين، ولكن هذين كانا من طلبة الجامعة الأمريكية وكان لهما طريق آخر ولكنهما كانا صديقين لنا كان لهما مكتب فى شارع المناخ فى وسط البلد، وكانا يعملان فى الصحافة فى هذه السن الباكرة، وكانت لعلى أمين وأخيه مصطفى أمين زعامة علينا ولا أنسى مكتبهما فى شارع المناخ. وكان على أمين صحفيا عظيما فى تلك السن الباكرة وكانت لعلى أمين علاقة وثيقة بكل منشآت الصحافة فى مصر وكنت شديد الإعجاب بهما، وكنت افرغ من عملى فى دار الكتب الساعة السابعة مساء ثم أتجه رأسًا إلى مكتب الأخوين على ومصطفى أمين لكى اتفاهم معهما فى شئون الصحافة والكتابة، ورحم الله على أمين فقد كان صديقا كريمًا، وكنا نسعد بلقائه لنقرأ الصحف والمجلات العربية وغير العربية، وفى هذه السن الباكرة كان على أمين صديقًا ومحبًا وكريمًا، حوالى الثامنة مساء كان يجيئه العشاء من بيته أو يشتريه لنا ولنفسه، وكنا نأكل معا وفى أحيان كثيرة كان يشترى لنا الطعام من ماله ونأكل معه ونسلمه المقالات التى نكتبها، وكنت ألقى هناك عبد الرحمن الشرقاوى وكان شابًا موهوبًا وعن طريقه اتصلت بجريدة الأهرام ومن هنا عرفت طريقى إلى دار الهلال، وكان مركزها إذ ذاك قرب ميدان التحرير واشتغلت فيها بأجر متواضع جدًا ولكنه كان محترمًا، ولحق بى هناك فى دار الهلال عبد الرحمن الشرقاوى وعمل معى، ولكنه لم يسترح هناك لا أدرى لماذا، وقد رضى عنى اميل زيدان وكان أكبر أولاد جرجى زيدان، وكان معنا هناك شكرى زيدان وكان المدير المالى لدار الهلال، وكان هو الذى يتلقانا ويعهد إلينا بالعمل ويقدر الأتعاب، وكانت لى صلة وثيقة بلجنة التأليف والترجمة والنشر وكان مركزها فى شارع صغير يتفرع من شارع عبد العزيز قرب محل عمر أفندى، وكان مدير الدار الأستاذ أحمد أمين وكان إذ ذاك صحفيًا وأديبًا ممتازًا ولكنه كان مدبرا أو قل بخيلا معنا، ولكنه كان يفتح لنا بابه دائمًا وكنت أحبه وأعمل معه،

وكان يعطينى قروشا عن عملى ولكنى كنت محتاجًا لهذه القروش، وكان يدير مجلة الثقافة وكانت مجلة محترمة جدًا، وكان ينافسه أحمد حسن الزيات الذى أنشأ مجلة الرسالة وكانت لا تقل قدرًا عن مجلة الثقافة، وكان يكلفنى بمقالات وترجمات ولكنه لم يكن يدفع لى أكثر من جنيه واحد مهما كان العمل الذى يكلفنى به، ولكنى لم أعمل مع الزيات إلا قليلاً لأن الجنيه مهما كان فهو أتعاب قليلة جدًا خاصة وأن الأعمال التى كان يكلفنى بها عسيرة جدًا، وكان لا يضع إمضائى على شىء، وقد طلبت منه مرة أن يضع إمضائى على ما ينشر لى فقال لى: نحن هنا لا نعرف حكاية الإمضاء التى تطلبونها وأنتم مازلتم مبتدئين، وهذه هى معاملتى لكم فإذا لم تعجبك فأنت حر، ولم أعمل له بعد ذلك شيئا.

وإن ظلت علاقاتنا طيبة، وأذكر أنه قال لى مرة: نحن هنا لا نكسب شيئا لأن الصحافة الأدبية لا تباع فى مصر والعالم العربى، ثم عرفت بعد ذلك أنه ابتنى دارا عظيمة كانت مجلة الرسالة تحتل فيها دورا والباقى كان يؤجره، وكان الرجل ناجحًا فى حياته على أى حال.

وكلامى هنا يقتصر على نجاحه فى ميدان الاقتصاد والاجتماع لأننى لا أتحدث عن الأدب والفن فهذا ميدان لا أتكلم فيه ثم إن له ناسه المتخصصين فيه.

وقد كنا فى الماضى نقول إن الحكومات عندنا كانت مستقلة، فكل حكومة كانت تقول إنها مستقلة الرأى والسياسة، وكانت الحكومات تقول ذلك مجرد كلام أو دعاية، لأن الواقع أن كل الحكومات فى الماضى كانت خاضعة لسلطات كانت توجهها وتشرف عليها، وكنا كلنا نعرف هذا ونعرف من الذى يوجه هذه الحكومة أو تلك، بل كنا نعرف أسرار الحكومات، ونعرف أن كل ما تقوله عن نفسها مجرد دعاية وكنا نكره الدعاية ولا نحبها ونلعن الذين ابتدعوها فى العصور الحديثة، والحقيقة أن الدعاية كانت شرا فرضه علينا العصر الحديث فهى كذب منظم مرتب، وأنا أرجو ألا يغضب منى رجال الدعاية ووزراؤها الذين يسمون وزراء

ثقافة، ولكنهم لا يمسون الثقافة إلا فيما يتعلق بمصالحهم ومصالح حكوماتهم أو أحزابهم وأنا أعرف الكثيرين من وزراء الثقافة وأقدرهم وأعرف أنهم وزراء أو موظفون كبار ومحترمون، ولكنى لا أحب ما يسمونه بالثقافة وإن كنت أعرف أن وجود وزارات الثقافة والدعاية نفسه دليل على حريات الشعوب، فالحكومات فى الماضى لم تكن حرة وأن كانت تقول ذلك، أما اليوم فإن الشعوب هى التى تنتخب الحكومات وتشرف عليها ومن هنا فلابد أن يكون لكل حكومة وزارة دعاية وهيئات وظيفتها الرئيسية أن تقول لنا إن الحكومات تسير بنجاح فى طريق خدمة الشعب وتحقيق أهدافه، ووزراء الدعاية والعمل فيها دائما من أذكى الناس وأبلغهم، ونحن نعجب بهم وبالعمل الذى يقومون به وأحيانا نصدق كلامهم وإن كان الغالب لا نصدقه، وكلنا نعرف أنهم عباقرة أو ممتازون، وهم فى العادة من الأذكياء والقادرين على الكلام بأسلوب جميل وجذاب، وهم ضرورة من ضرورات الحكم اليوم فإن الحكومات اليوم منشآت سياسية تشبه الشركات ولهذا فلابد لها من يدعو لها أو يدافع عنها، والذى أرجوه اليوم أن يدقق رؤساء الحكومات فى اختيار وزراء للدعاية ورؤساء هيئاتها وربما كان هذا هو السبب فى أن إنجلترا مثلاً ليس لها وزارة دعاية فإن الحكومات فيها من انشاء الشعب الإنجليزى، بينما كانت الوزارات وكل أجهزة الدولة فى روسيا السوفيتية كانت من رجال الدعاية، لأن قوة النظام الشيوعى كانت تعتمد على الدعاية وستالين كان من أمهر رجال الدعاية فى الدنيا، وكان يفعل ما يريد ويقول إنه يخدم الدولة وكان يقتل من يريد قتله من خصومه ويقول إنه لم يقتله، ولا غرابة والحالة هذه أن ميخائيل جورباتشوف لم يحتج إلى عمل كبير لكى يخلص روسيا والعالم كله من لعنة الشيوعية، وهو نفسه رجل شيوعى وما زال شيوعيًا ولكنه كان ولا يزال يقول إنه شيوعى خيرًا أو أنه شيوعى فاضل صادق، وهذا فى ذاته خطر جسيم وإن كنا نؤكد أنه ممن الممكن جدا أن يظهر من يستطيع أن يقلده فى عمله ويعود بنا إلى خطر الشيوعية..

فهرس

الموضـــوع	صفحة
١ – الرئيس مبـارك.. ورياح النصر	٧
٢ – يا آل إسرائيل الأوطان لا تبنى بالحديد والنار	١٨
٣ – شعب مصر خاضها حرب بقاء واستعادة للكرامة وبدأ الاستعداد لها من هزيمة ١٩٦٧م	٢٨
٤ – لا ينفع العرب إلا العرب	٣٨
٥ – العرب فى عصرهم الجديد: الدنيا كلها تتغير فى أيامنا	٤٧
٦ – مواطنون للتصدير	٥٦
٧ – لابد أن ننجو ببلادنا من الأخطار العالمية القادمة	٦٤
٨ – نحن العـرب فى خطـر شـديد ولابـد أن تصفوا قلـوب بعضنا لبعض	٧١
٩ – نصر أكتوبر ١٩٧٣م ومكانة فى تاريخ مصر العام	٨٠
١٠ – السياسة لا تعرف إلا القـوة والسلطان ولا مكـان فيها للمثل العليا	٩١
١١ – ذكريات لن ننساها أبدًا حتى يتم تحرير الوطن العربى	٩٩
١٢ – نحن فى حاجة إلى هذه الرياسة وتلك الصراحة	١٠٩
١٣ – لن ينتصر اليهـود علينـا ولن ينشئوا وطنهم اليهـودى فى عالمنا العربى	١١٨
١٤ – يعنى إيه الشيوعية ماتت	١٢٧
١٥ – لابد من إصـلاح أوضاع الأمة الإسـلامية وتصحيح صورتهـا على خريطة العالم	١٣٦
١٦ – عالم العرب والإسلام عالم واحد	١٤٥
١٧ – كيف نحافظ لمصر على مركزها العالمى	١٥٣
١٨ – مصر وزعامة العالم العربى	١٦١
١٩ – مصر ومحمد على وبيته تاريخ عجيب	١٧٠
٢٠ – ما زلنا معرضين للخطر الشيوعى	١٨٠

رقم الإيداع	١٩٩٨/١٧٨٥
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5729-X

١/٩٨/٧١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)